أحاديث

في الدين والثقافة والاجتماع

حسن موسى الصفار

أحاديث

في الدِين والثَقافة والاجتِماع

المجلد السادس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ادْعُ إِلَى سَبيل رَبِّكَ بالْحكْمَة وَالْمَوْعظَة الْحَسَنَة
وَجَادلْهُمْ بَالَّتي هيَ أَحْسَنُ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيله
وَهُوَ أَعْلَمُ بَالْمُهْتَدينَ﴾

[سورة النحل:١٢٥]

الحمد لله رب العالمين اللهم

صل على محمد خاتم النبيين

وتمام عدة المرسلين وعلى

أله الطيبين الطاهرين،

وأصحابه المنتجبين

تقديم

بقلم: الأستاذ الدكتور محمد علي آذرشب[1]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

عناوين هذا الكتاب رغم اختلافها تنتظم جميعها تحت عنوان واحد هو

(١) أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة طهران ومساعد عميد شؤون البحث العلمي في كلية الآداب. رئيس مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية، ورئيس تحرير مجلة (ثقافتنا) علمية محكمة. له العديد من المقالات والدراسات في المجلات العلمية. كما أشرف على عشرات رسائل الدكتوراه والماجستير. وشارك في عدد من المؤتمرات العلمية في العالم العربي وأوربا. صدر له العديد من المؤلفات منها: نهج العاشقين، الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، العلاقات الثقافية الإيرانية العربية. كما ترجم عدداً من الكتب من الفارسية إلى العربية وبالعكس.

(الإحياء) وهذا العنوان هو الهدف النهائي من الإسلام:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**....﴾(الأنفال: ٢٤).

أبرز مظاهر الحياة (حركة) الكائن الحي على طريق كماله المرسوم، (والترابط العضوي) بين أجزاء جسم ذلك الكائن.

في دائرة (الحركة) ثمة دعوة في الكتاب إلى صيانة (كرامة) الإنسان، والتأكيد عليها واضح في كل الكلمات والمقابلات، فكرامة الإنسان فيها (أصل) و(قاعدة)، وهذا توجّه على غاية من الأهميّة، لأن الكرامة أو العزّة هي (الحياة) والذلّ هو الموت.

من هنا كانت الدعوة إلى صيانة كرامة الإنسان محوراً هاماً في دعوة الإحيايين. والواقع أن حركة الحضارة الإسلامية بدأت من نقطة استشعار الإنسان المسلم بعزّته وكرامته وخلافته في الأرض. والنصوص الإسلامية تملأ وجدان المسلم بهذا الإحساس حين تقصّ عليه أنباء سجود الملائكة لآدم ممثل البشرية.. وتعليمه الأسماء، وتصوّر له خالق السموات والأرض بأنه أقرب إليه من حبل الوريد، وتقول له: «**ما من شيء أكرم على الله من ابن آدم**». وهذا التكريم أعزّ الإنسانَ وأخرجه من ذلّ الانغماس في الذاتية الفردية والقبليّة، وجعله ينشدّ بالمثل الأعلى المطلق ويتحرك نحوه.

دعوة صاحب الكتاب إلى تفعيل المشاركة الجماهيرية في مجتمعاتنا ضمن إطار مجالس الشورى والانتخابات تأتي في هذا السياق، إذ إنها تصبّ في احترام الإنسان ورأيه ومشورته.

واهتمامه المتكرر بقدسية الحياة ورفض الاستهانة بحرمة الدماء والأعراض والأموال للإنسان.. أي إنسان، إنهما هو جزء من اهتمام عام بأصل ديني كبير وقاعدة هامة من قواعد التفكير والتشريع، وهي (كرامة الإنسان).

وكما ذكرنا: الكرامة تعني الحياة.. والحياة فيما تعني (الحركة).. والحضارة من نتائج هذه الحركة.

ويعود الكاتب إلى الواقع المؤلم لحياة المسلمين فيرى أن «قدسية الحياة ثقافة غابت مفرداتها عن عقلية الكثير من المسلمين المعاصرين».

ويرى أن «من أبرز مظاهر العجز والخلل في واقع مجتمعاتنا تدنّي موقعيّة الإنسان وانخفاض مستوى الاهتمام بقيمته وحقوقه وحماية كرامته».

وحقاً إن هذه الحالة من أبرز مظاهر العجز والخلل، فإليها يعود السبب في ركودنا وتخلفنا الحضاري.

كيف يمكن أن نتوقع حركة مستقبلية من مجموعة بشريّة لا تشعر بالعزّة والكرامة..؟! الذل والتهميش يجعلها تعيش ذاتياتها وشهواتها الهابطة ويسلبها أيّ تطلع مستقبلي.

وفي صفحات الكتاب نظرات واقتراحات بشأن إنقاذ إنسان المنطقة الإسلامية من الهزيمة النفسية التي مُني بها نتيجة تراكم عوامل تاريخية، ليستعيد عزّته الحقيقية وحركته الحياتية.

ومن مظاهر الحياة كما ذكرنا: الترابط العضوي. فالجسد الحيّ خلاياه وأعضاؤه مترابطة: «**إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى**».

وهكذا كانت أمتنا في عصور (حياتها).. تهبّ بأجمعها إذا تعرّضت ثغورها لعدوان.. ويرتبط أقصاها بأقصاها في مجالات العلوم والفنون والأدب، ويلتئم أصحاب الاتجاهات الفكرية المختلفة في مجالس حوار ونقاش علمي هادئ معطاء.

والترابط العضوي ظاهرة طبيعيّة في الجسم الذي تتجه جميع أعضائه نحو هدف واحد.. أو نحو مثل أعلى واحد.. أما حين يفقد هذا الجسم المثل الأعلى الواحد، فإن كلَّ واحد من أعضائه يعيش ذاتيته، والذاتيات تتصارع بطبيعتها، ولذلك كان في العصر الجاهلي ـ كما يذكر الكاتب ـ صراع دائب بين القبائل والعشائر أحصيت في (أيام العرب).

وبهبوط ظاهرة الحياة في الأمة عادت الحالة العشائرية لتتخذ طابعاً قبلياً أو إقليمياً أو قومياً أو طائفياً.

ودعوة صاحب الكتاب إلى نبذ الصراع الطائفي من أولويات اهتمامه، فهو لا يترك مجالاً يُتاح له في الإعلام المقروء أو المسموع أو المرئي، ولا تفوته فرصة من فرص الحديث إلا ودعا إلى وحدة الأمة الإسلامية وفق منطق إسلامي إنساني متعقل أصيل ومعاصر.

يعود إلى سيرة السلف الصالح وإلى سيرة التقريبيين المعاصرين وإلى مقاصد الشريعة وإلى تحديات الواقع الراهن ليؤكد ضرورة تجاوز الخلافات التاريخية لنرسم المستقبل الإسلامي المشرّف لهذه الأمة.

يطالب بالحوار العلمي البناء والتركيز على المشتركات والابتعاد عن الانفعال والاستفزاز.

وكلّ محاور هذه الدعوة تنطوي أيضاً تحت عنوان: (الأحياء). لأنها دعوة إلى ترك الذاتيات التي تتمترس وراء الطائفية، وإلى الاتجاه نحو مثل أعلى واحد.

فضيلة العلامة الشيخ حسن موسى الصفار عالم الدين الذي تحتاجه أمتنا في ظروفها الراهنة حيث تشرف بإذن الله على استعادة الحياة، ومن ثم استئناف حركتها الحضارية.

فضيلته يتحلى بما يجب أن يتحلّى به الإحيائيون، وفي طليعة ذلك أنه لا يعيش لذاتيته، بل يعيش للمثل الأعلى الإسلامي، ويريد أن يقدّم هذا المثل الأعلى لأمته ويدعوها لأن تتحرك نحوه، لم يفكّر في إرضاء العامة، ولا إرضاء صاحب القدرة والسلطان، لكنه سعى لأن يرفع المستوى الثقافي العام، وفي كسب كل قوة في المجتمع نحو تحقيق وحدة الأمة وعزّتها.

أرجو أن تكون هذه الأحاديث (الإحيائية) منطلقاً لخطاب إسلامي يسود كل أوساطنا العلمية الدينيّة فتلك مقدمة لابدّ منها لعودتنا إلى (الحياة) الطيبة الإسلامية.

والحمد لله رب العالمين.

محمد علي آذرشب

١ جمادى الثاني ١٤٢٦هـ
طهران

أول الحديث

تعولم الخطاب الإسلامي بغير إرادة منه، ودون سابق عزم أو تخطيط، لكن تيار العولمة الجارف فرض نفسه على الجميع، فأحداث كبيرة تقع في مختلف أنحاء العالم يجد الإسلاميون أنفسهم طرفاً فيها، إما لمشاركة بقرار فردي من بعض الأطراف أو لتخطيط معاد بإقحام المسلمين والزج بهم في شتى المعارك تحقيقاً لمقولة صراع الحضارات، أو لمجرد إشاعة تنطلق لخلق إثارة إعلامية، أو لأي سبب آخر.

ويكفي أن أهم حدث هزّ العالم المعاصر في الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠٢م تفجيرات نيويورك وواشنطن، كان لونه إسلامياً فاقعاً.

إنه حدث مفصلي في تاريخ العالم الحديث، تأسست عليه كثير من التغييرات والأحداث الدولية الحاسمة، وخاصة فيما يرتبط بواقع المسلمين، وحركة وجودهم ومستوى علاقاتهم مع العالم.

ولا يكاد يمر يوم لا تحمل فيه وكالات الأنباء والمصادر الإعلامية خبراً أو أكثر له ارتباط بقضايا المسلمين، ومن نوع الأخبار التي تثير الاهتمام كالتفجيرات الإرهابية الضخمة، أو مآسي الاختطاف الأليمة، أو صور القتل بالذبح والنحر المفزعة.

ومن الطبيعي أن تستدعي مثل هذه الأحداث حضوراً أو استحضاراً للخطاب الإسلامي ضمن المواقف والاتجاهات المختلفة في ساحته.

من جهة أخرى فقد أصبحت وسائل الاتصال المتطورة، وقنوات الإعلام الفضائي المتقدمة متاحة أمام الجميع، فهي سوق استثمار دولية ضخمة من صالح أربابها انخراط الجميع في معادلتها الاستهلاكية، كما أنها تلبي حاجة ملحة لكل الأطراف ذات الاستهدافات المختلفة سياسية أو دينية أو اقتصادية.

واقتحم الإسلاميون هذا العالم المتطور، فأصبحت لديهم عشرات الفضائيات الإسلامية، وآلاف المواقع على الشبكة العنكبوتية، إضافة إلى عدد كبير من الصحف والمجلات. وحضور الإسلاميين لا يقتصر على المنابر الخاصة بهم، بل لهم حضورهم وتواجدهم الذي تفرضه الأحداث من خلال مختلف المنابر والقنوات.

لكن ما يجب بحثه ومناقشته هو مستوى واتجاه العولمة في الخطاب الإسلامي، هل أنها في حدود ردّ الفعل والاستجابة لتأثيرات الأحداث، أم تتجاوز ذلك إلى مستوى تقديم الطروحات، وبلورة العناوين والشعارات؛ القابلة للتدوير والتفعيل على المستوى العالمي؟

وهل تقتصر حالة العولمة إسلامياً على استخدام الوسائل المتطورة والانجازات التقنية الحديثة أم تتعداها إلى تجديد المضامين وتحديث الاهتمامات، وتطوير المحتوى؟

فالعولمة ليست مجرد آليات ووسائل، بل هي آفاق من الاهتمامات العالمية التي تتخطى الحواجز والخصوصيات، وهي ساحة صراع وتنافس بين الثقافات وما ينبثق عنها من أنماط سلوك وأساليب عيش..

لقد وضعت العولمة كل الأديان الروحية ومناهج القيم الأخلاقية أمام تحديات

صعبة قاسية، وكأنها تريد إعادة تشكيل حياة الإنسان في أبعادها المختلفة ضمن معايير ومقاييس عالمية موحدة، تقررها الأطراف الأكثر قدرة على شؤون العالم.

فأين يقع الخطاب الإسلامي من معادلة العولمة هذه؟

إن جزءاً كبيراً من هذا الخطاب دخل العولمة في حدود المظاهر الشكلية، باستخدام وسائلها وتقنياتها، لكن مضمون الخطاب ومحتواه لا زال قروياً ينتمي لعصر (القرية) الصغيرة المنعزلة، وليس القرية الكونية التي تغطي الكرة الأرضية.

إنه يعبر عن هموم واهتمامات جزء من مجتمع تلك القرية الصغيرة، دون أن يرتقي إلى إدراك شيء من هموم البشرية على مستوى العالم.

والقضايا التي يعالجها هذا الخطاب تبدو تافهة أمام ما يشغل بال إنسان هذا العصر من أزمات حادّة تهدد مستقبل البيئة والإنسان بأخطار كبيرة.

إنه خطاب يتغنى بأمجاد غابرة، ليكرس بذلك واقعاً متخلفاً، وبدل أن يثير جمهوره إلى المستقبل، يشغلهم بصراعات تاريخهم الماضي، لينقسموا إلى فرقاء يقدّس بعضهم ذلك الخليفة، ويعاديه بعض آخر، مع أن عهد الخلافة قد ولى وانتهى منذ زمن طويل.

أو يُعاد إحياء الاصطفاف والتخندق على أساس الخلاف حول مقولات نظرية أنتجها عصر النزاعات الكلامية قبل قرون ولا تأثير لها على واقع الحياة.

والأفظع من ذلك إصرار هذا الخطاب على تقسيم العالم إلى ثنائية دار سلام ودار حرب، مع تجاهل كل التطورات الجغرافية والسياسية والفكرية التي يعيشها العالم.

هكذا يبدو الخطاب الإسلامي المشغول بأهل قريته الصغيرة من فئة المسلمين، بل من فئة المؤمنين بمذهبه في القرية، بل من أتباع نهجه الخاص داخل المذهب، وإن استخدام وسائل العولمة المتطورة وتقنياتها، وبرامج كثير من القنوات الفضائية

الإسلامية، وتوجهات أكثر مواقع الإنترنت الدينية، تكشف عن هذه الحقيقة المرّة بجلاء.

بالتأكيد فإن هذا المستوى من الطرح والأداء للخطاب الإسلامي في عصر العولمة ومن خلال أدواتها، يقدم صورة غير مشرفة للإسلام، ويعطي المجال للتشكيك في قدرته على الثبات أمام تحدي الحضارات والثقافات الأخرى، وفي صلاحيته لتوجيه حياة الإنسان المعاصر.

إن جهوداً تأسيسية كبرى يجب أن تبذل لوضع قواعد وإرساء بنية معرفية تحتية ينطلق منها الخطاب الإسلامي المعاصر؛ لعل من أولياتها التوفر على رؤية حول واقع العالم الجديد، والقراءة الموضوعية للتغيرات التي تعيشها المجتمعات البشرية اليوم. هذا أولاً.

وثانياً: التفكير بعقلية إنسانية منفتحة، تهتم بمصلحة الجنس البشري، وتدرك تداخل المصالح بين أبناء الأسرة الإنسانية، وتتلمس الحلول والمعالجات للتحديات التي يواجهها الجميع.

ثالثاً: تجديد النظر والاجتهاد في الفكر والفقه الإسلامي، لاستنباط الآراء والأحكام حول مستجدات القضايا، وعلى ضوء التطورات المعرفية، ذلك لأن الفكر والفقه ناتج كسب بشري، يتأثر بمستوى منتجيه وفهمهم وبتأثير البيئة التي عاشوا فيها وتفاعلوا معها.

إن النص الشرعي الثابت فوق الزمان والمكان وحدود البيئات الاجتماعية، لكن فهم النص ليس كذلك، وما خلّفه لنا أسلافنا من العلماء والفقهاء رضوان الله عليهم، وجزاهم على عطائهم وجهادهم خيرا، من آراء فكرية وفقهية، يعبّر عن اجتهادهم وفهمهم، ولا يسقط عنا واجب الاجتهاد، حيث يجب على الأمة في كل عصر أن

تنجب مجتهدين أكفاء يقومون بواجب النظر والاستنباط، ولو كنا ملزمين باجتهادات السابقين، أو يصح لنا الاكتفاء بها والوقوف عندها لما كان معنى لوجوب الاجتهاد على الأمة في كل عصر وجيل على نحو الوجوب الكفائي كما قرر الفقهاء.

رابعاً: التواصل مع تجارب الأمم والشعوب والانفتاح عليها للاستفادة منها والتفاعل معها، استجابة لدعوة القرآن للتعارف بين المجتمعات البشرية ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾(١)، وأخذاً بوصية نبينا الكريم ﷺ في قوله: «**اطلبوا العلم ولو في الصين**»(٢)، وقوله ﷺ:«**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها**»(٣).

خامساً: حسن العرض والتقديم لمبادئ الإسلام وتعاليمه، ذلك أن صحة المحتوى والمضمون لا تغني عن حسن أسلوب الطرح، من هوا يؤكد القرآن الكريم على الاجتهاد في اختيار أفضل الأساليب والوسائل للدعوة إلى الله؛ يقول تعالى:﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾(٤).

تلك هي بعض الأحاسيس والتصورات التي تشغل بالي، باعتباري أحد المهتمين والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية، وتتاح لي فرص التخاطب مع الجمهور وعبر وسائل الإعلام المختلفة، فأرى نفسي وجهاً لوجه أمام التحدي الكبير، لذلك أرفع صوتي مستنهضاً همم إخواني الدعاة إلى الله، لنتواصل ونتبادل التجارب والآراء، ونتعاون جميعاً من أجل صنع بنية تحتية، وقواعد أساسية، ننطلق منها في تحمل مسؤولياتنا تجاه ديننا وأمتنا ومجتمعنا البشري العام.

وبين يدي القارئ الكريم هذا الجهد المتواضع، الجزء السادس من كتابي

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

(٢) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج٢٧ ص٢٧، حديث رقم ٣٣١١٩، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، بيروت.

(٣) الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، ج٣ ص٤٧٩، حديث رقم ٢٦٨٧، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) سورة النحل آية ١٢٥.

(أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع)، وهو ملف سنوي أجمع فيه متفرقات نشاطي الثقافي الدعوي، من كلمات جمعة، وملخصات بعض الندوات، والمقابلات الإعلامية.

أرجو أن يشكل إسهاماً في تفعيل حالة التواصل وتبادل التجربة مع إخواني وزملائي الفضلاء والمبلغين، وأن أستفيد من آرائهم وملاحظاتهم.

كما يحتوي هذا المجلد على عدد من المقالات التي كتبتها في بداية مسيرتي الدعوية الثقافية، ونشرتها حينها في الصحافة العمانية، حيث أقمت فيها بعض الشهور من سنوات ١٩٧٤م إلى ١٩٧٧م، ولم أكن احتفظ بنسخة منها، وقد تفضّل بعض الأخوة العمانيين بإرسال صورة من بعض تلك المقالات، فأحببت نشرها ضمن هذا المجلد لحفظها كتوثيق لما تعبّر عنه من أفكار واهتمامات ذلك المقطع الزمني، أسأل الله حسن التوفيق والعاقبة.

ولا يفوتني أن أشكر الأخوة الأعزاء العاملين معي في المكتب، وخاصة من لهم دور مباشر في إعداد هذا الكتاب: فضيلة الشيخ صادق الرواغة، والأستاذ طارق حسين، والأخ ميثم الفردان، جزاهم الله جميعاً خيرا، ووفقنا وإياهم لما يحب ويرضى، والحمد لله رب العالمين.■

حسن بن موسى الصفار
القطيف ١١/ ٥/ ١٤٢٦هـ
١٨/ ٦/ ٢٠٠٥م

الإسلاميون وحقوق الإنسان

كلمة الجمعة بتاريخ ٥ صفر ١٤٢٥هـ

لقد أكدت آيات القرآن الكريم، قبل انبثاق مواثيق حقوق الإنسان في أوربا بعشرة قرون على كرامة الإنسان، وحفظ حقوقه المادية والمعنوية بكل تفاصيلها وجزئياتها، واعتبرت أن أي انتهاك لشيء من هذه الحقوق يشكل عدواناً ومناوءة لله تعالى ولدينه ورسله، تستوجب غضب الله تعالى وسخطه وعقوبته ونكاله.

فالاعتداء على حياة فرد واحد من البشر يعتبره القرآن الكريم عدواناً على البشرية جمعاء، وإبادة لها، يقول تعالى: ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾(١).

والكرامة حق إلهي منحه الله تعالى للإنسان من حيث هو إنسان، وبغض النظر عن أي صفة أخرى، يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾(٢).

ويؤكد القرآن الكريم حرية الإنسان في آرائه ومعتقداته ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾(٣).

وحتى أنبياء الله تعالى لا يحق لهم ممارسة أي ضغط، أو إكراه على حرية المعتقد والرأي، ويقتصر دورهم على الدعوة والتبليغ فقط، يقول تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا**

---

(١) سورة المائدة آية ٣٢.

(٢) سورة الإسراء آية ٧٠.

(٣) سورة الكهف آية ٢٩.

﴿أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[١]، ويقول تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وفي مجال حماية الحقوق المادية، يتوعد القرآن الكريم من يسلب شيئاً من أموال الآخرين ـ كاليتامى مثلاً ـ بأشد العذاب، يقول تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[٣].

وعن حماية الحقوق المعنوية، يقول تعالى:﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾[٤].

وفي السنة النبوية مئات النصوص والأحاديث التي اقتبس منها الفقهاء تشريعات الإسلام في حفظ حقوق الإنسان المادية والمعنوية، كأحكام القصاص والديات، والوظائف الاجتماعية، ومناهج الأخلاق والآداب.

واستيعاب الحديث عن حقوق الإنسان في النصوص والتشريعات الإسلامية يحتاج إلى بحوث مفصلة، لكن ما أريد مناقشته هو دور الإسلاميين في تبني قضايا حقوق الإنسان والدفاع عنها.

واقع الاهتمام بحقوق الإنسان

هناك كثير من المباهاة والاعتزاز لدى الإسلاميين أمام الحضارة الغربية بأسبقية الإسلام وأفضلية اهتمامه بحقوق الإنسان. وهو أمر صحيح على مستوى النصوص والتعاليم والأحكام. أما على صعيد الممارسة والواقع فيجب الاعتراف بالقصور والتقصير، وأن الآخرين سبقونا وتقدموا علينا بمسافات بعيدة.

ويمكن رصد بعض مواقع تخلفنا ـ كمسلمين ـ في مجال حقوق الإنسان ضمن المحاور التالية:

---

(١) سورة الغاشية آية ٢١-٢٢.
(٢) سورة يونس آية ٩٩.
(٣) سورة النساء آية ١٠.
(٤) سورة الحجرات آية ١٢.

١ .التأخر في البلورة والصياغة التقنينية لقضايا حقوق الإنسان، ذلك أن النصوص الدينية غالباً ما تكون عامة مطلقة، تحتمل مختلف التفاسير، وتتفاوت حول تفاصيل تطبيقاتها آراء العلماء، وحتى التشريعات والأحكام الفقهية المرتبطة بحقوق الإنسان، غالباً ما تكون صياغتها من قبل الفقهاء على شكل فتاوى لتبيين الحكم الشرعي للفرد المسلم.

والخطوة المتقدمة التي حصلت في المجتمعات الغربية هي الصياغة التقنينية الواضحة لحقوق الإنسان على شكل وثائق وقوانين ومعاهدات، تأخذ صفة الإعلان الملزم على المستوى المحلي أو العالمي.

فعند انبثاق الثورة الفرنسية أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية بتاريخ ٢٦ آب/ أغسطس سنة ١٧٨٩م إعلان حقوق الإنسان والمواطن في سبع عشرة مادة تضمنت مبادئ في الحقوق والحريات، وعندما صدر الدستور الفرنسي سنة ١٧٩١م كان هذا الإعلان ديباجة له وجزءاً منه، وفي دستور ١٧٩٣م الذي أقره المؤتمر الوطني (الكونفنسيون) أضيفت مواد أخرى لإعلان حقوق الإنسان والمواطن تتعلق بالمجال الاقتصادي والاجتماعي، وأصبح ذا خمس وثلاثين مادة من أصل ١٢٤ مادة هي كل الدستور.

وبعد إنشاء الأمم المتحدة أقرت جمعيتها العامة في ١٠ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٤٨م (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) ويقع في ثلاثين مادة، ثم أُلحقت به اتفاقيتان، الأولى بشأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والثانية بشأن الحقوق المدنية والسياسية مع برتوكول اختياري بشأن الاتفاقية الثانية، وذلك بتاريخ: ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦م.

على الصعيد الإسلامي، ومع وجود تحفظات على بعض النقاط الواردة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فقد بدأت فكرة إصدار إعلان إسلامي لحقوق الإنسان سنة ١٩٧٩م من قبل منظمة المؤتمر الإسلامي التي تضم الدول الإسلامية، حيث قرر المؤتمر الإسلامي العاشر لوزراء الخارجية تشكيل لجنة مشاورة من المتخصصين لإعداد لائحة بحقوق الإنسان في الإسلام، وقد أحيلت على المؤتمر الحادي عشر،

والذي قام بدوره بإحالتها على لجنة قانونية، وعرض النص المعدّل على مؤتمر القمة الإسلامي الثالث، ولكنه أحاله على لجنة أخرى، ووافق المؤتمر الرابع عشر لوزراء الخارجية في (دكّا) على المقدمة وأول مادة فيه، وأحال باقي المواد على لجنة ثالثة، ثم تتابعت المؤتمرات مؤكدة عليها، إلى أن عقد اجتماع طهران في ديسمبر ١٩٨٩م وأعدَّ الصيغة النهائية والتي تمت الموافقة عليها نهائياً في المؤتمر التاسع عشر لوزراء الخارجية في القاهرة، وهكذا تكون اللائحة قد مرّت بمجملها في عشرة مؤتمرات للخارجية: (فاس، إسلام آباد، بغداد، نيامي، دكّا، صنعاء، عمان، الرياض، طهران، القاهرة) وثلاثة مؤتمرات للقمة في (الطائف، الدار البيضاء، الكويت) ومجموعة من جلسات الخبراء، واستغرقت هذه الولادة العسيرة للإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان عشر سنوات، أما التزام الدول الإسلامية عملياً بهذا الإعلان فقد يحتاج إلى عشرات أخرى من السنوات!!

٢. ضعف الاهتمام بقضايا حقوق الإنسان في الخطاب الإسلامي: فبينما نجد اهتماماً كبيراً بالقضايا العقدية والعبادية، وحتى الشأن السياسي أخذ حيزاً من الاهتمام في الخطاب الإسلامي المعاصر، لكن قضية حقوق الإنسان لم تنل مستوى من الطرح والاهتمام إلا بشكل محدود، غالباً ما تكون من منطلق الدفاع عن الإسلام أمام من يتهمه بتجاهل حقوق الإنسان، وللتباهي بموقعية حقوق الإنسان في التراث الإسلامي، أو تكون في سياق عرض الظلامات التي يتعرض لها المسلمون والإسلاميون بالاحتكام إلى مواثيق حقوق الإنسان.

٣. محدودية التصدي للدفاع عن حقوق الإنسان من قبل الإسلاميين: فقد تأسست جمعيات ولجان كثيرة على المستويين العالمي والمحلي، لكن أغلب المتصدين لإنشائها والمتطوعين للعمل فيها هم من غير الإسلاميين، ولم تبادر الجهات الإسلامية إلى تبني الدفاع عن حقوق الإنسان إلا في السنوات الأخيرة لمواجهة ما أصاب المنتمين إليها من ضغوط ومضايقات تعسفية. وغالباً ما تهتم أي جهة بانتهاكات حقوق الإنسان التي تحصل لأتباعها، أو للشريحة التي تنتمي إليها. ولا شأن لها بما يحصل للآخرين.

٤. واقع الانتهاك لحقوق الإنسان، حيث تفرد مختلف التقارير الدولية مساحة واسعة لكثير من بلدان العالم الإسلامي، لرصد انتهاكات حقوق الإنسان فيها، على مختلف المستويات.

ولا يقتصر التجاوز لحقوق الإنسان في كثير من بلدان العالم الإسلامي على الجهات الحكومية الرسمية، بل إن بعض ألوان العلاقات السائدة في المجتمع تتضمن حيفاً وتجاوزاً لحقوق الإنسان، في العلاقات الأسرية، وفي التعامل بين الفئات والشرائح الاجتماعية المختلفة الانتماء.

لماذا التغاضي عن حقوق الإنسان؟

المسافة البعيدة الفاصلة بين عظيم اهتمام الإسلام فكراً وتشريعاً بحقوق الإنسان، وبين ضعف اهتمام المسلمين وخاصة الإسلاميون منهم بقضاياها، تطرح تساؤلاً ملحاً عن الأسباب والعوامل الكامنة خلف هذا التباين.

ويأتي في طليعة تلك العوامل ـ كما يبدو لي ـ العامل الثقافي المعرفي، حيث ركزت الثقافة الدينية المتوارثة على محورية الدفاع عن حقوق الله تعالى على عباده في الجانب العقدي والعبادي، فاهتم علماء المسلمين ودعاتهم بتبيين العقائد الدينية، والفرائض العبادية فيما يرتبط بالعلاقة بين العبد وربه، وفيما ينقذه وينفعه في آخرته، أما حقوق الناس فيما بينهم وسبب نجاحهم في تنظيم حياتهم الدنيوية فلم تنل حظها من الاهتمام والتركيز.

من ناحية أخرى فإن بعض المفاهيم الأخلاقية، والتعاليم الدينية، حصل التباس في فهمها، وتشخيص موارد تطبيقها، فخلقت نوعاً من العزوف والتساهل في أذهان المتدينين تجاه المطالبة بالحقوق والدفاع عنها.

ومنها مفهوم الصبر، والذي هو في الأصل يعني الثبات والاستقامة أمام التحديات، لكنه أصبح يعني الاستسلام والخنوع، ومنها مفهوم الزهد وهو في الأصل التسامي على الأهواء والشهوات التزاماً بالمبادئ والقيم، فأصبح يعني اللامبالاة تجاه شؤون الحياة.

ويأتي في هذا السياق فهم بعض الأحاديث في التعامل مع الحاكمين، والتي يدل الصحيح منها على الحذر من انفلات النظام ووقوع الفتن، فأصبحت تعني القبول بكل التصرفات الصادرة عن الحاكم وإن كانت جائرة مخالفة للشرع.

لقد تم إغفال النصوص والمفاهيم الدينية التي تربي الإنسان المسلم على التمسك بحريته وكرامته وحقوقه، وتشجعه على الدفاع عنها، وعدم القبول بالظلم والعدوان والانتهاك لشيء من حقوقه المادية أو المعنوية.

إن الله تعالى يقول: ﴿**فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾[١]، ويصف المؤمنين بأنهم يجاهدون لاستعادة حقوقهم، يقول تَعَالَى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ**﴾[٢].

وورد عن الإمام علي عليه السلام: «**ما ضاع حق خلفه مطالب**».

وفي دعاء مكارم الأخلاق الوارد عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام جاءت الفقرات التالية: «**واجعل لي يداً على من ظلمني، ولساناً على من خاصمني، وظفراً بمن عاندني، وهب لي مكراً على من كايدني، وقدرة على من اضطهدني**».

ونقل النووي في شرحه لصحيح مسلم عن أبي علي الدقاق قوله: «**من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس**».

فلا بد من الطرح المتوازن للمفاهيم، حتى لا يقع الالتباس والخلل في المعرفة والسلوك.

وهناك عامل سياسي يتعلق بتحاشي العلماء والمفكرين الاصطدام مع السلطات والحكومات في التاريخ الإسلامي، كحكومات الأمويين والعباسيين، وأشباههم الذين مارسوا الاستبداد السياسي، وانتهكوا كثيراً من حقوق الإنسان، مما يجعل الحديث حول تلك الحقوق بمثابة اعتراض على تلك السلطات، أو تحريض للجمهور على ممارستها.

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤.

(٢) سورة الشورى آية ٣٩.

وقد رصد أحد الباحثين المعاصرين بعض ما طفحت به سجلات التاريخ الإسلامي من انتهاكات حقوق الإنسان، فتكونت موسوعة ضخمة تحت عنوان (موسوعة العذاب) طبعت في سبعة مجلدات، تصل إلى حوالي ٣٠٠٠ صفحة. وفيها من ألوان الانتهاكات والتعدي على الحرمات والحقوق ما يندي له الجبين، ويوجب الدهشة والذهول.(١)

وحتى بعد زوال تلك الحكومات، ابتليت الأمة بمرض التمجيد للتاريخ، والتقديس للأسلاف، فأصبح النقد لأولئك الحاكمين وسياساتهم مرفوضاً عند البعض، تحت شعار ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(٢).

صحيح أن الاستغراق في مشاكل التاريخ غير مجد، ومضر إذا ما استغل لتعميق الخلافات والانقسامات في الأمة، لكن إضفاء هالة التمجيد والتقديس تحرم الأمة من أخذ الدروس والعبر، وقد تمنح الشرعية والمقبولية لتلك الممارسات الإجرامية.

وثمة عامل اجتماعي يتمثل في قوة الأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع والتي ضعف العلماء والإسلاميون عن مواجهة ما فيها من انتهاكات لحقوق الإنسان، وسكتوا عن تبيين رأي الشرع مراعاة للواقع الاجتماعي. كما هو الحال في بعض صور التعامل المسيء مع الزوجة والمرأة بشكل عام، وكذلك القسوة في التعامل مع الأولاد والتلاميذ والخدم.

ومن العوامل المستجدة التي سببت عزوف الإسلاميين عن الاهتمام بقضية حقوق الإنسان،الخلل في مصداقية طرح الدول الغربية لحقوق الإنسان، إضافة إلى بعض التحفظات على بعض موادّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، لمخالفتها لأحكام شرعية منصوصة، كحرية الارتداد عن الدين، والمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة في مثل الإرث وحق الطلاق..

---

(١) الشالجي: عبود، موسوعة العذاب.
(٢) سورة البقرة آية ١٣٤.

فمن الواضح أن بعض الدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية هي المثال الأبرز، تمارس الازدواجية وتستغل شعارات حقوق الإنسان لخدمة مصالحها وأغراضها، فتغض الطرف عن أبشع الانتهاكات لحقوق الإنسان من قبل الأنظمة الحليفة لها، بينما تملأ الدنيا ضجيجاً ضد المتمردين على هيمنتها. وما السكوت على الاحتلال الإسرائيلي وممارساته الإجرامية المستمرة تجاه الشعب الفلسطيني، بل دعمه والدفاع عنه إلا دليل سافر على خلل المصداقية، وسوء الاستغلال لقضية حقوق الإنسان.

وكرد فعل على هذه السياسات أخذت بعض الجهات الإسلامية تنظر بشك وريبة لطرح موضوع حقوق الإنسان، وكأنه ورقة مشبوهة، وكلمة حق يراد بها باطل.

نحو اهتمام أكبر بحقوق الإنسان

مهما كانت وجاهة بعض هذه المبررات، وحجم بعض تلك العوامل والأسباب، إلا أنه لا يصح أن تحجبنا عن حقيقتين عظيمتين:

الأولى: موقعية حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، والتأكيد الخطير على رعايتها وحمايتها، فلم تحذر النصوص الدينية من شيء كتحذيرها من جريمة الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين، كما أن إقامة العدل بين الناس هو الهدف الأساس للشرائع الإلهية ولابتعاث الأنبياء، يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[1].

مما يعني أن التساهل تجاه هذه القضية يعني إضاعة هدف أساس للدين، والتنكر لأهم شرائعه ومقاصده.

الثانية: الارتباط العميق بين رعاية حقوق الإنسان ومستوى التقدم الحضاري في الأمة، حيث لا يمكن لأمة أن تتقدم، وأن تحقق الاستقرار والتنمية، وخاصة في هذا العصر، إذا لم توّفر الكرامة لأبنائها، فالإنسان المقهور المسحوق لا ينجز تقدما

(١) سورة الحديد آية ٢٥.

حقيقياً، ولا ينتج عطاءً، كما أن عالم اليوم لن يحترم أمة تتجاهل حقوق الإنسان.

وعلينا أن نعترف بمدى التخلف الذي تعيشه الكثير من المجتمعات الإسلامية على صعيد رعاية حقوق الإنسان. فما تتناقله التقارير الصادرة عن المؤسسات المعنية بهذا الشأن عن الواقع السيئ لحقوق الإنسان في بلاد المسلمين ليس كله حملات مغرضة، وإن كان هنالك غرض في توظيفه من قبل بعض الجهات، لكن ما يحصل من انتهاكات قد يكون أكثر مما تستعرض تلك التقارير.

هاتان الحقيقتان تفرض على الإسلاميين الواعين أن يبدو الاهتمام اللازم بقضية حقوق الإنسان، وأن يتصدوا للدفاع عنها، بنشر رؤية الإسلام وثقافته الحقوقية، عبر مناهج التدريس، ووسائل الإعلام والتخاطب مع الجمهور، وبتشكيل المؤسسات والجمعيات التي تتبنى قضايا حقوق الإنسان، وممارسة مختلف الوسائل والأساليب المشروعة.

الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان

إنشاء الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان في المملكة العربية السعودية يمثل خطوة استجابة لهذا التحدي الكبير، حيث بادرت نخبة واعية من أبناء هذا الوطن الغالي لتشكيل هذه الجمعية من أجل العمل على حماية حقوق الإنسان، والوقوف ضد الظلم والتعسف والعنف والتعذيب وعدم التسامح، وللتعاون مع المنظمات الدولية العاملة في هذا المجال، حسب ما ورد في النظام الأساسي للجمعية.

إن تأخر هذه الخطوة زمنياً، أو وجود ملاحظات لدى البعض على طريقة إنشائها، لا ينبغي أن يمنع من مباركتها وتشجيعها والتعاون معها لتحقيق الأهداف النبيلة.

فهي تجربة رائدة نتطلع إلى نموها وتطويرها، لتساعد على تلافي القصور والتقصير الذي تعاني منه الساحة الإسلامية في مجال الاهتمام بحقوق الإنسان.

ونجاح هذا المشروع فيه خير للوطن والمواطنين والدولة، فالوطن الذي تحترم فيه حقوق الإنسان يتعمق ولاؤه في نفوس أبنائه، ويستفيد من تفعيل طاقاتهم وقدراتهم

في التنمية والبناء بأقصى حد ممكن، والمواطن الذي يتمتع بكامل حقوقه الإنسانية، يصبح أكثر سعادة وعطاءً وإخلاصاً لوطنه وأمته، والدولة التي ترعى وتحمي حقوق مواطنيها تستحق كل الولاء والالتفاف الشعبي داخلياً، وتحظى بالاحترام والتقدير عالمياً.

ولن يتحقق هذا النجاح إلا إذا بذل الإخوة الكرام أعضاء الجمعية جهودهم المباركة، وتعاونت معهم أجهزة الدولة، وأحاطهم المواطنون بالدعم والمساندة الكافية.■

إرادة التعاون وثقافة العمل الجمعي

كلمة الجمعة بتاريخ ١٢ صفر ١٤٢٥هـ

فحين يتعاون الإنسان مع الآخرين، يتسع أفق تفكيره، لإضافة آرائهم إلى رأيه، كما تتضاعف إنتاجيته لانضمام طاقاتهم إلى طاقته.

وفي التعاون ترويض للنفس على المرونة، وحسن التوافق، وتنمية للقدرات الإدارية والأخلاقية.

إن أي إنسان مهما عظمت كفاءته وقدرته، فإنها تبقى محدودة أمام آفاق الحياة وإمكاناتها، وأمام تحديات الواقع ومجالات التطلع والطموح.

لذلك يجد نفسه إن كان طموحاً، أمام أحد خيارين:

الانكفاء على قدرته والانطلاق منها لتحقيق الممكن من الانجازات، أو التعاون مع الآخرين لمزيد من الإنتاجية والتقدم.

إن ضيق الأفق، وضحالة الوعي، وضعف الهمة، تدفع الكثيرين للخيار الأول، بينما ينطلق الواعون الناضجون باتجاه خيار الشراكة والتعاون.

والمجتمع المتقدم هو الذي تسود فيه حالة العمل الجمعي، في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية، بينما يفرز واقع التخلف أسلوب العمل الفردي والعجز عن الشراكة والتعاون في شتى المجالات.

والتفاوت القائم اليوم بين حال المجتمعات الغربية المتقدمة، وواقع مجتمعات العالم الثالث المتأخرة، مصداق بارز لهذه الحقيقة الواضحة.

هناك تتعاون الحكومات مع قوتها، ضمن أحلاف وتكتلات، كالاتحاد الأوربي، الذي يضم دول أوربا، ويهدف إلى تحقيق تكاملها الاقتصادي، وتنسيق جهود التنمية الاجتماعية، وتحقيق الوحدة السياسية، وقد أصدرت عملة موحدة (يورو) ولديها برلمان منتخب من جميع دولها.

وكذلك حلف شمال الأطلسي الذي يضم ستة عشر دولة، هي دول أوربا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ويعمل كمنظمة دولية دفاعية، ويستهدف حل الخلافات بين الدول الأعضاء بالطرق السلمية، واعتبار أي اعتداء على دولة في الحلف اعتداءً على الجميع، ويضع خططاً دفاعية مشتركة.

إضافة إلى مجموعة الدول الصناعية السبع (كندا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، اليابان، بريطانيا، أمريكا). وأمثال ذلك من التكتلات العالمية التي تواصل تعاونها وتخدم مصالح المشاركين فيها.

وفي تلك المجتمعات غالباً ما يكون النشاط الاقتصادي والصناعي، في إطار شركات تتراكم فيها الخبرات ورؤوس الأموال، وبعضها أصبح عابراً للقارات، ومتعدد الجنسيات.

وبين حين وآخر يحصل اندماج واتحاد بين شركات كبيرة عملاقة، في نفس البلد أو من بلدان مختلفة. كالاندماج الذي حصل بين شركتي (شيفرون) و (تكساسكو) النفطيتين الأمريكيتين. واندماج ثلاث شركات كبرى للفولاذ، من ألمانيا وفرنسا وأسبانيا لتصبح شركة واحدة عملاقة هي الأكبر في العالم، تنتج سنوياً مليون طن من الفولاذ. ووصفت هذه الصفقة بأنها مذهلة لأن الشركات الثلاث هي في الأصل غريمة لبعضها.

كما أعلن أخيراً عن اندماج شركتين أمريكيتين ضخمتين في عالم الإنتاج الموسيقي هي شركة (إي. أم. آي) وشركة (تايم وورنر) وتقدر قيمة الشراكة الجديدة بعشرين مليار دولار، وحجم مبيعاتها ثمانية مليارات دولار سنوياً.

أما على الصعيد العلمي والاجتماعي في الغرب، فإن المؤسسات هي إطار

الفاعلية والعمل، وقد انقرضت لغة العمل الفردي، ولم تعد مقبولة في تلك المجتمعات. وأصبح أفق التعاون عندهم عالمياً يتجاوز الدول والقارات، فقبل شهرين أعلن عن اتحاد الأحزاب الخضر في أوروبا، التي تهتم بحماية البيئة وتعارض الحروب وإنتاج الأسلحة الفتاكة فأتحد ٣٢ حزباً من ٢٩ دولة لتدخل البرلمان الأوربي كقوة موحدة.

بالتأكيد فإن هذه المنهجية السائدة هناك، واعتماد لغة العمل الجمعي والتعاون المشترك، هي من أبرز أسباب تقدم تلك المجتمعات واستقرار أوضاعها السياسية وعلاقاتها الاجتماعية.

العالم العربي وحال التعاون

بينما نرى على الضفة الأخرى، في مجتمعات العالم الثالث التي ننتمي إليها، أن هذه المنهجية لا تزال محدودة التداول والاستخدام، فالفردية هي اللغة الشائعة في مختلف الميادين، ومشاريع التعاون والشراكة غالباً ما تتعثر وينفرط عقدها.

لقد مضى على تأسيس جامعة الدول العربية حوالي ستين عاماً، ومع ضخامة التحديات التي يواجهها العالم العربي، وخاصة في هذه الأعوام الأخيرة، مما يجعل التعاون بين الدول العربية أشد إلحاحاً وأكثر ضرورة، إلا أن ما يحصل في إطار الجامعة العربية، يدل بوضوح على ضعف إرادة التعاون، وغياب روح العمل الجمعي، حيث لا تزال العلاقات مضطربة بين أكثر من دولة عربية، ولم تنجز الجامعة مشاريع مشتركة هامة، تلامس مصلحة المواطن العربي، وجاء انفراط عقد الاجتماع الأخير للقمة العربية في تونس، وقرار تأجيله ليكشف بجلاء تعثر منهجية التعاون والعمل الجمعي على مستوى الدول العربية.

وفي مظهر آخر لعمق الخلل في العلاقات العربية، وعجزها عن تحقيق أدنى مستويات التعاون، جاء تعثر الإعداد للمشاركة في معرض الكتاب الدولي في فرانكفورت، في دورته السادسة والخمسين بتاريخ ٦ ـ ١٠ أكتوبر من هذا العام ٢٠٠٤م، هذا المعرض الذي يعتبر أضخم مهرجان ثقافي عالمي، وتقرر من قبل ثلاث سنوات أن يكون العالم العربي هو ضيف الشرف فيه هذا العام، حيث يتمتع ضيف

الشرف بجناح يخصص له، وتغطى معارضه وأنشطته بإعلام دولي مكثف، كما تتاح له فرصة إقامة مختلف الأنشطة الثقافية لمدة عام كامل على مستوى ألمانيا.

ومع ما يتعرض له العالم العربي من حملات إعلامية ضارية، لتشويه سمعته، والتقليل من شأن حضارته وتاريخه، واتهام ثقافته، في أعقاب ١١ سبتمبر وما تلاها من أحداث إرهابية منسوبة لجهات إسلامية، كل ذلك يفترض أن يوجب أشد الحرص لاستثمار هذه الفرصة العظيمة في عرض منجزات الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، والدفاع عن دورها التاريخي، لكن واقع العلاقات العربية قد يضيع مثل هذه الفرصة، أو يضعف إمكانية الاستفادة منها بالمستوى المطلوب، وقد طالب أمين عام جامعة الدول العربية بإدراج المشاركة في معرض فرانكفورت على جدول القمة العربية التي تأجلت في تونس.

إن المساحة المخصصة في المعرض للعالم العربي تسعة آلاف متر، ولم تسدد إلا بعض الدول العربية مبلغ سبعمائة ألف دولار من الرسوم التي تبلغ ثلاثة ملايين دولار!! تتحملها اثنتان وعشرون دولة عربية.

وكان من المقرر ترجمة ١٠٠ كتاب عربي إلى اللغة الألمانية، لم ينجز منها إلا عشرون كتاباً!!

ومن قائمة ٣٥٠ ناشر عربي يفترض مشاركتهم في المعرض، لم يتقدم إلا ١٥٠ ناشراً فقط!!

وحسب البرنامج المقترح سيشارك حوالي ٧٥٠ من المؤلفين والمفكرين والأدباء والفنانين والإعلاميين العرب، ليتعرف عليهم جمهور المعرض، وليشاركوا في فعالياته الثقافية، لكن الأموال اللازمة لنفقات سفرهم لم تؤمن بعد!!

لقد كتب الروائي السوري خليل صويلح مقالة حذر فيها من تحول مناسبة معرض فرانكفورت إلى إدانة للثقافة العربية بدل أن تكون للاحتفال بها!!

بالتأكيد لو كان ضيف الشرف دولة عربية واحدة، لقامت بما يلزم لذلك بمفردها، لكن شمول المشاركة لكل الدول العربية، أوجب هذا التعثر، وكما جاء في

مقالة الكاتب اللبناني حسن داوود في صحيفة المستقبل:«ما يمكن ملاحظته في أصل العزوف العربي هو انعدام الحماسة لذوبان أي من هذه الدول في ظهور عربي عام، يبدو ذلك النوع من الاشتراك، من وجهة نظر هذه الدول، لا يأتي بعائد معنوي يمكن استثماره أو الاعتزاز به».

ولا تقف المشكلة عند حدود ضعف التعاون بين الدول العربية، بل إن هناك صراعاً حول المشاركة في المعرض بين اتحاد الناشرين العرب والمراجع الرسمية العربية، ثم بين اتحاد الناشرين العرب والجامعة العربية، وبين الناشرين من بعض الدول العربية واتحاد الناشرين المصريين.

التعاون على الصعيد الأهلي

إن واقع التعاون داخل الشعوب والمجتمعات الإسلامية ليس أحسن حالاً منه بين الحكومات، فحالة التنافر والتباعد هي السائدة بين مختلف القوى والجهات، من مذاهب وطوائف وأحزاب ومؤسسات، وحتى ضمن المذهب الواحد والمدرسة الواحدة، هناك عجز عن التعاون وتنسيق المواقف والجهود.

في هذا السياق نشرت الصحف هذه الأيام خبراً من العراق يحمل الكثير من الدلالات، حيث دشن ممثل (الكنيسة الانغليكانية) البريطاني (اندو وايت) المركز العراقي للحوار والمصالحة والإسلام، وباشر دوره للقيام بالمصالحة بين القيادات الدينية العراقية السنية والشيعية، ونجح في عقد أول لقاء من نوعه بين السيد حسين الصدر كبير علماء الشيعة في بغداد وبين الشيخ عبد القادر العاني من كبار علماء السنة هناك.

هكذا يحتاج عقد لقاء بين عالمين مسلمين عربيين عراقيين في مدينة واحدة يعيش بلدهما أصعب الظروف حيث الاحتلال الأجنبي، وخطر التمزق الطائفي، يحتاج ذلك إلى وساطة من قبل ممثل الكنيسة البريطانية!!

إن هذه المفارقة المذهلة بين عجزنا عن التعاون فيما بيننا على مختلف

المستويات، ونجاح الآخرين في اعتماد التعاون والمشاركة منهجية عامة لحياتهم وعلاقاتهم، تجعلنا أمام تحد كبير وسؤال خطير عن الأسباب الكامنة وراء هذه المفارقة؟

إننا ننتمي إلى دين يقرر الوحدة بين أتباعه كأصل لازم إلى جانب أصل عبادة الله تعالى وتقواه، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾(٢).

ويوجه القرآن الكريم أمراً صريحاً بوجوب التعاون والمشاركة في أعمال الخير، يقول تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾(٣).

ونصوصاً دينية أخرى تأمر الإنسان بالقيام بأعمال البر والتقوى، لكن هذه الآية تأمر بالمشاركة واعتماد منهجية العمل الجمعي لإنجاز أعمال البر والتقوى.

ومع أن الصلاة فرض عين على كل مكلف مسلم، وتصح منه لو صلاها منفرداً، إلا أن الإسلام حث على أدائها جماعة، بل ذهب الحنابلة إلى وجوب الجماعة عيناً على كل مكلف للصلوات الخمس، وإن لم تكن شرطاً لصحة الصلاة، وقال الشافعية في الأصح المنصوص: الجماعة فرض كفاية، بأن تقام جماعة من قبل البعض، تأكيداً لهذه الشعيرة. أما بقية المذاهب (المالكي، الحنفي، الجعفري) فترى أن الجماعة سنة مؤكدة.

وفريضة الحج أوجب الله تعالى أداءها بشكل جمعي بتحديد زمان ومكان نسك واحد لجميع الحجيج.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يد الله مع الجماعة**».(٤)

هذه التعاليم الدينية تهدف بعث روح العمل الجمعي، وتربية الأمة على منهجية

---

(١) الأنبياء: ٩٢.

(٢) المؤمنون: ٥٢

(٣) المائدة: ٢

(٤) المتقي الهندي: كنز العمال، حديث رقم ٢٠٢٤١.

التعاون والمشاركة. فلماذا لا تترك أثرها المطلوب في واقع حياة المسلمين؟

إن الوحدة والتعاون بين قوى الأمة شعار يرفعه الجميع، وقضية لا يعلن أحد معارضتها، ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك وتجسيده على أرض الواقع؟■

إشكاليات وعوائق التعاون

كلمة الجمعة بتاريخ ١٩ صفر ١٤٢٥هـ

عدم الشفافية والمكاشفة عند بحث العلاقات، ومشاريع التعاون، ففي المجتمعات الأخرى يتكلم كل طرف أمام الآخر عن مصالحه بجرأة ووضوح، ويحدد ما يريد وما يرفض، ويعرب عن هواجسه ومخاوفه بدون مواربة، أما في مجتمعاتنا فإن أسلوب المجاملة والمداراة هو المتداول، حيث تتكلم الأطراف حينما تلتقي بلغة المبادئ، وتزايد على بعضها في إظهار التسامي على المصالح، وإبراز الثقة المتبادلة، وإعلان الموافقة على ما يطرح، مع إضمار ما يخالف كل ذلك!!

وقد شاع التعبير عن مثل هذه الحالة بأنها معالجة المشاكل على طريقة (تبويس اللحى).

وأذكر مرة أني شاركت في لقاء جمع بين جهتين دينيتين متنازعتين لإصلاح ذات بينهما، وفوجئت بما ساد اللقاء من أجواء إيجابية، حيث أكد كلا الطرفين بأن ليس هناك ما يستحق النزاع، وأن رضا الله تعالى هو الهدف، وبعد اللقاء أبدى كل منهما شكوكه في كلام الآخر، وإصراره على التمسك بمواقفه؟!

إننا بحاجة إلى تجاوز هذه الازدواجية، واستخدام لغة المكاشفة والمصارحة، فالاهتمام بالمصالح والدفاع عنها ليس عيباً، وعرض المطالب والرغبات أمر مشروع، والإعراب عن الهواجس والمخاوف ليس إساءة، إن الوضوح والشفافية بين الأطراف هو الخطوة الأولى في طريق التفاهم والتعاون.

العلاقات والتأثير العاطفي

ومن عوائق التقارب والتعاون محورية العواطف والأحاسيس في نظرة الأطراف إلى بعضها، لقد تجاوز الأوربيون آثار حربين عالميتين حصلت فيما بينهم خلال نصف قرن من الزمن، الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م)، والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م)، وقد سببت الحرب العالمية الأولى دماراً كبيراً، إذ مات نحو ١٠ ملايين جندي نتيجة للحرب، وجرح نحو ٢١ مليون رجل، ولا أحد يعرف كم عدد المدنيين الذين ماتوا من المرض والجوع والأسباب الأخرى المتعلقة بالحرب، ويعتقد بعض المؤرخين أن عدد المدنيين الذين ماتوا كان يساوي عدد الموتى من الجنود ١٠ ملايين. أما الخسائر الاقتصادية فتقدر بنحو ٣٣٧ بليون دولار أمريكي، عدا عن الآثار السياسية والاجتماعية.

أما الحرب العالمية الثانية فيزيد عدد ضحاياها من الجنود على ٣٠ مليوناً وقد يصل العدد من الضحايا المدنيين إلى ضعف ذلك..[١]

لكنهم تجاوزوا كل تلك الآثار، وصاروا يتعاونون كحكومات وشعوب وجماعات ومؤسسات، يتحدثون عن تلك الحروب كتاريخ مضى، ويخلدون أحداثها ضمن المتاحف والمعارض، دون أن يوظفوها في تعبئة الانفعالات، وإثارة الكراهية والبغضاء.

لكننا لا زلنا نعيش آثار معارك التاريخ الغابر لأمتنا، ونحمّل بعضنا بعضاً نتائج ما حصل بين الأسلاف، وبدل أن نأخذ من التاريخ دروسه، ونستفيد من عبره، أصبحنا أسارى لانفعالات وقائعه وأحداثه، لتذكي بيننا مختلف ألوان الصراعات المذهبية والقومية والسياسية والإقليمية والقبلية.

وحتى على المستوى العائلي يتوارث الأبناء صراعات آبائهم وأجدادهم لتبقى الأرحام مقطوعة، والعلاقات متشنجة.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج٩ ص ٢٠٩،٢٤٢،الطبعة الثانية ١٩٩٩م، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض.

إننا بحاجة إلى إثارة عقولنا وترويض عواطفنا وانفعالاتنا، لندرك أن مصلحتنا في التعاون والتقارب.

ولعل من أسوأ عوائق الوحدة والتعاون في ساحة الأمة، ما يسميه البعض التزاماً شرعياً مبدئياً يمنعه من الاقتراب من الآخر المخالف له في الرأي، والمشاركة معه في أي مشروع، لأنه يعتبر الآخر مبتدعاً ضالاً، يأمر الشرع بهجره ومقاطعته، بل ومحاربته، وبغض النظر عن خطأ مثل هذه الأحكام غالباً، فإن الشرع يفسح المجال للتحالف حتى مع غير المسلمين حينما تكون هناك مصلحة مشتركة، كما نصت صحيفة المدينة التي وضعها رسول الله ﷺ بداية الهجرة على التحالف مع قبائل يهود المدينة، وكان هناك عقد معاهدة بينه ﷺ وبين قبيلة خزاعة من المشركين، إضافة إلى عدد من المعاهدات والأحلاف الأخرى المذكورة في السيرة النبوية.

إن التحديات الخطيرة التي تواجه الأمة تفرض نوعاً من الاستقرار في علاقاتها الداخلية، وتوجب مستوى من التعاون بين أطرافها وقواها المتنوعة فكرياً وسياسياً، وتجاهل ذلك نوع من الجهل والغباء، والتبريرات الشرعية المدعاة هي خطأ في فهم مراد الشرع، أو التباس في موارد التشخيص والانطباق.

مواقع الاتفاق ونقاط الاختلاف

وهناك عائق آخر يتمثل في التسمّر أمام نقاط الخلاف، وسيطرتها على الأذهان والنفوس، مما يمنع الاتجاه إلى مواقع الاتفاق، وموارد الاشتراك، فليس شرطاً أن تتفق الأطراف المختلفة على كل شيء لتبدأ التعاون، بل يمكن الانطلاق من نقطة اتفاق واحدة لخدمة مصلحة مشتركة.

وهذا ما عرضه القرآن على اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً**﴾[1].

(١) آل عمران: ٦٤.

ومن هذا المنطلق كانت معاهدات رسول الله ﷺ مع غير المسلمين من يهود ونصارى ومشركين.

إن وجود مشروع مشترك ومصلحة متبادلة في جانب ما بين الأطراف المختلفة، يجعلها أقدر على معالجة سائر الجوانب، أو تجميد الآثار السلبية للاختلاف فيها.

ومن المتعارف الآن في العلاقات السياسية أن تذكر البيانات المشتركة مواقع الاتفاق إلى جنب نقاط الاختلاف، كما أن أنظمة المؤسسات الجمعية الدولية والإقليمية، تفسح المجال لفرز الأصوات، الموافق منها والمخالف والممتنع عن التصويت، حول أي مشروع يطرح. فإذا ما اختلفنا حول مسألة أو قضية لا يعني ذلك إنهاء العلاقة، وإلغاء التعاون والانسحاب من الشراكة.

الخوف من التعاون

يخاف البعض من التعاون مع الآخرين لضعف ثقته بذاته، وأنه حينما يتعاون معهم قد يقع تحت تأثيرهم، أو يُحتوى وضعه لصالح نفوذهم، وقد تخشى بعض الزعامات وخاصة الدينية والفكرية من أن التعاون يجعل ساحة تيارها مفتوحة أمام تأثير الآخرين، لكن هذه المخاوف وأمثالها تشكل تكريساً لحالة الضعف وتستراً عليها، والجهة الواعية هي التي تقبل التحدي وتستجيب له، لترتفع إلى مستواه، فتتعاطى مع الآخرين بثقة، وتدخل حلبة التنافس الإيجابي باطمئنان، وبذلك تكتشف نقاط ضعفها فتعالجها، وتدرك مواقع قوتها فتنميها، فالتعاون بثقة سبيل لاكتساب القوة.

وفي بعض الأحيان تتضخم الأنا والذاتية عند البعض، فلا يرون الآخرين أنداداً لهم يستحقون التعاون، فهم الحق وغيرهم باطل، وهم الشرعية وسواهم أدعياء، وهم الكبار ومن عداهم أقزام، وقد يحيط البعض نفسه بهالة من العظمة والقداسة أمام الأتباع، فيخاف من التعاون أن يظهره على واقعه.. وهذه الأوهام تمثل حالة مرضية، لأن التفكير السليم يدفع القوي إلى تفعيل وجوده بالانفتاح على الآخرين وليس بالانكفاء دونهم.

إن الدول الكبرى في العالم تشارك في عضوية المؤسسات الدولية إلى جانب أصغر الدول، وتدخل معها في اتفاقات وتحالفات.

تنمية روح التعاون

كيف ننمي روح التعاون في مجتمعاتنا؟ وكيف نتجاوز هذه الحال السلبية المتخلفة؟

إننا بحاجة إلى ثقافة تدعو إلى التعاون، وتبشّر به في جميع الأوساط والميادين، ويجب أن نفضح العوائق الفكرية والنفسية التي تعرقل مسيرة التعاون، وتوقف حركتها، وخاصة ما ينسب منها إلى الدين، لأنها تعني تحميل الدين مسؤولية التخلف، وأنه العائق أمام إرادة التعاون.

وأعتقد أنه يوجد في جميع الأطراف والاتجاهات الدينية والفكرية والسياسية عقلاء يدركون سوء واقع العلاقات الداخلية في الأمة، لكن أصواتهم تبدو خافتة أمام أصوات المتطرفين في جماعاتهم، أولئك الذين يجدون دورهم ومصلحتهم في الحفاظ على هذا الواقع السيئ، ويستخدمون سلاح إثارة العواطف، وإلهاب المشاعر الدينية أو السياسية في أوساط جماهيرهم، لوصف أي مشروع تعاون وتقارب مع الآخرين بأنه تضييع للقضية، أو تمييع للعقيدة، أو تنازل عن الثوابت والمبادئ!!

على العقلاء من كل طرف أن يصمدوا أمام هؤلاء المرجفين المتشددين، وأن يراهنوا على إثارة العقول، وبث الوعي السليم، وتطوّر الجيل المعاصر، وانفتاحه على العالم الحديث.

كفى مراعاة لهؤلاء المتشددين على حساب مصلحة الأمة، وكفى مجاملة للشارع على حساب الشرع والعقل.

إنني أعرف عن عدد من القيادات السياسية والدينية والاجتماعية عدم رضاها عن كثير من الأوضاع السائدة، لكنها تخشى صولة المتطرفين، وهيجان العامة، وقد

قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً**﴾[1].

نماذج ومبادرات

لكي تسود منهجية التعاون في مجتمعاتنا ينبغي أن تنطلق المبادرات التعاونية على مختلف الأصعدة، لتتراكم التجارب، وتتوفر النماذج المشجعة، إن على كل من يؤلمه واقع العلاقات المتردية داخل الأمة، ويتطلع إلى سيادة روح التعاون والعمل الجمعي، أن يبادر بشخصه ومن موقعه، وبما يمثل من دور، لمدِّ يد التعاون والانفتاح على الآخرين، لتحويل التطلع إلى واقع، والفكرة إلى عمل.

إن على المرجع الديني الذي يدعو إلى التعاون أن يخطو باتجاه التعاون مع سائر المرجعيات الدينية.

والمفكر الذي ينظّر للوحدة عليه أن يطرح مشروع عمل يشترك فيه مع المفكرين الآخرين.

والسياسي الذي يندد بحالة التشرذم والخلافات، عليه أن يقدم نفسه نموذجاً للتعاون مع الآخرين.

ورجل الأعمال الذي تبهره ضخامة الشركات الأجنبية عليه أن يسعى لإقناع أمثاله باندماج مؤسساتهم الاقتصادية.

وهكذا العاملون في المجال الاجتماعي والعلمي وسائر المجالات.■

---

(١) الأحزاب: ٣٩.

بناء الوحدة والشراكة الاجتماعية في العهد النبوي

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٦ صفر ١٤٢٥هـ

هل يكون ذلك بالمراهنة على تذويب الهوّيات وإلغاء مشاعر الانتماء الخاص؟ أو بغلبة طرف وإخضاعه لسائر الأطراف؟

أم أن هناك أساليب وخيارات أصوب؟

بإمكاننا أن نقرأ في الإنجاز التاريخي الذي تحقق على يد رسول الله ﷺ، بقيام الدولة والمجتمع الإسلامي الأول، تجربة ناجحة رائدة على هذا الصعيد.

حيث يجمع المؤرخون أن مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام كان ممزقاً لا يجمعه كيان، ولا يلم شمله نظام، كانوا قبائل متناثرة، في أجواء علاقات مضطربة، غالباً ما تفضي إلى العداء والاحتراب، ومن يقرأ أيام العرب، وهو ما يطلق على معاركها وحروبها، تدهشه تلك المعارك الضارية، التي تنشب لأتفه الأسباب، ففي كتاب (أيام العرب في الجاهلية) الذي اشترك في إعداده ثلاثة من الباحثين، عرض لعشرات الحروب الداخلية بين القبائل العربية، فمعارك القبائل القحطانية فيما بينهم بلغت عشر معارك، وبين القحطانيين والعدنانيين عشر معارك، وفيما بين قبائل ربيعة ست معارك، وما بين ربيعة وتميم خمسة عشر معركة، وبين قبائل قيس إحدى عشرة معركة، وبين قيس وكنانة عشر معارك، وبين قيس وتميم سبع معارك، وبين قبائل ضبّةوغيرهم خمس معارك، وهناك معارك أخرى متفرقة.[1]

(١) جاد المولى: محمد أحمد وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م.

ويبدو أن هذه الحروب التي عرضها المؤلفون، هي ما تناقلت كتب التاريخ والأدب أخبارها، أما سائر المعارك وهي كثيرة فقد تجاوزوا ذكرها، جاء في مقدمة الكتاب:«وقد اقتصرنا على الأيام المشهورة التي وصل إلينا تفصيل حوادثها، وذكر أسبابها، ورواية أشعارها وقصائدها، أما الأيام التي لم يقع في الكتب إلا ذكر عنواناتها مجردة من الحوادث وذكر الأسباب، فقد جاوزها اختيارنا... روى صاحب كشف الظنون وغيره: أن أبا عبيدة قد ألف كتاباً صغيراً حوى خمسة وسبعين يوماً (معركة)، وآخر كبيراً جمع فيه ألفاً ومائتي يوم، وأن أبا الفرج الأصفهاني ألف كتاباً جمع فيه ألفاً وسبعمائة يوم...».(١)

كان ولاء العربي أولاً وأخيراً لقبيلته، مما يعني انصهاره فيها، وتغنيه بقوتها وأمجادها، وشدته تجاه ما يخالفها. وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين أنه «حين تقرأ الشعر الجاهلي تشعر ـ غالباً ـ أن شخصية الشاعر اندمجت في قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص، وأنك لتتبين هذا بجلاء في معلقة عمرو بن كلثوم، وقل أن تعثر على شعر ظهرت فيه شخصية الشاعر، ووصف ما يشعر به وجدانه، وأظهر فيه أنه يحسّ لنفسه بوجود مستقل عن قبيلته».(٢)

في هذا المجتمع المتنوع قبلياً، والذي تسوده نزعة التطرف في الولاء للقبيلة، ويعيش حالة الصراع والاحتراب بين قبائله، بعث الله تعالى نبيه محمد ﷺ، فاستطاع خلال أقل من ربع قرن من الزمن، أن يبني من تلك القبائل مجتمعاً متماسكاً، وكياناً موحداً، يحمل للعالم مشروعاً حضارياً متقدماً.

حقاً إنه إنجاز عظيم لا نظير له في تاريخ البشرية.

وهو ما لفت نظر الدكتور (مايكل هارت) من أمريكا، عند تأليفه لكتاب عن المئة الأوائل في تاريخ البشرية، فوضع شخصية النبي محمد على رأس القائمة كأهم شخصية في تاريخ البشر، وكتب عن هذا الاختيار قائلاً:«إن اختيار المؤلف لمحمد ليكون على رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في

(١) المصدر السابق ص ك،ل.

(٢) أمين: أحمد، فجر الإسلام ص٥٩، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٩م، دار الكتاب العربي، بيروت.

مختلف المجالات، إن هذا الاختيار ربما أدهش كثيراً من القراء، إلى حد أنه قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقاد المؤلف: أن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي».[١]

فكيف استطاع رسول الله ﷺ تحقيق هذا الإنجاز العظيم؟

وما هي الخطة التي اعتمدها لتوحيد ذلك المجتمع المتناثر الأشلاء؟

الهويّة المشتركة

في حالة الانقسام الاجتماعي تتضخم الهويّة الخاصة عند كل طرف من الأطراف، فهي حدود الدفاع عن ذاته، وخندق مقاومته، وعنوان وجوده، ومن أجل أن يتوحد المجتمع، لابد أن تنخفض درجة الغليان في الهويّات الخاصة، لصالح هويّة مشتركة يتمثل فيها وجود كل الأطراف، وترى من خلالها ذاتها بدرجة متماثلة.

وهنا لا يمكن أن تقوم هويّة أحد الأطراف بهذا الدور، لأن بروزها يستثير تحدي بقية الهويّات، وإعلانها يعني غلبتها واعتراف الآخرين بالهزيمة أمامها.

فإذا كان المجتمع منقسماً على أساس قومي، فلا يمكن أن تشكل إحدى قومياته إطاراً لوحدته، وتصبح هوية جامعة له، وكذا الحال لو كان متعدد الأديان أو المذاهب، فإن أحدها لن يقوم بدور الجامع المشترك.

فلا بد من عنصر مشترك بين أجزاء المجتمع، يتم إبرازه والتركيز عليه كهويّة جامعة، أو تنمو حالة فكرية سياسية جديدة تتمحور حولها فئات المجتمع، وتصبح هدفاً مشتركاً وإطاراً جامعاً.

وهذا ما تحقق على يد رسول الله ﷺ، ومن خلال دعوته الإسلامية المباركة، والتي أصبحت حالة سريعة النمو تخترق أوساط مختلف القبائل، وتبشر بتوجه جديد يحفّز نحو أهداف سامية، ويتبنى قيماً إنسانية حضارية، تتجاوز أنانية الأفراد، وعصبية

(١) هارت: مايكل، دراسة في المائة الأوائل، ترجمة أسعد عيسى ـ أحمد غسان سبانو، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م، دار قتيبة، دمشق.

القبائل، وعبثية الحياة.

لقد أخذ الإيمان موقعه في نفوس أبناء تلك القبائل المتصارعة، وتمحور حوله ولاؤهم، وتوثق له انتماؤهم، على حساب الولاء القبلي، والانتماء العشائري، فأصبح إطاراً جامعاً وهويّة مشتركة، يفخر به الجميع بدرجة متساوية على اختلاف قبائلهم وتفاوت مكانتها وقوتها.

ثقافة الوحدة

حالة الانقسام والفرز الاجتماعي، تحفر آثارها في النفوس والمشاعر، بتضخيم الذات الفئوية، والحط من شأن المنافسين، والتعبئة تجاههم، كما تنتج ثقافة تبرر التمايز، وتكرّس المفاصلة، وقد تدفع إلى سلوكيات عدائية، وممارسات استفزازية.

وحين يحصل تطلع للوحدة في المجتمع، لا بد من ثقافة جديدة تعالج آثار ثقافة الانقسام، وتواجه مفاعيلها النفسية والسلوكية.

لقد كان الصراع والتنافس القبلي في الجزيرة العربية، دافعاً لتربية الأبناء على الفخر والاعتزاز بانتمائهم للقبيلة، وتنمية مشاعر التميّز وأحاسيس الأفضلية على الآخرين، وهذا ما تنضح به قصائد شعرائهم، وخطب زعمائهم.

إن الحماسة والفخر هو من الأغراض الأساسية في الشعر العربي الجاهلي، حيث يتفنن الشعراء في تمجيد قبائلهم وإظهار مكانتها، وفي شعر عمرو بن كلثوم نموذج صارخ لمثل هذا التوجه، حيث يقول في إحدى قصائده:

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملاؤه سفينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا
إذا بلغ الفطام لنا وليد تخر له الجبابرة ساجدينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

والوجه الآخر لهذا اللون من الأدب الجاهلي هو أدب الهجاء، حيث يبالغ

الشعراء في الحط من شأن القبائل المنافسة لقبيلتهم، ووصفها بأسوأ النعوت، وأقبح الصفات.

وجاء الإسلام ليوحد تلك القبائل، فاهتم بمواجهة تلك الثقافة التمييزية السائدة، باجتثاث جذورها النفسية والفكرية، ومقاومة آثارها السلوكية، حيث أكدت آيات القرآن الكريم، على الأصل الواحد لبني البشر: ﴿**الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾(١)، ونسفت كل مبررات التفاضل الزائفة بين الناس، إلا على أساس كسبهم الاختياري للصفات الفاضلة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(٢).

وشدد رسول ﷺ في خطاباته وأحاديثه على مبادئ الوحدة بين أبناء المجتمع الإسلامي، وشّن حرباً ضارية على الأفكار والتصورات الجاهلية، بالتفاخر بالأنساب والأحساب، أو التفاضل بالانتماء القبلي أو العرقي.

كقوله ﷺ: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**»(٣)

وروي عنه ﷺ: أنه خطب يوم فتح مكة فقال: «**أيها الناس ليبلغ الشاهد الغائب: إن الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية، والتفاخر بآبائها وعشائرها، أيها الناس إنكم من آدم وآدم من طين، ألا وإن خيركم عند الله وأكرمكم عليه اليوم أتقاكم وأطوعكم له**»(٤)

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: خطبنا رسول ﷺ في أوسط أيام التشريق

---

(١) النساء: ١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) السجستاني: الحافظ أبوداود، سنن أبي داود، حديث رقم ٥١٢١، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، دار الجنان ـ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

(٤) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٠ ص٢٩٣، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

خطبة الوداع فقال:«**يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**»(١)

وفي إحدى الغزوات حصل سوء تفاهم بين مهاجري وأنصاري فصاح أحدهما يا للمهاجرين ونادى الآخر: يا للأنصار، فلما سمع رسول ﷺ أدان هذا المنطق قائلاً:«ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة»(٢)

بالطبع فإن المرفوض هو تفعيل الانتماء القبلي سلبياً، وتضخيمه على حساب الولاء للمبدأ، دون أن يعني ذلك رفض الاعتراف بالانتماءات، والإقرار بالكيانات القبلية في مضمونها الإيجابي.

الشراكة الفعلية

لا شيء يحقق وحدة المجتمع كالشراكة الفعلية بين أطرافه في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور، فذلك هو ما يشعر الجميع بمصلحتهم المشتركة في الحفاظ على كيان الوحدة، ورفض ما يمسّ بها، كما يجسد واقع المساواة في الحقوق والواجبات، أما إذا استأثرت بعض الأطراف بذلك، فإن الآخرين سيتملكهم الإحساس بالغبن والظلامة، وسيدفعهم شعورهم بالإقصاء والتهميش إلى القيام بردود فعل ليست في صالح الوحدة واستقرار المجتمع.

إن إقصاء أي طرف يحرم المجتمع من فاعليته وعطائه، ويفتح ثغرة في جدار وحدة المجتمع وأمنه.

ومن مفاخر الإسلام العظيمة سبقه إلى إقرار مبدأ المشاركة الشعبية، والشراكة

---

(١) المتقي الهندي: علي، كنز العمال، حديث رقم ٨٥٠٢، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ﷺ ٥٨٤، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار المغني، الرياض.

الاجتماعية، وفي وقت كانت ترزح فيه المجتمعات البشرية في ظل أنظمة الاستبداد والعنصرية والطبقية البغيضة.

كان رسول ﷺ يمارس الشورى على الصعيد الاجتماعي العام، ليدلي كل مسلم برأيه، كبيراً كان أو صغيراً، من الأحرار أو الموالي، من المهاجرين أو الأنصار، ومن أي قبيلة كان، وحتى العناصر غير العربية أخذت موقعها دون أي تفاوت، بل احتل بعضها موقعاً متميزاً بجدارته كصهيب الرومي وسلمان الفارسي.

وفي مجال الوظائف والمهام القيادية، كان رسول ﷺ يسندها إلى الأكفاء المؤهلين من مختلف القبائل، ولو أُعطي هذا الجانب من السيرة النبوية حقه من الدراسة، لتجلت لنا وللبشرية روعة تعاليم الإسلام، وعظمة القيادة النبوية.

إن قائمة أمراء الجيوش والسرايا، وكذلك السفراء المبتعثين للملوك والزعماء، والشخصيات التي عينها الرسول ﷺ في مواقع القضاء والمسؤوليات الدينية، هذه القوائم حين نفحصها نرى التنوع في الانتماء القبلي والمناطقي لأشخاصها.

وبعض التعيينات كانت تشكل صدمة وإثارة للرأي العام الذي كان يعاني من رواسب الحقبة الجاهلية، لكن رسول ﷺ كان حازماً في تحقيق مبدأ الشراكة واحترام الكفاءة.

ففي يوم فتح مكة أمر رسول ﷺ بلالاً الحبشي الأسود، الذي كان عبداً يباع ويشترى في مكة، وأوقع به أسياده القرشيون صنوف الإهانة والتنكيل، حتى أغروا صبيانهم وسفهاءهم أن يقتادوه بحبل ليسخروا منه ويؤذوه، هذا الرجل اختاره رسول ﷺ ليكون أول مؤذن على ظهر الكعبة، مما أثار حفيظة الكثير من القرشيين، حتى قال أحدهم لصاحبه: لقد أكرم الله أبي أن مات وألا يكون سمع هذا!! وكان الحارث بن هشام وصفوان بن أمية قاعدين فقال أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الحبشي!! فقال الآخر: إن يكرهه الله يغيّره.[1]

وحينما عين رسول ﷺ زيد بن حارثة وهو عبد اشتراه حكيم بن حزام ثم وهبه

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣ ص٢٣٥، دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٩٥٧م..

لعمته خديجة بنت خويلد، فوهبته لرسول الله ﷺ، عينه رسول ﷺ على رأس جيش المسلمين إلى الروم في غزوة مؤته إلى جانب جعفر الطيار وعبد الله بن رواحة، اعترض البعض على هذا التعيين، فردّ عليهم رسول الله ﷺ، ثم عين ولده الشاب أسامة بن زيد على رأس آخر بعث عسكري له ﷺ، وجعل تحت إمرته كبار المهاجرين والأنصار.

قال ابن سعد في الطبقات: لما كان يوم الاثنين لأربع ليال من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة، أمر رسول ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش... فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصديق، وعمر ابن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص... فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين؟ فغضب رسول ﷺ غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله! وأيم الله إن كان للإمارة لخليقاً وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة...[1]

نهج الوحدة والحضارة

هذا النهج الوحدوي الذي اعتمده رسول الله في بناء الأمة، بتركيز الهويّة المشتركة، وهي الإسلام، لتكون فوق سائر الهويّات والانتماءات، والتي لم يتنكر الإسلام لوجودها، كالقبيلة والوطن والقوم، وإنما حارب التوجهات السلبية فيها، وضخّ في المجتمع الجديد ثقافة وحدوية، تعالج آثار المفاصلة القبلية السائدة، وكذلك الحرص على تحقيق الشراكة الاجتماعية بين مختلف الأطراف في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور.. هذا النهج هو ما يؤدي إلى الوحدة الحقيقية، وهو ما يؤهل المجتمع للرقي الحضاري.

(١) المصدر السابق، ج٢ ص١٩٠.

وما تنتهجه الآن المجتمعات الغربية المتقدمة، من اعتماد الوطن كهويّة مشتركة، ومن احترام التنوع في مجتمعاتها، وتجريم الطروحات العنصرية، والممارسات التمييزية بين المواطنين، وتحقيق الشراكة والمشاركة عبر النظام الديمقراطي، إنما يمثل إدراكاً لأفضل سبل التقدم والحضارة التي سبق إليها الإسلام بقرون، ومع تلافي الكثير من الثغرات والسلبيات التي تعاني منها الحضارة الغربية.

والمسلمون اليوم هم الأولى بمثل هذا النهج السليم، النابع من تعاليم دينهم، والمنسجم مع تاريخهم وثقافتهم الأصيلة.■

قدسية الحياة وثقافة الاستهتار

كلمة الجمعة بتاريخ ٣ ربيع الأول ١٤٢٥هـ

وأفتى فقهاء الإسلام بأنه لا يحق للطبيب سحب أجهزة طبية وضعت لمريضه، فبعثت الحركة في قلبه وإن مات المخ، فأصبحت حياة المريض كحياة النبات لا تدوم إلا بعمل تلك الأجهزة، وذلك لأهمية النفس المحترمة في الإسلام.

وعلى الطبيب أن لا يعتني بطلب المريض أو طلب أقاربه بسحب تلك الأجهزة، وإذا سحبها فمات المريض لذلك عُدَّ الطبيب قاتلاً[1]

كما أفتى الفقهاء بأنه يحرم على المكلف إيقاع الضرر بنفسه، ويجب عليه ترك ذلك، وحفظ نفسه من الأضرار.

فالنظرة إلى الحياة كحقيقة يجب الحفاظ عليها هي بداية السير في الاتجاه الصحيح، ومن هنا كانت الحياة أقدس شيء في الإسلام، فإذا تأملنا قوله تعالى:﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾[2]، نجد الآية الكريمة قدَ أصَلتً حقيقة مفادَها أن الحَياة البشرية حقيقة واحدة، والاعتداء على أي فرد اعتداء على كل المجموعة، وبالتالي يجب أن تتعبأ الأفكار والمشاعر ضد أي حادث قتل ولو كان المستهدف شخصاً بعيداً، إذ يجب أن يشعر كل إنسان أن الاعتداء وقع عليه، يقول ابن عاشور في تفسيره:«ومعنى التشبيه في قوله تعالى:﴿**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾ حث جميع الأمة على تعقّب قاتل النفس وأخذه أينما ثقف، والامتناع

(١) السيستاني: السيد علي الحسيني، الفقه للمغتربين، مسألة رقم ٣٥٢.
(٢) المائدة، ٣٢.

من إيوائه أو الستر عليه، كل مخاطب على حسب مقدرته، وبقدر بسطة يده في الأرض، من ولاة الأمور إلى عامة الناس، فالمقصود من ذلك التشبيه تهويل القتل»[١]، ولا يصح الاعتراض هنا على تشريع الإسلام جواز قتل القاتل مثلاً، لأن القتل أصلاً عقوبة قانونية ضمن ضوابط شرعية مشددة للحفاظ على حياة الآخرين يقول تعالى:﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[٢]، ففي حالة تعارض القيم يقدم الأهم فالحفاظ على حياة القاتل قد يكون مهماً ولكن الأهم منه الحفاظ على حياة الكل، ونشير هنا إلى أن الإسلام فسح المجال لإسقاط عقوبة القصاص على القاتل إذا تنازل أولياء دم المقتول بل وشجع على ذلك يقول تعالى:﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾[٣].

الدماء خط أحمر

وهكذا فإن من أبجديات الثقافة التي حاول الإسلام تكريسها في نفوس الناس، حتى تشكل قاعدة ومنطلقاً لسلوك حضاري رصين، هي قدسية الحياة وضرورة الحفاظ عليها، وقد ركزت مجموعة من النصوص الشرعية على هذه الثقافة، حيث شددت على خطورة العدوان على حياة الآخرين، ففي حديث مروي عن رسول ﷺ يعتبر أن أي خطأ يرتكبه العبد قابل للتدارك والاحتمال، أما إذا تجرأ على سفك دم محرم، فذلك ما لا مجال لتداركه، عن ابن عمر عنه ﷺ:«**لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**»[٤].

وفي حديث آخر عنه ﷺ يشير إلى أن قضية سفك الدماء هو أول القضايا المطروحة على ساحة المحشر يوم القيامة، عن ابن مسعود عنه ﷺ:«**أول ما يقضى بين**

(١) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج٥ ص٨٩، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ، بيروت.
(٢) البقرة، ١٧٩.
(٣) الشورى، ٤.
(٤) المتقي الهندي: علي، كنز العمال، حديث رقم ٣٩٩٠٧.

الناس يوم القيامة في الدماء»[١]، وورد مثله في وسائل الشيعة عن الإمام الباقر[٢] عليه السلام.

وعن ابن عمر عنه ﷺ:«**لا يحولنَّ بين أحدكم وبين الجنة كفٌّ من دم أصابه**»[٣].

كما تؤكد النصوص الدينية على أن من ينتج ثقافة تحرّض على القتل والعدوان فهو شريك في جريمته، عن ابن عباس عنه ﷺ:«**من شرك في دم حرام بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آئس من رحمة الله**»[٤].

وإبرازاً لخطورة سفك الدماء يروي البراء عن رسول الله ﷺ:«**لزوال الدنيا جميعاً أهون على الله من دم يسفك بغير حق**»[٥].

إن الدنيا خلقت من أجل الإنسان ولا قيمة لها إذا لم تحترم فيها حياة الإنسان ووجوده.

وهناك حادثة وقعت في عهد الرسول ﷺ تكشف عن مدى اهتمام الإسلام بالحياة فقد وجد رجل مقتول من قبيلة جهينة ولا يعلم قاتله، فغضب رسول ﷺ لذلك فأمر باجتماع المسلمين في المسجد وصعد فيهم خطيباً قائلاً «**أيها الناس أيقتل إنسان ولا يعلم قاتله، والله لو أن أهل السماوات والأرض اشتركوا في دم مسلم واحد بريء أو رضوا به لكان حقاً على الله أن يكبهم كلهم على مناخيرهم في نار جهنم**»[٦] وورد في الحديث أن رسول ﷺ بعد ما انتهى من أعمال منى وقف في الناس خطيباً وقال:«**أيها الناس أي يوم أعظم حرمة ؟ قال المسلمون : هذا اليوم، قال : فأي شهر أعظم حرمة ؟ قالوا: هذا الشهر، قال: فأي بلد أعظم حرمة ؟ قالوا هذا البلد، قال: فإن**

---

(١) القشيري النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم حديث رقم ١٦٧٨.
(٢) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ٣٥٠٢٦.
(٣) المتقي الهندي: علي، كنز العمال، حديث رقم ٣٩٩٢٢.
(٤) المصدر السابق، حديث رقم ٣٩٩٣٥.
(٥) المصدر السابق، حديث رقم ٣٩٩٤٧.
(٦) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٢ ص١٥٠، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[١] وغيرها من النصوص التي أصلت لثقافة احترام أرواح الآخرين.

وإذا نظر المتتبع لسيرة الرسول ﷺ يجد أن هناك تحفظاً وحذراً كبيراً من إراقة الدماء، فقد أحصى المؤرخون ثلاثة وثمانين غزوة وسرية في عهد رسول الله ﷺ، وبرغم ذلك لم يتجاوز عدد القتلى ١٤٠٠ شخصاً، على أكثر التقادير من المسلمين واليهود والمشركين، في حين أن الحروب آنذاك كانت تحصد أعداداً كبيرة، كما أن حروب اليوم تحصد أرواح الملايين من البشر مما يكشف عن الحالة الهستيرية التي تسيطر على العقلية المعاصرة، فمن هنا كانت سيرة الرسول تطبيقاً عملياً وتجسيداً فعلياً لقيمة الحياة، فقد كان بإمكانه القضاء على أهل مكة عندما وقعوا تحت رحمة سيفه، ولكن قدسية الحياة وفتح باب الفرص للعيش الكريم، جعلت الرسول يقول لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وهكذا كانت سيرة أمير المؤمنين علي ﷺ الذي كان يلتمس الأعذار ويحتاط عند الشبهات للحفاظ على حياة الآخرين.

ثقافة غائبة

لكن قدسية الحياة ثقافة غابت مفرداتها عن عقلية الكثير من المسلمين المعاصرين، في حين أننا نرى الدول المتقدمة استثمرت الثقافة الحية التي هي الموروث الحضاري لتعاليم الأنبياء، وانطلقت بها تؤسس نظماً وقوانين تحترم حياة الإنسان، حتى أصبحت جزءاً من الخلفية الثقافية للمجتمع الغربي، وبرغم الوحشية التي تمارسها تجاه الآخر إلا أنها تحترم شعوبها وأفراد مجتمعاتها، فعندما يصاب مواطن أمريكي مثلاً تهتز له كل المؤسسات الحكومية، وتكرس له كل وسائلها الإعلامية، وكذا الحال بالنسبة للصهاينة مما جعل شعوب العالم تحترمهم بسبب احترامهم لأنفسهم، واتفاقية تبادل الأسرى بين حزب الله في لبنان وإسرائيل خير دليل على ذلك، فقد استمرت المفاوضات لسنوات طويلة، وشاركت فيها أطراف دولية كثيرة، وقدمت إسرائيل تنازلات مختلفة، من أجل إطلاق أسير واحد واستعادة ثلاثة

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٦٧.

جثث من الإسرائيليين، مما جعل الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله يصرح في خطابه قائلاً: رغم العداء الذي نعيشه مع إسرائيل وعلمنا بجرائمهم إلا أننا يجب أن نعترف لهم بمدى احترامهم لأبنائهم.

وبينما يعيش الآخر ثقافة احترام الحياة، نعيش نحن المسلمون في كثير من ساحاتنا ثقافة الاستهتار بالحياة، التي تسربت إلى وعينا وصبغت سلوكنا بمجموعة من التصرفات اللامسؤولة، وأقرب مثال لذلك حركة السيارات في الطرقات العامة وعدم الاكتراث بالقوانين المرورية، فقد أفادت إحصائية عام ١٤٢٤ هـ أن عدد الحوادث المرورية في المملكة بلغت (٣٠٠٠٠٠) ثلاثمائة ألف حادث، مات بسببها (٤٠٠٠) أربعة آلاف شخص، وأصيب (٣٠٠٠٠) ثلاثون ألف بين جريح ومعوق.

العمليات الإرهابية

إذا لم يكن بإمكاننا إيجاد تبرير لضخامة الحوادث المرورية سوى الاستهتار بالحياة ففي أي خانة نضع تلك العمليات الإرهابية التي تستهدف الأبرياء في حالة جنونية من القتل الجماعي، مما يدلل على انتكاسة خطيرة في وعي الأمة يجب الإسراع في معالجتها، بتكريس رؤى ثقافية جديدة، تؤكد على قدسية الحياة التي لا يمكن تجاوزها تحت أي مسمى، فلم تكن توصيات الرسول ﷺ للمقاتلين بعدم التعرض للشيخ الكبير والمرأة والطفل والزرع في الحروب ضرباً من النظرية المثالية، وإنما تأسيس قواعد للتعايش البشري كما يقول الإمام علي عليه السلام «**الناس صنفان إما أخٌ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**»[1] فما شهدته الرياض يوم الأربعاء الثاني من ربيع الأول ١٤٢٥هـ من انفجار استهدف مبنىً حكومياً يضم الإدارة العامة للمرور وقوات الطوارئ الخاصة وإدارة الأدلة الجنائية يكشف عن مدى تحجر عقول الواقفين خلفه، وبعدهم عن الثقافة الإسلامية، ومن هنا نحن ندين تلك الأعمال الإجرامية في المملكة، وفي كل مكان كالتي حدثت في البصرة وكربلاء والنجف وراح ضحيتها

(١) الشريف الرضي، علي بن الحسين، نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، خطبة رقم ٥٣، ص٤٢٧، الطبعة الأولى ١٩٦٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

المئات من الأبرياء، وما حصل قبل ذلك في المغرب وجزيرة بالي باندونيسيا وغيرها من الأعمال الإرهابية الفظيعة. ومن المخجل جداً ما حصل في أسبانيا من تفجير القطار الذي حدث في مدريد، إذ أعلنت الحكومة الأسبانية بداية أن هذا الحادث ليس له علاقة بالإسلاميين، وإنما وراءه منظمة إيتا الانفصالية ولكن الجهات المتطرفة المنتسبة للإسلام أصدرت بياناً تتبنى فيه العملية وكأنها تفتخر بذلك.

فتحتاج الأمة إلى صياغة جديدة لوعي الإنسان المسلم لعلنا نطبب تلك الجراحات التي أحدثتها ثقافة الاستهتار بالحياة، ونرسم لوحة من القيم النبيلة لصورة الإسلام الحقيقي، التي عملت تلك العقليات الخربة على تشويهه في نظر الآخرين، حتى صار الإرهاب سمة بارزة من سمات الإسلام عندهم.

وإن كان من حق الإنسان أن يعارض أي نظام سياسي يرى عليه بعض المآخذ إلا أن ذلك لا يعطيه الحق في أن يتخذ أي أسلوب، وإنما اتخاذ الحق هدفاً ووسيلة فهناك كثير من الطرق العقلائية التي تتيح للإنسان حق المعارضة، بل هي أكثر جدوى وفاعلية، وقد أثبتت التجربة والتاريخ أن العمل الإرهابي غير مجدٍ لتحقيق أي مكسب سياسي، وتجربة الإسلاميين المتشددين في الجزائر ومصر خير دليل على ذلك، ومن هنا كان أسلوب العنف مرفوض، لأنه يتنافى مع قدسية الحياة ولا ينسجم مع أي مفردة من مفردات الثقافة الإسلامية..

الاستهتار بالحياة

هذا الدين العظيم الذي يقدّس الحياة، ويعتبر العدوان عليها أشد جريمة، كيف سادت في بعض أوساط أبنائه ثقافة الاستهتار بالحياة؟! وكيف أصبح ستاراً وغطاءً لأفظع جرائم العدوان على الحياة؟!

لقد تناقلت الصحافة السعودية أن شاباً أندنوسياً (روسلي سادي ٢٦ عاماً) قدم إلى الحج عام ١٤٢٣هـ ولتوه قد تزوج، ألقى بنفسه من الطابق التاسع من فندق بشارع أم القرى في مكة، تاركاً رسالة تفيد بأنه سمع عن فضل من مات في مكة وأنه يدخل الجنة، فقرر أن لا تفوته هذه السعادة، فودّع زوجته قائلاً:«إلى اللقاء في الجنة» وقفز

أمامها لتتحول جثته إلى أشلاء!![١]

وفي حادثة أخرى: ضبطت شرطة الحرم المكي الشريف حاجاً أوربياً إثر اعتدائه على حاج يمني الجنسية بسكين غرسها في ظهره، زاعماً بأن الحاج اليمني هو المسيح الدجال! ذاكراً أنه قبل قدومه إلى مكة المكرمة رأى في المنام أنه سيتمكن من رؤية المسيح الدجال في مشاعر الحج، واصفاً شكله بأنه ذو لحية طويلة، وكريم عين، وهي المواصفات نفسها التي تنطبق على الحاج اليمني الضحية ولذا راقبه أثناء الطواف وهجم عليه صارخاً:«إنه المسيح الدجال.. إنه المسيح الدجال»، يذكر أن هذا الحاج المعتدي أوربي في العشرينيات من العمر ويدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة![٢]

كما ذكرت الأنباء أن الشرطة الألمانية اعتقلت مهاجراً تركياً يبلغ من العمر ٥٩ عاماً، أقدم على قتل تركيين آخرين بالرصاص بعد صلاة الفجر في مسجد في بلدة غلزنكيرشن غرب ألمانيا، واعترف القاتل بجريمته مدعياً أن القتيلين كانا تفوها بألفاظ تضمنت إهانة لشرفه ومساساً بشرف زوجته.

هذا وقد عرف عن القاتل شدة تدينه ومواظبته على الصلاة، وقيامه بالحج إلى مكة المكرمة [٣]، أليس مخجلاً صدور مثل هذه الممارسات من أشخاص يعيشون أجواء دينية؟ ألا يشير ذلك إلى خلل في الثقافة التي ينتهلون منها؟ صحيح أنها حالات فردية، لكنها مع تكرارها جرس إنذار يجب أن يدفعنا إلى الدراسة والفحص عن الخلفيات والأسباب.

وفي هذا السياق تأتي جرائم العدوان والقتل تحت عنوان الدفاع عن الشرف أو جرائم الشرف، وذلك بأن يقوم الأب أو الأخ أو الزوج بقتل المرأة عند الشك في سلوكها الأخلاقي، وتكثر هذه الحوادث في الأردن لأن القانون يتساهل في عقوبتها،

(١) عكاظ: صحفية يومية سعودية تصدر عن مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، ٤-١٢-١٤٢٣هـ.
(٢) الوطن: صحيفة يومية سعودية، ٢٣ فبراير ٢٠٠٢م.
(٣) الحياة: جريدة يومية تصدر من لندن، الثلاثاء ٢٧،١،٢٠٠٤م ـ ٥ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، العدد ١٤٩١٥.

وقد أزهقت أرواح كثير من الفتيات لمجرد الظنون والشكوك، وبأيدي أقربائهن، وضمن صور ومشاهد مأساوية فظيعة!!

وقد تأتي الوفود لتهنئة القاتل ومساندته ويلقى تعاطفاً واسعاً. ويقتل في الأردن ما لا يقل عن ٢٥ امرأة سنوياً بهذا الشكل.

وقالت منظمة العفو الدولية في تقرير لها عام ١٩٩٩م عن باكستان: إن عدة مئات من النساء يتعرضن للقتل باسم الشرف في باكستان كل سنة، ونادراً ما يحال القتلة إلى ساحة العدالة. ففي يوم ٦ يناير ١٩٩٩م أضرمت النار في فتاة تدعى (غزالة) وورد أن أخاها هو الذي أشعل النار فيها حتى ماتت حرقاً، في مدينة جوهر آباد بمقاطعة البنجاب، لأن أسرتها كانت تشتبه في أنها أقامت علاقة غير مشروعة مع أحد الجيران، وورد أن جسدها العاري المحترق ظل ملقى على قارعة الطريق لمدة ساعتين بسبب عزوف الجميع عن التدخل في الموضوع.[١]

وتأتي الآن العمليات الانتحارية والإرهابية التي تستهدف الأبرياء من رجال ونساء وأطفال تحت عنوان الجهاد ومحاربة الكفار والموالين لهم، كأفظع نتاج لثقافة الاستهتار بالحياة وباسم الدين مع الأسف الشديد.

(١) منظمة العفو الدولية، وثيقة رقم **ASA** ٣٣،٢٠،٩٩ ، الموقع على الشبكة: **www.amnesty-ara bic.org،text،news-service،ns-asa،1999،pakis-asa 33 20 99.Ctm**

القيادة النبوية وتحدي المعارضة

كلمة الجمعة بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٤٢٥هـ

لكن ذلك مما يستحيل حصوله عادة في المجتمعات البشرية، فمن يتصدى للقيادة والزعامة ـ دينية أو سياسية ـ، لا يعدم مناوئاً أو مخالفاً أو منافساً، والامتحان الحقيقي لأي قيادة هو في التعامل مع مثل هذه الحالات.

إن النهج السائد المتبع عند الزعامات السياسية والدينية في المجتمعات غير الديمقراطية، هو رفض هذه الحالات وقمعها، بمختلف العناوين والمبررات، كالحكم عليها بالكفر والمروق، أو إدانتها بالخيانة والانشقاق، أو اتهامها بالإفساد والتخريب.

وينبثق هذا النهج من عقلية الاستبداد، وتضخّم الذات، وحب الهيمنة والاستحواذ، ويؤدي إلى تهميش المجتمع، ووأد طاقاته وكفاءاته، كما يؤسس لحالات الانقسام والمواجهة والصراع.

والنبي ﷺ كقيادة دينية سياسية، واجه هذه الحالات داخل مجتمعه الذي أسسه وكان يقوده، فكيف كان منهج تعامله معها؟

إن الحديث ليس عن الأعداء المناوئين من خارج المجتمع الإسلامي، كاليهود والكفار، فمعاناة النبي ﷺ منهم، ومواجهته لهم، وحروبه معهم، معروفة واضحة.

إنما الحديث عن التيارات المناوئة، والعناصر المخالفة، داخل المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة.

حيث تشير آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة الشريفة، وروايات السيرة

النبوية، إلى وجود مثل تلك التيارات والعناصر.

إن الخطاب الإسلامي غالباً ما يركز على صور الاستجابة والإذعان من قبل الصحابة لرسول الله ﷺ، وهي بلا شك صور رائعة مشرقة، تدّل على عمق محبة رسول ﷺ في قلوب أتباعه، وصدق إيمانهم به، وشدة تأثرهم بشخصيته، حتى قال أبوسفيان بن حرب وهو في موقع المناوأة والمواجهة لرسول الله ﷺ: «**ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً**».(١)

لكن هذا ينطبق على الصحابة الصادقين المخلصين، وليس على كل أفراد المجتمع المحيط برسول الله ﷺ، حيث يؤكد القرآن الكريم وجود تيار داخل المجتمع الإسلامي يضمر العداء للإسلام، ويثير المتاعب في وجه رسول الله ﷺ، هو تيار المنافقين. يقول تعالى: ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**﴾(٢).

والصادقون في إسلامهم مع رسول ﷺ لم يكونوا ملائكة، ولا معصومين، لا تصدر من أحد منهم مخالفة أو معارضة، بل كانوا بشراً معرّضين لحالات الجهل والغفلة، وسيطرة الانفعالات العاطفية، والاندفاعات المصلحية، خاصة وأنهم حديثو عهد بالانتماء إلى الدين، ومن الطبيعي أن تبقى في النفوس رواسب وآثار من الحقبة الجاهلية.

لكل ذلك واجه رسول ﷺ من بعضهم مواقف مخالفة، وتصرفات مزعجة، وذاك أمر متوقع، ويهمنا في هذا البحث أن نتعرف على منهج رسول ﷺ في التعاطي مع حالات المعارضة والخلاف، سواء كانت ناتجة عن توجه عدائي مناوئ للدعوة، كما هو حال المنافقين، أو عن خطأ وسوء تصرف من قبل بعض المسلمين.

المنافقون والدور الخطير

استقطب الإسلام أبناء قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة، والتفوا حول

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ ص١٩١، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٢) سورة التوبة آية ١٠١.

رسول ﷺ حينما هاجر إليهم، وخضعوا لقيادته، ثم التحق بهم المسلمون من أبناء مكة وغيرهم، فتأسس في المدينة مجتمع جديد، بقيادة جديدة، خارج نسق الانتماءات القبلية.

لكن بعض العناصر وخاصة من طبقة الأثرياء والنافذين، لم تذعن قلوبهم للإسلام، ورأوا في قيادته وتعاليمه إلغاءً لنفوذهم، وتحجيماً لمصالحهم، في ذات الوقت لم يكونوا قادرين على الوقوف أمام التيار الكاسح، فأظهروا الولاء للإسلام والخضوع لقيادته، بينما كانوا يضمرون غير ذلك.

وأطلق القرآن الكريم على هذه الازدواجية عنوان (النفاق)، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به. كما يقول ابن منظور في لسان العرب.

والنفاق مأخوذ من النَفَق وهو: سَرَب في الأرض مشتق إلى موضع آخر.

وفي التهذيب: له مخلص إلى مكان آخر.

قال أبو عبيد: سمي المنافق منافقاً للنفق وهو السرب في الأرض، يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه.

وقيل إنه مأخوذ من السرب باعتبار الاستتار فيه لستره كفره.(١)

وكلا الاعتبارين متوفر في حال النفاق، فهو إظهار الإسلام كغطاء وستار لواقع الكفر، يشبه استتار النفق تحت الأرض، وهو اتخاذ الإسلام معبراً وطريقاً وليس قصداً وغاية، كاستخدام النفق للولوج فيه من جهة والخروج من الجهة الأخرى.

كانت هذه العناصر تنتمي إلى قبائل المدينة، وبعضها من قبائل البادية المحيطة بالمدينة، كما يذكر القرآن الكريم: ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**﴾، وإذا كان المنافقون من قبائل الأعراب في البادية يمارسون نفاقهم بشيء من البساطة، فإن منافقي المدينة قد تكرست عندهم خبرة النفاق ﴿**مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**﴾ أي مرنوا عليه ودربوا به، ومنه الشيطان المارد في الشيطنة.

---

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، ج٦ ص٦٩٤، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م.

وأغلب المنافقين كانوا من ذوي الثروة والنفوذ، أو الطامحين للزعامة والمواقع، كما يظهر من حديث القرآن الكريم عنهم «إن الآيات الواردة في حق المنافقين ومرضى القلوب، تلهم روحاً أو مضموناً، أو روحاً ومضموناً في آن واحد، أن حركة النفاق إنما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين في قومهم وعشائرهم قليلاً أو كثيراً، بل إننا لنكاد نقول استلهاماً من روح الآيات ومضمونها إن معظم أفراد هذه الفئة من تلك الطبقة، وإنه إذا كان اندمج فيها أناس من طبقة السواد أو العامة فإنهم لم يكونوا كثيرين وإنّما انساقوا فيها بتأثير أولئك، من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام التي تربط بينهم، أو من ناحية الإغراء والمنفعة»[1]، ومن أبرزهم عبدالله بن أبي بن سلول الخزرجي، وكان مرشحاً لتولي زعامة المدينة قبل الإسلام، وكذلك الجدّ بن قيس وكان زعيماً في قومه بني سلمة.

هذه العناصر بمكانتها القبلية، ولتسترها بالإسلام، واستغلالها للمشاعر العاطفية، وآثار العهد الجاهلي ورواسبه في النفوس، امتلكت مساحة من التأثير في المجتمع، ويشير قوله تعالى: ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ**﴾[2] إلى انقسام الرأي في المجتمع الإسلامي حول المنافقين ومواقفهم، فهناك من كان يحسن الظن بهم، ويدافع عنهم، انطلاقاً من العصبية الاجتماعية والمصالح المشتركة، أو من وحي البساطة والانخداع، وطلب مزيد من الفرصة لهم للهداية والإصلاح.

ويكفي لمعرفة حجم تأثيرهم ما ينقله التاريخ من أن زعيمهم عبدالله ابن أبي حينما انسحب من جيش المسلمين في الطريق إلى أحد، انسحب معه ثلاثمائة مقاتل، أي حوالي ثلث الجيش الإسلامي، وكاد أن يؤثر على بني حارثة من الأوس، وبني سلمة من الخزرج، لينسحبوا معه.

وحصل مثل ذلك في غزوة تبوك حيث انسحب عبد الله بن أبي ومعه عدد غير قليل من مؤيديه، حتى قال ابن إسحاق إن المعسكر الذي انسحب مع ابن أبي ليس بأقل

(١) دروزة: محمد عزة، سيرة الرسول ﷺ، ج٢ ص٧٩، المكتبة العصرية، بيروت.
(٢) سورة النساء آية ٨٨.

العسكرين[١]، أي أنه يوازي المعسكر الذي قاده رسول الله ﷺ، ولعل في هذه الرواية شيئاً من المبالغة، لكنها تعبر عن حجم هذا التيار.

بيد أن الأهم إدراك مدى خطورة هذا التيار على مسيرة الدعوة وبناء المجتمع الإسلامي، فقد لعب دوراً خطيراً، وخاصة في مرحلة التأسيس، حيث كانت تحيط بالتجربة أخطار هائلة، وكان عود الإسلام غضاً طرياً، بعد لم تتمكن قيمه ومفاهيمه من القلوب والنفوس.

من مواقف التآمر والعداء

إن كثرة الآيات القرآنية التي تتحدث عن النفاق والمنافقين، وتسلط الأضواء على مواقفهم وصفاتهم، حتى لا تكاد تخلو منها سورة مدنية، لتكشف عن مستوى الخطورة التي كانوا يمثلونها.

١. فقد لعبوا دور الطابور الخامس داخل المجتمع لصالح مخططات الأعداء الخارجيين، كاليهود والمشركين، حيث كانوا يتواصلون معهم، ويشجعونهم على محاربة الإسلام، وينسقون معهم الجهود والمواقف.

إنهم جزء من المجتمع ظاهراً، لكن ولاءهم ليس للمجتمع، إنما هو لأعدائه، يقول تعالى: ﴿**بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢]، فهم يخادعون المجتمع بإظهار انتمائهم إليه، بينما هم حلفاء للقوى المعادية، يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾[٣]، وشياطينهم هنا هم اليهود كما يقول المفسرون.

وحينما حاصر المسلمون يهود بني النضير بعد خياناتهم المتكررة، كان عبدالله بن أبي وأتباعه من المنافقين، يتواصلون مع بني النضير لتشجيعهم على المقاومة والصمود، ولرفع معنوياتهم، مؤكدين تحالفهم وتضامنهم معهم. يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ**

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤ ص١٧٣.
(٢) سورة النساء آية ١٣٨-١٣٩.
(٣) سورة البقرة آية ١١٤.

تَرى إِلَى الَّذينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمْ الَّذينَ كَفَرُوا منْ أَهْلِ الْكتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَدَاً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾(١).

وواضح خطورة مثل هذا الدور في مجتمع يعيش حال حرب ودفاع، ويحيط به الأعداء من كل جهة.

٢. وهناك دور أخطر يتمثل في سعيهم المحموم لإضعاف الجبهة الداخلية، ببث الشكوك تجاه الدين وقيادة الرسول ﷺ، وقد سجل القرآن الكريم بعض صور إشاعاتهم وأراجيفهم كقوله تعالى:**﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾**(٢).

وصورة أخرى تنقلها الآية الكريمة:**﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾**(٣). ويسجل القرآن الكريم عنهم قولهم في غزوة الأحزاب:**﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾**(٤).

٣. كانوا يسخرون من شخصية رسول ﷺ بصورة مؤذية، ويصفونه بالسذاجة والبساطة، وأنه يسمع ويقبل كل ما يقال له دون وعي وتمييز، كما نقل ذلك عنهم القرآن الكريم:**﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾**(٥).

وكانوا يشككون في سياساته الاقتصادية، يقول تعالى:﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾(٦)، واللمز القدح والاعابة.

٤. ووصل بهم الأمر إلى الطعن في عرض رسول ﷺ واتهام عفة زوجاته، وذلك في حادثة (الإفك) التي ذكرها القرآن الكريم، وجاء في كتب السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما قفل راجعاً من غزوة بني المصطلق، وفي آخر مرحلة من الطريق تأخرت زوجته

(١) سورة الحشر آية ١١.
(٢) سورة التوبة آية ١٢٤.
(٣) سورة الأنفال آية ٤٩.
(٤) سورة الأحزاب آية ١٢.
(٥) سورة التوبة آية ٦١.
(٦) سورة التوبة آية ٥٨.

عائشة لطلب عقد افتقدته، فظنوها في هودجها وسارت القافلة عنها، فلما وصلوا المدينة لم يجدوها في الهودج، فمر بها صفوان بن المعطل وأركبها على ناقته، وجاء يقودها إلى المدينة، فوجد عبدالله بن أبي الفرصة سانحة للطعن في عرض رسول ﷺ فقال: «**والله ما نجت منه ولا نجا منها**» وتلقف قوله أصحابه فأشاعوه، وتأثر رسول الله لذلك حتى نزل الوحي ببراءة زوج رسول ﷺ وإدانة موقف المنافقين.

٥. كانت لهم لقاءات واجتماعات للتآمر ووضع الخطط الكيدية، واكتشفهم الرسول ﷺ ونهاهم وحذرهم، لكنهم لم يتوقفوا عن ذلك الدور التآمري يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنْ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ**﴾[١]. والمناجاة هي التحادث الخفي.

٦. كانوا يقومون بدور الإرباك وتثبيط العزائم، وعرقلة أوامر القيادة، وإفشال البرامج والسياسات، فتارة يشيعون بين المتأثرين بهم الامتناع عن الإنفاق وتقديم المال، لإضعاف الوضع الاقتصادي، من أجل الضغط على أتباع الإسلام: ﴿**هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا**﴾[٢].

وعند كل معركة كانوا يبثون روح التخاذل، ويسعون لتعويق حركة الجهاد: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[٣].

٧. وقد تجرؤوا على التخطيط لتصفية رسول ﷺ واغتياله، عند رجوعه من غزوة تبوك، إذ نصبوا له كميناً على عقبة في الطريق ليلاً، لتنفر ناقته وتقع به وسط الوادي، وكانوا أكثر من عشرة أشخاص ملثمين، فعرف رسول ﷺ خطتهم، وكشف لبعض أصحابه عن أسمائهم، وأنجاه الله تعالى من مؤامرتهم.■

(١) سورة المجادلة آية ٨.
(٢) سورة المنافقون آية ٧.
(٣) سورة الأحزاب آية ١٨.

استيعاب المعارضة في العهد النبوي

كلمة الجمعة بتاريخ ١٨ ربيع الأول ١٤٢٥هـ

كما أن آيات القرآن الكريم في فضح خطط المنافقين والتنديد بمؤامراتهم والتحذير منهم والأمر بمجاهدتهم، كانت توّفر للنبي ﷺ فرصة مواجهتهم وقمعهم لو أراد ذلك، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[1]، وتكررتَ الآيةَ بنفس النص في سورة التحريم آية ٩.

لكن ما يثير الدهشة هو سعة صدر رسول الله ﷺ، وعظيم احتماله لكل إساءاتهم الخطيرة، وممارساتهم العدائية.

لقد تعامل معهم بنفس طويل، وصبر عميق، ومارس معهم سياسة الاحتواء والاستيعاب، والتي يمكن قراءتها ضمن البنود التالية:

أولاً: عدم اللجوء إلى القوة والقمع، رغم استفزازاتهم وجرائمهم، فلم يتعامل معهم كأعداء محاربين، ولم يقتل منهم أحداً، ولم يسجن أحداً، ولم يجلد أحداً، ولم يطرد أحداً. ويؤكد الباحث الأستاذ محمد عزة دروزة على «عدم ورود روايات موثقة تتضمن أن النبي ﷺ قد اعتبر المنافقين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك، أو أمر بقتلهم، أو قتل بارزيهم، بسبب صفة النفاق، أو بسبب موقف منبعث عنه من تلك المواقف الكثيرة التي حكتها الآيات التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل عنهم، والتي احتوت صوراً كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته، والتناجي بالإثم

(١) سورة التوبة آية ٧٣.

والعدوان ومعصية الرسول، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه، ودس الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد، وإشاعة الفاحشة والإرجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم، والتعرض لنساء المسلمين، بل لنساء النبي بالأذى والكيد، والتضامن مع أعداء الإسلام وموالاتهم.

إن النبي ﷺ قد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك إليه أمر تقدير ظروف تنفيذها، والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين؛ لا سيما أن بعض الآيات الواردة في هذا الصدد قد تخللتها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل جمل ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾ و﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾. و﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾ و﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾. إلخ»[1].

ثانياً: لم يصادر أي حق من حقوقهم المدنية، فكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة كسائر المسلمين، يحضرون المسجد، ويدلون بآرائهم في قضايا المجتمع، ويأخذون نصيبهم من الغنائم وعطاء بيت المال.

ثالثاً: وأكثر من ذلك كان رسول ﷺ يبذل لهم الإحسان، ويحوطهم بمداراته، ويشملهم بكريم أخلاقه.

ومن أجل توثيق بنود هذه السياسة النبوية، وتوضيح معالمها، نلتقط بعض الصور من السجلات النبوية الشريفة:

يقودون تمرداً عسكرياً

في غزوة أحد وعندما تحرك جيش مكة لمهاجمة المدينة انتقاماً من هزيمتهم ببدر، وبلغ ذلك رسول ﷺ جمع المسلمين ليستشيرهم في الموقف، فكان رأي الأغلبية الخروج لمواجهة جيش المشركين، واستجاب الرسول ﷺ لرأيهم، وقاد الجيش، لكن عبدالله بن أبي وهو رأس المنافقين، كان معترضاً على قرار الخروج، مطالباً بالتحصن في المدينة، لكنه مع ذلك خرج مع الجيش الذي بلغ تعداده ألف

(١) دروزة: محمد عزة، سيرة الرسول ﷺ، ج٢ ص٧٨.

مقاتل، وفي منتصف الطريق قرر عبدالله بن أبي التراجع والانسحاب من الجيش، وانسحب معه ثلاثمائة مقاتل، أي ثلث الجيش، وذلك يعني تمرداً عسكرياً على القيادة في حال الحرب، وضربة لمعنويات معسكر المسلمين وقوتهم، وقد تصدى بعض الأصحاب لنصيحتهم ليعدلوا عن قرار الانسحاب، كعبدالله بن عمرو بن حرام الذي خاطبهم بقوله: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم. لكنهم لم يستجيبوا للنصح.

وكاد أن يخلق انسحابهم اضطراباً في الجيش الإسلامي، حيث همّ بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج، أن ينسحبوا تأثراً بموقف ابن أبي وجماعته.

وبينما رأى فريق من المسلمين ضرورة اتخاذ إجراء تأديبي تجاه هذا التمرد الخطير، فإن رسول ﷺ تجاهل تمردهم، وتركهم وشأنهم، واستمر في طريقه لمواجهة العدو.

ومرة أخرى مارسوا نفس الدور في غزوة تبوك، حيث حشد رسول ﷺ جيشه لمواجهة الأخطار التي كانت تتهدد المسلمين من النصارى على حدود الجزيرة العربية طرف الشام، ليكون ذلك رسالة للروم الذين كانت تدور في أوساطهم فكرة اجتياح الجزيرة العربية للقضاء على الإسلام.

فكان أضخم جيش لرسول ﷺ يبلغ ثلاثين ألف مقاتل، وكان ذلك في فصل الصيف ذي الحرارة اللاهبة، وفي سنة مجدبة، لذلك أطلق على تلك الغزوة اسم غزوة (العسرة).

وقد قام رسول ﷺ بتعبئة كبيرة في صفوف المسلمين لإنجاح هذا المسير، في المقابل كان المنافقون يقومون بدور مضاد، لتثبيط العزائم، ونجحوا في دفع بعض وحدات الجيش الإسلامي إلى التمرد والانسلاخ، وكان للجد بن قيس ـ من زعماء المنافقين ـ دور بارز في هذا السياق، وللتغطية على دوره الخياني استأذن رسول ﷺ في التخلف عن الجيش، فأجابه ﷺ: قد أذنت لك. وكان الجد بن قيس يقول لولده عبدالله وهو مؤمن صادق، عاتب أباه على تخلفه فأجاب أبوه: ما لي وللخروج في الريح والحر والعسرة إلى بني الأصفر؟ والله ما آمن من بني الأصفر وأنا في منزلي!!

ووجه نداءً إلى قومه بني سلمة يحثهم على التخلف عن رسول الله ﷺ.

أما عبدالله بن أبي فانخرط في الجيش، ثم انسحب مع جماعة كثيرة بغرض الإرباك، وعاد إلى المدينة متمنياً الهزيمة للمسلمين بقوله: يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرنين بالحبال.

ولم يتخذ رسول الله أي إجراء ضدهم، بل لم تسمع منه كلمة لوم أو عتاب تجاههم.

إثارة الفتنة والنيل من القيادة

عند رجوع الجيش الإسلامي من غزوة بني المصطلق في شهر شعبان سنة أربع من الهجرة، حصل سوء تفاهم لتزاحم على الماء بين رجلين من المسلمين، أحدهما من المهاجرين، والآخر من الأنصار، فصاح كل منهما باسم جماعته لتنتصر له، كما هي أعرافهم في الجاهلية، فلما علم رسول ﷺ بذلك، بادر للحضور مستنكراً ما حدث قائلاً: ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها منتنة.. وانتهت الحادثة بتنازل الأنصاري المضروب عن حقه.

لكن عبدالله بن أُبي أراد اغتنام الفرصة لتأليب الأنصار على المهاجرين، وإثارة الفتنة، فكان يقول: ما رأيت كاليوم مذلة قط، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: (سمّن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

مهدداً بإخراج رسول ﷺ والمهاجرين من المدينة. كما نقل ذلك الوحي: ﴿**يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**﴾[1].

وصار يذكي في قومه روح العداء للمهاجرين قائلاً: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم دياركم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا

(١) سورة المنافقون آية ٨.

فقتلتم دونه ـ أي النبي ﷺ ـ فأيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد!!

وقد نقل القرآن الكريم هذه المقولة يقول تعالى:﴿**هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا**﴾(١).

أثارت هذه المقولات التحريضية والمسيئة للقيادة حفائظ المسلمين، وطلب عمر بن الخطاب من رسول ﷺ أن يسمح له بضرب عنق رأس النفاق عبدالله بن أبي، قائلاً: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فرفض النبي ﷺ قائلاً:«**دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».(٢)

فقال عمر: إن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر أنصارياً يقتله، فلم يوافق النبي ﷺ على ذلك قائلاً: إذن ترعد له أُنُفٌ كثيرة بيثرب. أي أنه سيغضب لقتله كثيرون من قومه.(٣)

فجاء عبدالله بن عبدالله بن أُبي، وكان مؤمناً صادقاً إلى رسول ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبَر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أُبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.(٤)

الشفاعة في الخائنين

يهود بني قينقاع تقع منازلهم داخل المدينة، وقد عقد معهم النبي ﷺ معاهدة سلام، على أن لا يمسوا المسلمين بسوء، ولا يمدوا يدَ عونٍ لأعدائهم، لكنهم لم يلتزموا

(١) سورة المنافقون آية ٧.
(٢) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ٢٥٨٤-٦٣.
(٣) باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، الأحزاب ص٩١، الطبعة السادسة ١٩٨٦م.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣ ص٣٢٠.

بالعهد، وصاروا يستفزّون المسلمين ويؤذونهم، ونصحهم رسول ﷺ وحذرهم، فلم يرتدعوا، وظهرت معالم استعدادهم لمواجهة المسلمين، فبادر النبي ﷺ لحصارهم منتصف شهر شوال من السنة الثانية للهجرة، فاعتصموا بحصونهم خمس عشرة ليلة، ثم فاوضوا على الاستسلام دون قيد أو شرط.

وكان عبدالله بن أُبي يراهن على صمود بني قينقاع ومواجهتهم للنبي ﷺ، فلما رأى استسلامهم خابت آماله، لكنه طلب من النبي ﷺ العفو العام عنهم، باعتبارهم حلفاء الخزرج قبل الإسلام، قائلاً: يا محمد أحسن في مواليّ. فأعرض عنه ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني ـ أي اتركني ـ وغضب رسول ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُللاً. ثم قال: ويحك! أرسلني! قال ابن أُبي: لا والله لا أرسلك ـ لا أدعك ـ حتى تحسن في مواليّ، أربع مئة حاسر ـ أي لا درع له ـ وثلاث مئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله امرؤ أخشى الدوائر! فقال رسول الله ﷺ: هم لك.[1] فاستجاب لطلبه الملحّ وعفا عنهم ليخرجوا جميعهم من يثرب سالمين.

تشجيع اليهود والتجسس لهم

بعد أن اكتشف المسلمون مؤامرة يهود بني النضير لاغتيال رسول الله ﷺ، أنذرهم النبي ﷺ بالجلاء عن المدينة، وبدأ الاستعداد لمحاصرتهم، فبادر بعض المنافقين من بني عوف وفيهم عبدالله بن أُبي، بالكتابة إلى بني النضير ضمن رسالة مستعجلة جاء فيها: «إن محمداً سائر إليكم فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالكم حصونكم، واخرجوا لقتاله، ولا تخافوا منه، إن عددكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون عزّل لا سلاح معهم إلا القليل».

واستمر تواصلهم لتحريض بني النضير على المواجهة والصمود، مبدين تعاطفهم وتضامنهم معهم، وقد فضح الوحي موقفهم حيث نزل قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ**

(١) المصدر السابق، ج٣ ص٥٤.

﴿مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

ولم يتخذ رسول ﷺ أي إجراء ضد هؤلاء المنافقين، مع اطلاعه على موقفهم الخياني.

مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ

بعد أن حقق الجيش الإسلامي انتصاره الكبير في غزوة تبوك، تآمر بعض المنافقين لتصفية رسول ﷺ في طريق عودته إلى المدينة، وكانت خطتهم أن يعملوا على تنفير ناقة رسول ﷺ التي يركبها، حين يكون على موقع مرتفع، لتسقط به في بطن الوادي، واختاروا عقبة تشرف على وادٍ سحيق، كموضع للتنفيذ، في ظلام الليل، ليبدو الأمر كأنه حادث طبيعي.

وعلم رسول ﷺ بمؤامرتهم، فأمر الجيش بتغيير اتجاه سيره ليسلك الوادي، وانفرد الرسول ﷺ مع ثلاثة من أصحابه ليعبروا تلك العقبة.

فغيّر المنافقون خطتهم منتدبين ثلاثة عشر منهم، كانوا ملثمين لتنفيذ المؤامرة، لكن رسول ﷺ اكتشفهم أيضاً، وأمر من معه وهو حذيفة ابن اليمان بمهاجمتهم، فهربوا واختلطوا بالجيش حتى لا يعرفهم أحد.

وأخبر رسول ﷺ حذيفة بما كانوا تمالؤوا عليه وسماهم له، وأمره بالكتمان، فقال يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فقال ﷺ: أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

وحينما علم زعيم الأوس أسيد بن حضير بما حصل، قال لرسول الله ﷺ: مر كل بطن ـ أي كل فرع من قبيلة ـ أن يقتل الرجل الذي همّ بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت والذي بعثك بالحق، فنبئني بهم، فلا تبرح حتى آتيك برؤوسهم، فإن مثل هؤلاء يُتركون يا رسول الله؟! حتى متى نداهنهم وقد صاروا اليوم في القلّة والذلة، وضرب الإسلام بجرانه، فما يستبق من هؤلاء؟

---

(١) سورة الحشر آية ١١.

فقال رسول ﷺ لأسيد: إني أكره أن يقول الناس: إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه!

فقال أسيد: يا رسول الله فهؤلاء ليسوا بأصحاب!

قال ﷺ: أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟

قال: بلى، ولا شهادة لهم!

قال ﷺ: أليس يُظهرون أني رسول الله؟

قال: بلى، ولا شهادة لهم!

قال ﷺ: فقد نهيت عن قتل أؤلئك.(١)

وفاة ابن أُبي

بعد غزوة تبوك توطدت قوة الإسلام، وتضاءل تأثير المنافقين، لكنالرسول ﷺ استمر في سياسته الحكيمة بالتعامل بأعلى درجات المرونة والتسامح معهم، فقد مرض رأس النفاق عبدالله بن أُبي، فجاء ولده عبدالله إلى النبي ﷺ وأبوه يجود بنفسه، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إنك إن لم تأت أبي عائداً كان ذلك عاراً علينا.

فاستجاب رسول ﷺ وقام إلى عيادته فدخل عليه وعنده جمع من المنافقين، فقال ابنه عبدالله: يا رسول الله استغفر له، فاستغفر له.

فقال عمر: ألم ينهك الله يا رسول الله؟

فأعرض ﷺ، فأعاد عليه عمر.

فقال ﷺ: إني خيّرت فاخترت إن الله عز وجل يقول: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ**﴾(٢).

قال الواقدي: ومرض عبدالله بن أُبي في ليال بقين من شوال، ومات في ذي

(١) الواقدي: محمد بن عمر بن واقد، كتاب المغازي، ج٣ ص١٠٤٣.
(٢) سورة التوبة آية ٨٠.

القعدة، وكان مرضه عشرين ليلة، فكان رسول ﷺ يعوده فيها، فلما كان اليوم الذي مات فيه، دخل عليه رسول الله ﷺ، وهو يجود بنفسه.

فقال ﷺ: قد نهيتك عن حب اليهود.

فقال ابن أُبي: أبغضهم سعد بن زرارة فما نفعه؟

ثم قال: يا رسول الله ليس بحين عتاب! هو الموت، فإن مِت فاحضر غسلي وأعطني قميصك أكفّن فيه. فأعطاه قميصه الأعلى، وكان عليه قميصان، فقال ابن أُبي: الذي يلي جلدك. فنزع رسول ﷺ قميصه الذي يلي جلده فأعطاه. ثم قال: صل علي واستغفر لي. فحضر رسول ﷺ غسله، وحضر كفنه، ثم حمل إلى موضع الجنائز فتقدم رسول ﷺ ليصلي عليه، فلما قام وثب إليه عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصلي على بن أُبي وقد قال يوم كذا كذا، ويوم كذا كذا؟ فعدّ عليه قوله.

فتبسم النبي ﷺ وقال: أخِّر عني يا عمر! فلما أكثر عليه عمر قال ﷺ: إني قد خيّرت فاخترت، ولو أعلم إني إذا زدت على السبعين غفر له زدت عليها، وهو قوله عز وجل: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾.(١)

وروي عنه ﷺ أنه قال: ما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إن كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه، وروي أنه أسلم بعد موته ألف من قومه لما رأوا تبّركه بقميص النبي ﷺ. وفي هذا ـ كما يقول النووي ـ بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء، وقابله بالحسنى، فألبسه قميصه وصلى عليه واستغفر له.(٢) ■

(١) المصدر السابق، ج٣ ص١٠٥٧.
(٢) باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، تبوك ص١٥٨.

السياسة النبوية ودولة اللاعنف

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ١٤٢٥هـ

واجه رسول ﷺ لوناً آخر من الإساءات لشخصيته وموقعه القيادي، ومن المخالفات لقراراته وأوامره الدينية والسياسية، كانت تصدر من أفراد غير منتمين لتيار مناوئ كالمنافقين، وإنما هي نابعة من الجهل، أو الانفعال، أو الأغراض الشخصية، وبعض تلك الإساءات كانت شديدة تنال من مقام رسول الله ﷺ، وتشكك في نزاهته، كما أن بعض المخالفات كانت ترقى إلى مستوى الخيانة العظمى، لكن رسول ﷺ استقبل كل تلك الإساءات والمخالفات بسعة صدر مذهلة، واستوعب أصحابها بحلم وأناة لا مثيل لها من قائد في التاريخ.

ولم يستخدم القمع والعنف في أي حالة من تلك الحالات، رغم توفر الأسباب والمبررات، ورغم إلحاح بعض من حوله من الأصحاب على ذلك، إلا أنه ﷺ التزم نهج السلم، ورجّح سياسة العفو.

وفيما يلي ننقل بعض النماذج والشواهد

خيانة عظمى

حينما عزم رسول ﷺ على فتح مكة، أحاط قراره بالكتمان الشديد، حتى لا تكون لقريش فرصة للاستعداد والتعبئة، وحشد ﷺ المسلمين دون أن يخبرهم بجهة قصده، بل بعث سرية عسكرية إلى ناحية نجد للتعمية والتمويه. ووضع حراسة على

الطرق المؤدية إلى مكة حتى لا يتسرب أشخاص مشبوهون ينقلون الأخبار.

مع هذا الحرص الشديد على الكتمان لإنجاح الخطة، فإن أحد الأصحاب من المهاجرين من أهالي مكة، وهو حاطب بن أبي بلتعة، علم بطريقة خاصة عن قصد رسول الله ﷺ، فبادر بالكتابة إلى زعماء مكة بما نصه:«**إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد بكتابي إليكم**» واستأجر لإيصاله امرأة دفع لها مبلغاً من المال، وأخفت الكتاب بين شعر رأسها، واتجهت سريعاً نحو مكة.

وهبط الوحي على رسول ﷺ يخبره بذلك، فبعث ﷺ علياً والزبير، وقال لهما: أدركا امرأة قد بعث معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم. فأسرعا حتى أدركاها في الطريق، وأنكرت الأمر في البداية، ثم هدداها فاعترفت وسلمت لهما الرسالة، فتركاها ولم يتخذا أي إجراء ضدها، كما أمر رسول الله ﷺ، وجاء بالكتاب إلى رسول الله ﷺ. فاستدعى حاطب، وقال له: أتعرف هذا الكتاب؟ فلم ينكر، بل قال: نعم. فقال ﷺ: ما حملك على هذا؟ فقال: والله إنني لمؤمن بالله ورسوله ما غيّرت ولا بدلت، ولكني كنت أمرءً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أموالهم وأهليهم بمكة، ولم يكن لي قرابة، فأحببت أن أتخذ فيهم يداً أحمي بها أهلي.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق. إلا أن النبي لم يوافق على اقتراح عمر، بل اتبع سبيل الصفح والعفو عن حاطب لمواقفه السابقة، وقال لأصحابه: إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا خيراً.(١)

هنا لم تكن حسابات سياسية تمنع معاقبة حاطب، فهو لا ينتمي إلى تيار يُخشى، وليس له في المدينة قبيلة تراعى، وقد ارتكب خيانة عظمى، لكن نهج رسول ﷺ هو الصفح والعفو. بل أعاد له الاعتبار حين أمر الأصحاب أن لا يقولوا له إلا خيراً.

(١) باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، فتح مكة ص٩١، الطبعة السادسة ١٩٨٦م..

التشكيك في نزاهة القيادة

لم يكن النبي ﷺ مجرد قائد يتمتع بالنزاهة والصدق، بل هو رسول من قبل الله تعالى، يؤمن به أتباعه كصلة بينهم وبين الله تعالى، يخبرهم عنه، وينقل لهم شرائعه.

من هنا فإن أي تشكيك في نزاهة رسول ﷺ يناقض أساس العقيدة والدين، ويصطدم مع الثقة المطلقة التي يجب الإيمان بها في رسول الله ﷺ.

وقد تجرأ بعض الأفراد على إعلان التشكيك في نزاهة رسول ﷺ عند بعض المواقف، لكنه ﷺ لم يتخذ تجاههم أي إجراء قمعي، ولم يستخدم العنف أبداً، بل اكتفى بالتأكيد على موقعيته الرسالية الثابتة.

١. جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال: أتى رجل رسول ﷺ بالجعرانة، منصرفه من حنين. وفي ثوب بلال فضة. ورسول ﷺ يقبض منها، يعطي الناس. فقال يا محمد اعدل!! قال ﷺ:«**ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن اعدلُ**».

فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق.

فقال ﷺ:«**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي..**»[1]

٢. وعن أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ، من اليمن، بذهبة في أديم مقروظ. فقسمها بين أربعة نفر، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال:«**ألا تأمنوني؟ وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً**» قال: فقام رجل غائر العينين. مشرف الوجنتين. ناشز الجبهة. كث اللحية. محلوق الرأس. مشمر الإزار. فقال: يا رسول الله اتق الله. فقال «**ويلك أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله**» قال: ثم ولى الرجل. فقال خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال ﷺ:«**لا. لعله أن يكون يصلي**». قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله ﷺ:«**إني لم**

(١) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ١٠٦٣.

أومر أن أنقب عن قلوب الناس. ولا أشق بطونهم»[١]

٣. وجاء في السيرة النبوية أن رسول ﷺ قال لأصحابه قبل غزوة بدر: إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا ـ مع المشركين ـ كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبدالمطلب، عم رسول ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرهاً.

فقال أبو حذيفة بن عتبة وهو من المسلمين المهاجرين، لما بلغه قول رسول ﷺ ذلك: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنَّه السيف!!

قال: فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص أيُضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟

فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه ـ أي أبا حذيفة ـ بالسيف، فوالله لقد نافق[٢] فرفض رسول ﷺ ذلك، ولم يسمح بأن يمسّ أبوحذيفة بأي أذى.

٤. وجاء في سنن الترمذي عن عبدالله بن مسعود قال: أُتي رسول ﷺ بمال فقسمه فانتهيت إلى رجلين جالسين وهما يقولان: والله ما أراد محمد بقسمته التي قسمها وجه الله ولا الدار الآخرة، فتثبت حين سمعتهما فأتيت رسول ﷺ وأخبرته، فاحمر وجهه وقال: دعني عنك فقد أُوذي موسى بأكثر من هذا فصبر[٣]

من أجل السلم والاستقرار

هذه السيرة النبوية العطرة كيف يجب أن يقرأها المسلمون؟

---

(١) المصدر السابق، حديث رقم ١٠٦٣-١٤٤.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢ ص٢٤٠، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، حديث رقم٣٨٩٦، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

إنها ليست مجرد فضائل باهرة تزيدنا فخراً وإعجاباً برسول الله ﷺ، ولا مجرد مواقف وصفات أخلاقية تتميز بها شخصيته الكريمة، بل يجب أن نقرأها كنهج لحياتنا الاجتماعية، وبرنامج لنظامنا السياسي.

فمن خلال هذه السيرة أراد رسول ﷺ أن يحدد معالم النظام السياسي لإدارة المجتمع الإسلامي، تلك الإدارة التي ترفض العنف لغة في التعامل مع الشعب، وتبني دولة اللا عنف، بحيث يجد الناس أمامهم فرصة التعبير عن آرائهم وأفكارهم، مهما كانت مخالفة لتوجه القيادة، دون أن يتعرضوا للتصفية أوالتنكيل.

وما نراه الآن في واقع المجتمعات والأمم المتقدمة، التي تضمن حرية الرأي لمواطنيها، وتوفر لهم فرص التعبير عن أفكارهم وتوجهاتهم السياسية، عبر الإعلام والمؤسسات والتجمعات السلمية، مهما كانت مخالفة لإدارة السلطة، إنما هو تطبيق معاصر لنهج سلكه رسول ﷺ قبل خمسة عشر قرناً بشكل أوفى وأكمل، وفي بيئة متأخرة متخلفة، قد ألفت الحروب والعنف، وانسجمت مع منطق القوة والسيف، باعتباره أفضل الوسائل والسبل للتعامل مع الرأي المضاد والموقف المخالف.

لذلك نقرأ إلحاح الأصحاب المحيطين برسول ﷺ على قمع أي معارض وضرب عنقه، دعني أضرب عنقه، دعني أقتله. لكنه ﷺ رفض عنف الدولة، وأسس لدولة اللا عنف. مع أن الدولة الدينية أو الأيديولوجية بشكل عام عادة ما تكون أكثر شدة وعنفاً حسبما يسجل التاريخ.

بالطبع نحن نعتقد أن تلك السياسة النبوية لا تنطلق من حالة ذاتية، وليست نابعة من قناعة فكرية شخصية عند رسول الله ﷺ، أو ناتجة عن خلق نفسي خاص لديه ﷺ، بل هي فوق ذلك شريعة إلهية، ووحي ربّاني، فإن خالق الناس هو الذي منحهم الحياة، وأنعم عليهم بنعمة العقل ليفكروا من خلاله، وأعطاهم القدرة على التعبير عن مكنونات أنفسهم وحركة عقولهم، كما يقول تعالى: ﴿**خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[1]، وبذلك فإنه تعالى لا يسمح لأحد أن يصادر من خلقه مِنَحة لَهم، ونِعمة عليهم، إلا بمبرر قاطع

(١) سورة الرحمن آية ٣-٤.

واضح يقبله الخالق نفسه جلّ وعلا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الرسول محمداً ﷺ، كان يدرك أنه يقوم بدور التأسيس والبناء لأمة يريد لها الله تعالى أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وهو يعلم أن سيرته الشريفة بما تشتمل عليه من أقوال وأفعال ستكون حجة ملزمة، وسنة شرعية، لذلك كان ﷺ حريصاً ومهتماً بحماية حقوق الناس، وحفظ كرامتهم، ورعاية مصالحهم، لتنتهج أمته نهج السلم الاجتماعي، ولتبتعد عن طريق القمع والعنف الداخلي، كما يقول تعالى: ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾، وكما حذر ﷺ أمته من الانحدار إلى هوة الاحتراب والعنف الداخلي، في أكثر من مورد.

ورد في صحيح البخاري عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ قال: «**أي شهر هذا؟ أليس ذا الحجة؟**». قلنا: بلى، قال: «**أي بلد هذا؟ أليس البلدة؟**». قلنا بلى، قال: «**فأي يوم هذا؟ أليس يوم النحر؟**». قلنا: بلى، قال: «**فإن دماءكم وأموالكم ـ قال محمد: واحسبه قال: وأعراضكم ـ عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلَّالاً، يضرب بعضكم رقاب بعض، أَلا ليبلغ الشاهد الغائب**»، ثم قال: «**ألا هل بلغت، ألا هل بلغت**».[1]

وعلى مستوى النتائج والآثار فإن ذلك النهج السلمي الذي سلكه رسول ﷺ هو الذي مكنّه من تحقيق انتصاره العظيم، وانجازه الحضاري الكبير، الفريد من نوعه في التاريخ، في مدة قياسية من الزمن، وبأقل قدر من الخسائر.

فلو استخدم رسول ﷺ العنف داخلياً، ومارس القمع تجاه المخالفين لقاد ذلك إلى ردود فعل سلبية، على المستويات التالية:

١. قد يزيد من تحدي المخالفين، ويدفعهم إلى تصعيد مناوءتهم، وبعضهم قد تكون مخالفته بسبب جهل أو انفعال وقتي، فإذا ما قوبل بالقوة والشدة فقد يدفعه ذلك إلى الإصرار والعناد، بينما كان حلم رسول ﷺ غالباً ما يدفع إلى التراجع والاعتذار،

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٥٥٥٠، دار الكتب العلمية، بيروت١٩٩٩م.

كما تنص على ذلك الشواهد الكثيرة. والقائد الحكيم كالأب الرحيم يريد صلاح ابنه وليس الانتقام منه.

إن بعض الدول حينما تسرعت في استخدام القمع تجاه معارضيها دفعتهم لسلوك طريق العنف المضاد، مما يسلب أمن المجتمع، ويدخله في دوامة العنف والاضطراب.

٢. استخدام العنف يخلق حالة من التعاطف مع من يقع عليه، وخاصة في ذلك المجتمع الخاضع للعصبيات القبلية. بينما العفو والصفح، يعطي أثراً معاكساً، حيث يتوجه الآخرون باللوم والعتاب للمخالف، ويحمدون عفو المقتدر وصفحه. وهذا ما حصل في كثير من المواقف المذكورة في السيرة النبوية.

٣. سياسة العفو والتسامح وفرّت للدعوة الإسلامية، وللقيادة النبوية سمعة حسنة، ووجهاً مشرقاً أمام الرأي العام، مما ساعد على انتشار الإسلام، وإقبال الناس عليه، ودخولهم فيه أفواجا، بينما لو تعامل رسول ﷺ بالشدة والعنف، لسبب ذلك تشويهاً لصورة الإسلام وشخصية النبي ﷺ، وهذا ما كان يشير إليه ﷺ بقوله: كيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه...

الانقلاب على النهج النبوي

لكن هذا النهج الحضاري الذي أرساه رسول ﷺ في إدارة المجتمع وممارسة الحكم والسلطة، تعرض لنكسات مؤسفة في وقت مبكر من تاريخ الأمة، بعد عهد الخلافة الراشدة، حيث شرع الحكام الذين جاءوا بعد الخلافة الراشدة من أمويين وعباسيين وغيرهم، سياسة القمع والعنف، وخالفوا نهج رسول ﷺ وخلفائه الراشدين في استيعاب الرأي الآخر، والرفق بالمعارضين والمخالفين.

ودخلت الأمة العربية والإسلامية نفق الاستبداد السياسي، وأخذتها دوامة العنف والعنف المضاد، إلى الوقت الحاضر مع تفاوت نسبي في الحالات بين الأزمنة والبلدان، فلا تكاد تجد عهداً يخلوا من الثورات والانتفاضات وحالات التمرد.

وبينما طورت الأمم الأخرى تجاربها السياسية الاجتماعية، وأصبحت تعيش حالة الاستقرار السياسي، والأنظمة الديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة، بقيت أغلب بلاد المسلمين تعاني الاضطرابات والأزمات، وخاصة البلدان التي ابتليت بالانقلابات العسكرية، والحكومات الحزبية، والتي مارست بحق شعوبها أسوأ ألوان القمع والاستبداد، تحت مختلف الشعارات البراقة.

إن الرأي العام العالمي ينظر الآن إلى بلاد المسلمين باعتبارها خارج إطار عالم الحريات وحقوق الإنسان، وباعتبارها مسرحاً للعنف، ومصدراً للإرهاب، واندفعت مختلف الجهات الدولية لتقديم مشاريعها ووصفاتها لعلاج الواقع السقيم للعرب والمسلمين، كمشروع أمريكا للشرق الأوسط الكبير، والمشروع الأوربي للإصلاح السياسي في الشرق الأوسط.

إن البديل الصحيح لرفض هذه المشاريع الأجنبية، التي لا تخلو من المطامع والأغراض المشبوهة، هو العودة إلى النهج النبوي، والتأسي بسيرته الكريمة في نبذ العنف، وإرساء السلم الاجتماعي، وحماية الحقوق والحريات.

وكما أمرنا رسول ﷺ بأن نصلي كما كان يصلي لقوله ﷺ:«**صلوا كما رأيتموني أصلي**» [١]. فإنه بالتأكيد يأمرنا أن نمارس الحكم والسلطة كما كان هو ﷺ يحكم ويدير، قال الله تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[٢]، وقال تعالى:﴿**مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾[٣].

إن التحديات الكبيرة التي تواجهها الأمة لا تسمح لنا بالاسترسال في دوامة الصراعات الداخلية، فلا بد من التوافق والتراضي، ونبذ العنف وسيلة لحل الخلافات، واعتماد الحوار والنهج الديمقراطي السليم.■

(١) المرجع السابق، حديث رقم ٦٣١.
(٢) سورة الأحزاب آية ٢١.
(٣) سورة الحشر آية ٧.

واجب الدفاع عن حقوق الإنسان

كلمة الجمعة بتاريخ ٢ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ

ـ إنه الوحيد الذي يستطيع أن يحصل لك على مالك..

وذهب إليه. كان خياطاً بسيطاً للغاية ولذلك أدهشه أنه قال له:

ـ اجلس هنا فسرعان، ما سآخذ لك بحقك..

ثم أمر أحد العمال أن يذهب إلى بيت الضابط، ويقول له أن يأتي إليه، ومعه نقود الرجل.

وبعد لحظات حضر الضابط ليسلم الرجل العجوز دينه الذي عليه ويعتذر إليه، كما يعتذر الطفل إلى أبيه..

وبعد أن ذهب الضابط قال العجوز للخياط:

ـ كيف أصبح لك سلطة على هؤلاء؟

فأجابه الخياط:

إن لي قصة. فأنا كما ترى خياط عادي، وليست لي أي صفة رسمية، وإنما حصلت على هذا المركز الذي شاهدت آثاره لقضية حدثت هنا.. فقد كنت جالساً على شرفة بيتي ذات ليلة، وإذا بي أرى أن أحد الضباط يمر وهو على فرسه من أمام بيتنا، ومن جانب آخر كانت امرأة جميلة تمر بهدوء ورزانة، وفجأة نزل الضابط من على ظهر جواده وأمسك بالمرأة، وأركبها بالقوة على الجواد، وانطلق بها نحو بيته، بينما كانت المرأة تصرخ مستغيثة:

لست زانية. أنا متزوجة. وزوجي أقسم عليّ بالطلاق إن بتّ ليلة واحدة خارج الدار.

ولكن لم يعتن لها.

فنزلت من الشرفة، وجمعت بعض الرجال، وذهبنا نتوسط في قضيتها، ولكنه أمر الشرطة فضربونا، وفرقونا.. فجئت إلى البيت، ولكني لم أذق النوم لحظة واحدة، كنت أفكر في المرأة، وكيف أن زوجها سيطلقها إذا باتت هذه الليلة في بيت ذلك الضابط..

وفيما أنا أفكر في ذلك، إذ جاءتني فكرة. أن أذهب إلى مئذنة الجامع وأؤذن للصبح، وبالطبع فإن الضابط سيظن أن الصبح قد حان، فيتركها لشأنها، فتذهب إلى الدار قبل أن يتم الليل، وبذلك تتخلص من الطلاق.

وهكذا ذهبت إلى الجامع، وصعدت المئذنة وبدأت أؤذن بصوت عال.. وما أن أنهيت فصول الآذان حتى رأيت الشرطة وقد أحدقوا بالجامع، وطلبوا مني أن أذهب معهم إلى قصر الخليفة (المعتضد) «فهو بانتظارك» كما قالوا لي..

فذهبت إليه، وكان ممتلئاً بالغضب فبادرني قائلاً:

ـ ما هذا بوقت آذان؟ أليس للبلد أحكام؟

فقلت له:

ـ طول الله بال الأمير. إن أحكام البلد قد ديست بالأقدام يوم ترك للكبير أن يفتك بأعراض النساء ولا من رادع.

ثم قصصت عليه ما جرى. فأمر بإحضار الضابط، والمرأة وبعد أن تأكد من أمرهما، أمر بقتل الضابط فقتل، ثم أفرج عن المرأة وأكرمها.. وطلب مني أن (أؤذن) كلما رأيت حادثة من هذا النوع.. وبما أن الخبر شاع بين الضباط والرؤساء فإنهم يهابونني ولهذا كانت لي عليهم السلطة..

نذكر هذه القصة التاريخية كمدخل للحديث عن المسؤولية العامة للمواطنين في الدفاع عن حقوق الإنسان.

فنحن في هذه القصة ـ بناءً على وقوعها ـ أمام مواطن عادي، رأى أمامه انتهاكاً لحقوق الإنسان، من قبل موظف كبير في الدولة، استغل موقعه للاعتداء على آخرين، فلم يسمح لهذا المواطن البسيط ضميره أن يسكت على هذه الظلامة، ولم يبرر لنفسه بمحدودية إمكاناته أمام قوة ونفوذ ذلك الضابط، بل اعتصر ذهنه للتفكير في وسيلة ممكنة للدفاع عن حق تلك المرأة الضعيفة وإنقاذها، وهداه الله تعالى بإخلاصه وصدق نيته إلى طريقة مبتكرة فتحت له السبيل للانتصار لأي مظلوم، والدفاع عن كل حق. كما أن المعتضد العباسي لم يكن حاكماً عادلاً ديمقراطياً، لكن ذلك لا يعني عدم إمكانية الحل لبعض المشاكل وإصلاح بعض المفاسد.

وهذا هو الدرس الهام الذي تقدمه لنا هذه القصة: فكل مواطن يجب أن يتحمل مسؤوليته تجاه حقوق الإنسان، لأنها أهم وأقدس قضية تستحق الاهتمام والكفاح. فحقوق الإنسان هي مقومات إنسانيته، وانتهاكها يعني الانتقاص من إنسانيته، والنيل من كرامته التي منحها الله تعالى له.

الدفاع عن الحقوق

غريزة حب الذات التي أودعها الله تعالى في أعماق نفس كل إنسان، تدفعه إلى الدفاع عن حقوقه وحماية مصالحه، فلا يحتاج الإنسان إلى أوامر إلهية تشريعية تحثه على ذلك، لأن وضعه التكويني بما لديه من غرائز وملكات، يبعثه على السعي لنيل حقوقه، والأوامر الدينية في هذا المجال هي من نوع الأوامر الإرشادية حسب اصطلاح علماء الأصول، كما أنها تساعد الإنسان على تخطي العقبات، وتحمل الصعاب التي تعترض طريق الدفاع عن الحقوق.

إن القرآن الكريم يشجّع من انتهك شيء من حقوقه أن يجهر بالاعتراض وإعلان ظلامته، بما يقتضي ذلك من نيل وتشويه لسمعة الجهة المعتدية، والإساءة إليها، يقول تعالى: ﴿**لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ**﴾[1].

(١) سورة النساء آية ١٤٨.

ومن سعى وتحرك للانتصار لحقوقه، والدفاع عن مصالحه المشروعة، فقد مارس حقه الطبيعي، ولا لوم عليه ولا مؤاخذة له. يقول تعالى:﴿**وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ**﴾(١).

وفي صحيح البخاري: أنّ رجلاً كان له دين على رسول ﷺ فأتاه يتقاضاه، وأغلظ في مطالبته وحديثه لرسول الله ﷺ، فهمّ به أصحاب رسول ﷺ ليردعوه عن سوء أدبه فقال ﷺ:«**دعوه فإن لصاحب الحق مقالا**».(٢)

ولا ينبغي للإنسان أن يتساهل ويفرّط في مصالحه فيقع عليه الحيف من الآخرين، فإنه بذلك لا ينال التقدير من الناس ولا الثواب من الله سبحانه. روى الحسين بن علي عن جده رسول ﷺ أنه قال:«**المغبون لا محمود ولا مأجور**».(٣)

وجاء في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام:«**إن الله فوّض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلا**».(٤)

والدفاع الواجب عن حقوق الإنسان لا يقف عند حدود المصالح المرتبطة بذات الشخص، بل يعني تحمّل المسؤولية تجاه أي حق إنساني ينتهك، حتى أن الله تعالى يحرّض المؤمنين على القتال من أجل إنقاذ المستضعفين من واقع الاضطهاد، يقول تعالى:﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ**﴾(٥)، قال القرطبي :«فأوجب اللَه تعالى الجهاد لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس، وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال، وذلك أوجب لكونها دون النفوس إذ هي أهون منها. قال مالك: واجب على الناس أن يفدوا الأسارى بجميع

(١) سورة الشورى آية ٤١.
(٢) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٢٤٠١.
(٣) المتقي الهندي: علي، كنز العمال، حديث رقم ٩٢٨٧.
(٤) الطوسي: محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام ج٦ ص١٧٩، الطبعة الثانية ١٩٦٠م، مطبعة النعمان، النجف.
(٥) سورة النساء آية ٧٥.

أموالهم. وهذا لا خلاف فيه. قوله تعالى:﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ عطف على اسم الله عز وجل، أي وفي سبيل المستضعفين فإن خلاص المستضعفين من سبيل الله»[١]

إن السكوت على انتهاك حقوق الآخرين مع القدرة على مساعدتهم يعتبر مشاركة في الظلم، وتكريساً لواقع فاسد، تشمل مضاعفاته وآثاره الجميع. لذلك يروي ابن عباس عن رسول الله ﷺ: أن الله تعالى يقول:«**وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم ينصره**».[٢]

وروي عنه ﷺ أن الله تعالى قال لنبيه داود عليه السلام:«**إنه ليس من عبد يعين مظلوماً أو يمشي معه في مظلمته إلا أثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام**».[٣]

وأوصى الإمام علي عليه السلام ولديه الحسنين عليهما السلام قائلاً:«**كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً**».[٤]

وعن سهل بن حنيف عن النبي ﷺ أنه قال:«**من أُذلَ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره أذله الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة**».[٥]

إن انتهاك حقوق أي فرد أو شريحة من شرائح المجتمع، يجعل مصداقية المجتمع كله على المحك، فسكوتهم على وقوع ذلك الانتهاك، وعدم تحملهم المسؤولية للوقوف أمامه، يهدد مستقبل كرامة المجتمع كله.

وهذا ما أشار إليه رسول ﷺ بما روي عنه:«**إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**».[٦]

---

(١) القرطبي: محمد بن أحمد، تفسير القرطبي ج٥ ص١٨٠، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
(٢) المتقي الهندي: علي، كنز العمال، حديث رقم ٧٦٤١.
(٣) المصدر السابق، حديث رقم ٤٣٤٦٧.
(٤) الشريف الرضي: نهج البلاغة، كتاب رقم ٤٧.
(٥) ابن حنبل: أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ١٦٠٨١.
(٦) المتقي الهندي: علي، كنز العمال، حديث رقم ٥٥٤٣.

وفي حديث آخر عنه ﷺ:«**كيف يقدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من قويها**».(١)

الإنسانية لا تتجزأ

حقوق الإنسان ثابتة للإنسان بما هو إنسان بغض النظر عن أي صفة ثانوية لاحقة، كالجنس أو العرق أو الدين أو النسب.

فقد منح الله تعالى التكريم لبني آدم جميعاً دون تقييد أو تخصيص قال تعالى:﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾(٢)، وقال تعالى:﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾(٣)، وتؤكد آيات القرآن الكريم على أن هدف الشرائع الإلهية إقامة العدل بين الناس وحماية حقوقهم، وليس بين فئة خاصة من الناس فقط، يقول تعالى:﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ**﴾(٤)، ويقول تعالى:﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾(٥).

وتبلغ الآيات التي تتحدث عن هذا العنوان (الناس) ٢٤١ آية في القرآن الكريم، كما تبلغ الآيات التي تتحدث عن عنوان (الإنسان) ٦٥ آية، والتي تتحدث بعنوان (بني آدم) سبع آيات.

وقد تناول الفقيه الشيخ المنتظري في بحوثه الفقهية الجديدة عمومية النصوص الدينية التي تتحدث عن حقوق الإنسان، لكل بني البشر، وعدم اختصاصها بالمؤمنين أو المسلمين فقط.

فهو يناقش مثلاً ما ذهب إليه أكثر الفقهاء، من أن: حرمة السب والغيبة، والتي تمثل انتهاكاً للحقوق المعنوية خاصة بالمؤمن فقط، فيقول:«إن ظلم الناس غير جائز بحكم

(١) المصدر السابق، حديث رقم ٥٥٤٧.
(٢) سورة الإسراء آية ٧٠.
(٣) سورة التين آية ٤.
(٤) سورة الحديد آية ٢٥.
(٥) سورة البقرة آية ٨٣.

العقل وبحكم الكتاب والسنة أيضاً، نحن نعتقد أن القرآن إذ يقول :﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ فهو يقصد أن بني آدم مكرمون لأنهم بنو آدم. فحينما يقال حقوق الإنسان، معنى ذلك أن للإنسان شرفه وكرامته بما هو إنسان حتى لو كان كافراً، لأن الإنسان محترم بذاته عند الله وهذا صريح معنى الآية، ويقول علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر:«**الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق**» وبالتالي فإن للإنسان حرمته بما هو إنسان. إن السب حرام وعلى المؤمن أشد حرمة، ربما اعتبروا روايات تحريم السب خاصة بالمؤمنين لأن ذلك هو القدر المتيقن. إن تشديد الروايات على المؤمن ربما كان لإثارة المشاعر، حيث يقال: إن هذا الشخص مؤمن ومقتضى ذلك أن بعض التهم لا تنطبق عليه.

وفي حرمة السبّ يمكن كذلك اعتماد الآية:﴿**وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ**﴾[1]، وليس فيها قيد المؤمن والمسلم. يقول الله إنه يكره اختلاق الألقاب السيئة. ويقول أيضاً:﴿**لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمَ**﴾ ولا يقيد ذلك باعتناقهم الإسلام، لأن الله أراد أساساً أن تكون العلاقات الاجتماعية سليمة ولا يخاطب الناس بعضهم بعضاً بالسوء، إنه حكم يشمل غير المسلمين أيضاً. السب مذموم عند الله في نفسه، سواء كان ضد مؤمن أو ضد غير المؤمن.

ثمة رواية عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام تقول:«**لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة**» **وليس في هذه الرواية أيضاً قيد المؤمن والمسلم، فهي مطلقة تشجب سب الإنسان على نحو العموم**».[2]

وتأكيداً لاحترام حقوق الإنسان بكل أفراده، جاءت النصوص الدينية التي تحذر من انتهاك حقوق المخالفين في الدين أي غير المسلمين، والذين كانوا يعيشون في كنف الدولة الإسلامية، وفي ذمتها ورعايتها.

---

(١) سورة الحجرات آية ١١.

(٢) باقي: عماد الدين، تقريرات درس آية الله منتظري، بعنوان حقوق الإنسان أم حقوق الإنسان المؤمن؟ النزعة الإنسانية والإسلام، قم ١٤٢٤هـ، **www.montazeri.ws**.

كما ورد في سنن أبي داود عن رسول الله ﷺ: «**ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة**».[١]

(١) السجستاني: أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، حديث رقم ٣٠٥٢.

ثقافة حقوق الإنسان وبرامج العمل

كلمة الجمعة بتاريخ ٩ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ

إن ثقافة الحقوق ليست جزءاً من نظام حياتنا ومعارفنا على مختلف الأصعدة والمستويات، حيث نمارس حياتنا الاجتماعية والسياسية بعفوية واسترسال وخضوع للواقع المعاش، دون التفات إلى ما قد ينطوي عليه هذا الواقع من انتهاكات لحقوق الإنسان وتجاهل لكرامته.

فليس هناك برنامج يتعرف من خلاله الطالب على حقوقه ضمن المؤسسة التعليمية.

وقد لا يطلع الموظف على ضوابط علاقته بدائرة عمله.

وفي الحياة العائلية يقترن الزوجان دون أن يتعرفا على نظام الحقوق في العلاقات الزوجية.

وعلى الصعيد السياسي لا يعرف الناس حقوقهم كمواطنين، وفي تعاملهم مع أي مؤسسة من مؤسسات الدولة، لا يطلعون على الأنظمة الخاصة بتلك المؤسسة.

لا شك أن هناك أنظمة وقوانين لمختلف تلك الجوانب والمؤسسات، بغض النظر عن درجة الكمال أو النقص فيها، لكن المشكلة تكمن في انعدام برامج التوعية والتثقيف في مجتمعاتنا بالقضايا الحقوقية.

أما في المجتمعات المتقدمة فإن الثقافة الحقوقية جزء أساس في مناهج التعليم،

وبرامج الإعلام، والتنشئة العائلية، ونظام العلاقات المهنية، وفي صيغة أي تعامل أو تعاقد بين طرفين.

فرجل المرور هناك ـ مثلاً ـ حين يسجّل عليك مخالفة مرورية، يخبرك بالخيارات التي يتيحها لك القانون للتعامل مع الموقف، وحينما تستوقف للاستجواب يطلعونك على حقوقك، وأن بإمكانك أن تطلب كذا وأن ترفض كذا.. ولا ينضم موظف إلى مؤسسة إلا بعد أن يقرأ نظام التعاقد معها ويوقع على البنود الواردة فيه.. وهكذا في مختلف المجالات.

إننا بحاجة إلى جهود كبيرة لنشر ثقافة الحقوق في مجتمعاتنا، بدراسة وثائق حقوق الإنسان، والاطلاع على الأنظمة والقوانين الوطنية، ومعرفة الضوابط والحدود في علاقاتنا الاجتماعية.

وفي ثقافتنا الإسلامية حث واهتمام كبير بحقوق الإنسان ونظام العلاقات الاجتماعية. إن أبواب الفقه الإسلامي زاخرة بالمبادئ والتقنينات للحقوق المتبادلة بين الناس. بين الحاكم ومواطنيه، وبين رب الأسرة وأفراد العائلة، وبين فئات المجتمع مع بعضهم.

لكن هذه الثقافة الإسلامية الحقوقية بحاجة إلى بلورة جديدة، وحسن صياغة وعرض، لتواكب لغة العصر، وتطور المعرفة الإنسانية على هذا الصعيد.

وفي كثير من الأحيان يكون الطرح الحقوقي في خطابنا الديني أحادياً، حيث يتم التركيز على حقوق طرف وتجاهل حقوق الطرف الآخر، بما يخدم نظام الهيمنة، تحت هاجس الخوف من التمرد، فمثلاً يجري التأكيد على حقوق المعلم دون تبيين حقوق الطالب، والتأكيد على حقوق الوالدين مع إغفال حقوق الولد، وتضخيم حقوق الزوج مع إهمال حقوق الزوجة، والتركيز على حقوق الحاكم على حساب حقوق المحكومين..

وهو أسلوب خاطئ لا يخدم حقوق الإنسان، بل يشجع ويغطي على انتهاكها. بينما نجد في تراثنا الإسلامي أن الإمام علي بن أبي طالب حينما تولى الخلافة، كان

في أغلب خطبه وكتبه للولاة على الأمصار، يتحدث بتوازن عن الحقوق المتبادلة بين الحاكم والشعب.

فقد جاء في أوائل خطبه:«أيها الناس إن لي عليكم حقاً، ولكم عليّ حق: فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم».[١]

وحينما أعلن الخوارج معارضتهم له، بادر هو إلى الإقرار بحقوق المعارضة، وتحدث عنها أمام الجمهور. جاء في تاريخ الطبري أنه:«قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجل من جانب المسجد: لا حكم إلا لله، فقام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدة رجال يحكمّون. فقال علي: الله أكبر، كلمة حق يلتمس بها باطل! أما أن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا».[٢]هكذا يعلن الإمام ابتداءً حقوقهم وضمانته لها، فمن الناحية الأمنية لن يتعرض لهم بسوء ما لم يمارسوا العنف، ومن الناحية الاقتصادية لن ينقطع عطاؤهم من بيت المال، وعلى الصعيد الاجتماعي لن يحاصروا ولن يقاطعوا، بل يحضرون جماعة المسلمين.

وفي ذات السياق كتب الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام رسالة الحقوق تحدث فيها عن خمسين حقاً، مراعياً فيها التقابل والتوازن، حيث عرض لحق الحاكم وحقوق الرعية، وحق الوالدين وحق الولد، وحق المدعي وحق المدعى عليه، وحق المعلم وحق المتعلمين، وحق المسلمين وحق غير المسلمين.. وهي من روائع تراثنا الإسلامي.

العمل من أجل حقوق الإنسان

التقدم الذي أحرزته المجتمعات الأخرى في مجالات حقوق الإنسان، لم يحدث

(١) الشريف الرضي: علي بن الحسين، نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٤.
(٢) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج٤ ص٥٣، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

بين عشية وضحاها، ولم يتحقق دفعة واحدة، ولم يأت بسهولة ويسر، لقد رزحت تلك الشعوب طويلاً تحت وطأة استبداد الكنيسة الديني، وظلم الإقطاع السياسي، فانبعثت أفكار التحرر والإصلاح من رحم المعاناة الشديدة، واحتاجت مدى من الزمن، وركاماً من الجهود والتضحيات، لتخضر بعدها غصون وثائق حقوق الإنسان، ولتؤتي ثمارها يانعة في ربوع تلك المجتمعات.

وحين تتطلع مجتمعاتنا إلى اللحاق بذلك الركب المتقدم، فإنها بحاجة إلى جهد مكثّف، وعمل دؤوب، من أجل تحقيق ذلك التطلع، وفي تراثنا الإسلامي رصيد ضخم من القيم والمفاهيم والتعاليم، التي يمكننا الانطلاق منها بقوة واندفاع، في الوقت الذي نستفيد فيه من تجارب الشعوب والمجتمعات الأخرى، ونتلافى النواقص والثغرات التي نتجت من طبيعة أوضاعها وخصوصياتها.

إننا بحاجة إلى العمل من أجل حقوق الإنسان على ثلاثة أصعدة:

القوانين والتشريعات

الأول: على صعيد القوانين والتشريعات: بأن تكون الأنظمة والسياسات المعتمدة منسجمة مع مواثيق حقوق الإنسان الإسلامية والعالمية، وأن يعاد النظر في أي واقع تنظيمي ينتهك شيئاً من تلك الحقوق، أو يشكل ثغرة لانتهاكها.

وهنا يأتي دور المجالس التشريعية، كمجالس الشورى، ومجالس النواب، والتي ينبغي أن تتعامل مع موضوع حقوق الإنسان كقضية أساس، وهدف أول، يلقي بظلاله على جميع التقنينات والتشريعات.

والمفكرون ودعاة الإصلاح في الأمة يجب أن يركزوا على أولوية حقوق الإنسان قبل أي شيء آخر.

والمنظمات والجمعيات الحقوقية عليها أن تهتم بملاحظة وملاحقة الأنظمة التقنينية والسياسات المتبعة، ومدى توافقها مع حقوق الإنسان، بدل أن تستغرق في قضايا ومسائل جزئية، هي انعكاس ونتائج لذلك الواقع التقنيني السياسي.

الأداء التنفيذي للسلطات

الثاني: على مستوى الأداء التنفيذي لأجهزة الدولة وموظفيها، لأن نسبة كبرى من انتهاكات حقوق الإنسان، تحدث نتيجة ممارسات خاطئة من بعض المسؤولين والموظفين في مؤسسات الدولة، ممن لا يراعون شرف الوظيفة، ويسيئون استغلال مواقعهم ومناصبهم، وقد يستفيدون من بعض الثغرات في القوانين والأنظمة، وهنا لا بد من تفعيل مؤسسات الرقابة والتدقيق، وديوان المظالم، ووسائل الإعلام، لتشكل قوة ردع وضغط لحماية حقوق المواطنين.

إن شعور أي جهاز من أجهزة الدولة، أو أي موظف فيها، بالسلطة المطلقة، والحصانة التامة، هو الذي يشجع على انتهاك حقوق الناس، والعدوان على مصالحهم.

ولسلبية المواطنين دور كبير في تكريس هذه الحالة، حين يسكتون عليها ويخضعون لها، بينما يجب عليهم أن يكشفوا هذه الحالات أمام ولاة الأمر، ويحملونهم مسؤولية معالجتها، فقد لا يكون ولي الأمر مطلعاً على تلك الممارسات الخاطئة، كما يفترض فيه أن لا يرضى بها.

إن شياع بعض الأفكار السلبية تمنع سعي الكثيرين في الدفاع عن حقوقهم، وعرض ظلاماتهم، حيث يتصورون عدم جدوى المطالبة والتشكي، وأن الدولة تعرف عن كل ما يجري، وأن هذا الموظف ظهره قوي، وأن التظلّم قد يزيد المشكلة تعقيداً، ويسبب ضرراً جديدا.

في مقابل هذه الأفكار السلبية، يجب نشر ثقافة المسؤولية تجاه الوطن والدولة وحقوق الإنسان، فالمواطن الذي يعترض على الخطأ، ويرفع ظلامته، إنما يخدم مصلحة الدولة والوطن، ذلك أن سوء تصرف أي موظف لا يخدم الدولة بل يضرها ويسيء إليها.

إن البعض يكتفي باجترار الغبن، ويحترف نقد أجهزة الدولة في المجالس،

دون أن يقوم بسعي إيجابي لمعالجة الخطأ، وتلك هي صفة السلبيين المتقاعسين عن مسؤولياتهم الدينية والوطنية.

في المجال الاجتماعي

الثالث: فيما يرتبط بالعلاقات الاجتماعية، فهناك خروق وانتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان على المستوى الاجتماعي، في علاقات الناس مع بعضهم، ومن مظاهرها حالات العنف الأسري، في التعامل مع الأولاد والزوجات، حيث يمارس بعض الآباء سلطة وحشية على أبنائه، كما يتعدى بعض الأزواج على الحقوق الإنسانية والشرعية لزوجته، وكذا الحال في التعاطي مع الخدم والموظفين.

وفي العلاقة بين الفئات الاجتماعية قد تحدث تجاوزات واعتداءات، مما يتطلب بذل جهود لحماية حقوق الإنسان على هذا الصعيد، بنشر الوعي الاجتماعي والثقافة الحقوقية، والتأكيد على مراعاة مصالح الآخرين واحترام مشاعرهم وخصوصياتهم. وتشكيل لجان ومؤسسات اجتماعية لإصلاح ذات البين، ومعالجة المشاكل والتجاوزات.■

الأمة وتحدي الإصلاح الداخلي (1)

كلمة الجمعة بتاريخ ١٦ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ

أما إذا كان قاصراً، أو فاقداً للعقل أو الرشد، فإن من المتسالم عليه بين العقلاء: أن يوكل أمر إدارته إلى غيره، كأبيه أو جده لأبيه، أو وصيهما في الولاية عليه، أو إلى السلطة الشرعية.. على اختلاف في التفاصيل ضمن آراء الفقهاء، وفيما بين القوانين الوضعية.

فالتدخل في شؤون القاصر والفاقد لأهلية التعاقد والتصرف المالي أمر مشروع ومطلوب، لحفظ مصلحته ورعاية مستقبله أولاً، ولحماية المصلحة العامة ثانياً.

فإنه لو ترك وشأنه لأضاع مصالحه، وأضر بها، بسبب نقصه وقصوره، وباعتباره عضواً في المجتمع، وإمكانياته وثروته جزء من رصيد المجتمع، فإن سوء تصرفاته تنعكس سلباً على المصلحة العامة.

وهذا ما أشار إليه بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى:﴿**وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً**﴾[1] قال السيد الطباطبائي في الميزان:«السفه خفة العقل.. والمراد بقوله ﴿**أموالكم**﴾ أموال اليتامى، وإنما أضيفت إلى الأولياء المخاطبين بعناية أن مجموع المال والثروة الموجودة في الدنيا لمجموع أهلها.. فيجب أن يتحقق الناس بهذه الحقيقة ويعلموا أنهم مجتمع واحد والمال كله لمجتمعهم، وعلى كل واحد أن يكلأه ويتحفظ به، ولا يدعه يضيع بتبذير نفوس سفيهة، وتدبير من لا يحسن

(١) سورة النساء آية ٥.

التدبير كالصغير والمجنون...».[١]

فالتدخل في شؤون القاصرين والفاقدين للرشد أمر مبرر مقبول، بينما التدخل في شؤون العقلاء الراشدين مدان مرفوض.

المجتمع القاصر

هذه القاعدة كما تنطبق على مستوى الأفراد، فإنها تنطبق بشكل أو بآخر على مستوى الشعوب والمجتمعات، فإن المجتمع الذي يعيش وضعاً سوياً، ضمن الأعراف والقوانين الدولية، لا أحد يجيز لنفسه التدخل في شؤونه، بل إن من المتفق عليه في النظام الدولي: إدانة التدخل في شؤون أي بلد آخر.

أما إذا خضع مجتمع ما لحالة غير سوية في إدارته السياسية والاجتماعية، بأن سيطر عليه واقع من الظلم والفساد الذي لا يحتمل، فإن ذلك يعطي المبررات والدوافع للجهات الأخرى، من مؤسسات دولية وقوى عالمية، لكي تتدخل في أوضاعه وشؤونه، بغض النظر عن نواياها ومقاصدها.

فقد يبرر التدخل بالدوافع الإنسانية، كمساعدة ذلك المجتمع على التحرر والخلاص من واقع الظلم والفساد. كما تحدث أحد قادة الفتح الإسلامي لفارس، وهو ربعي بن عامر، حينما سأله رستم القائد العسكري الفارسي: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.[٢]

وكما تحدثت قرارات الأمم المتحدة الصادرة في تاريخها حول الأوضاع الداخلية لبعض الشعوب.

وقد يبرر التدخل بحفظ المصالح الدولية وحماية الأمن والاستقرار العالمي،

---

(١) الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٤ ص١٧٦.
(٢) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج٣ ص٣٤، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

على أساس أن الوضع الشاذ في أي بلد من العالم، ينتج آثاراً سلبية على المستوى الدولي، ويضر بمصالح البلدان الأخرى.

مشاريع دولية لإصلاح الأمة

ومن المؤسف جداً أن تكون الأوضاع الداخلية لشعوب الأمة الإسلامية، هي الساحة التي تتبارى مختلف القوى العالمية لإبداء الرأي حولها، وطرح المشاريع لتغيير واقعها، وصياغة مستقبلها، فهناك المشروع الأمريكي للشرق الأوسط الكبير، وهناك مقترحات الاتحاد الأوربي، كما ناقشت قمة قادة دول مجموعة الثماني الصناعية الكبرى، التي عقدت في (سي آيلاند بجورجيا) في التاسع من شهر يونيو ٢٠٠٤م، خطة (إصلاح الشرق الأوسط الأوسع وشمال أفريقيا).

ويجري الحديث عن إصلاح الشرق الأوسط بعد تدخلين عسكريين دوليين في بلدين إسلاميين أطاحا بحكومتهما، هما أفغانستان والعراق، حيث قادت الولايات المتحدة الأمريكية تحالفاً دولياً لإسقاط حكم طالبان في أفغانستان سنة ٢٠٠١م ثم قادت تحالفاً آخر وأطاحت بنظام صدام في العراق سنة ٢٠٠٣م.

فلماذا يدور الحديث عند الآخرين عن إصلاح أوضاع البلدان العربية والإسلامية؟

إن أحداً في العالم لا يتحدث عن إصلاح أوضاع اليابان أو الهند أو الدول الأوربية أو غيرها، بينما تنعقد المؤتمرات وتطرح المشاريع لإصلاح أوضاع البلاد الإسلامية. فهل يعني ذلك أن العالم يعتبرنا في حالة قصور ونقصان في الأهلية للاستقلال بشؤوننا، مما يستدعي رعاية الآخرين وتدخلهم؟

ولا يبدو أن هناك اعتراضاً من قادة الدول الإسلامية على الحاجة إلى الإصلاح فيها، فهم يعترفون بذلك، ويتناولونه في خطابهم السياسي.

وقد قدم ولي العهد السعودي مشروعاً لمؤتمر القمة العربية في شرم الشيخ

مطلع عام ٢٠٠٣م يؤكد على ضرورة الإصلاح، وتطوير المشاركة السياسية في العالم العربي، لكن تم تأجيل النظر في المشروع.

واقع التخلف

إن سوء الأوضاع الداخلية للأمة قد تفاقم إلى حد لا يقبل الإنكار والتبرير، كما تجاوزت آثاره ومضاعفاته حدود الأمة إلى المستوى الدولي، عبر ظاهرة الإرهاب العابر للقارات والمنتسب للإسلام والمسلمين، وعبر التجاوزات والانتهاكات لحقوق الإنسان، وتدني مستوى المشاركة الشعبية والحريات العامة، والتخلف العلمي والاقتصادي.

وقد رسم تقرير التنمية الإنسانية العربية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعامي ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣م صورة موضوعية عن واقع التخلف الذي يعيشه العالم العربي، وقد وضع التقرير فريقاً من المفكرين العرب البارزين، ورغم أن هناك جدلاً حول موضوعية التقرير من قبل بعض الجهات، واتهامه بالمبالغة في رسم صورة قاتمة، إلا أن ما ورد في التقرير يبدو أقل مما يشعر به المحتكون بمعاناة الواقع المعاش.

فعلى صعيد الحالة المعرفية أشار تقرير ٢٠٠٣م إلى انخفاض عدد الصحف في البلدان العربية إلى أقل من ٥٣ لكل ١٠٠٠ شخص مقارنة مع ٢٨٥ لكل ١٠٠٠ شخص في الدول المتقدمة. وأن الصحافة في أغلب البلدان العربية محكومة ببيئة تتسم بالتقييد الشديد لحرية الصحافة والتعبير عن الرأي.

أما عدد خطوط الهاتف في الدول العربية فلا تصل إلى خمس نظيرها في الدول المتقدمة. وهناك أقل من ١٨ حاسوب لكل ١٠٠٠ شخص في المنطقة، مقارنة مع المتوسط العالمي وهو ٧٨,٣ حاسوب لكل ١٠٠٠ شخص. ويقتصر عدد مستخدمي الإنترنت على ١,٦٪ فقط من سكان الوطن العربي.

ويبلغ عدد الأميين من البالغين العرب حوالي ٦٥ مليونا، ثلثاهما من النساء، ومعدلات الأمية أعلى كثيراً مما هي عليه في بلدان أفقر كثيراً من البلدان العربية.

ويوجد حالياً نحو ١٠ ملايين طفل تتراوح أعمارهم من ست إلى خمس عشرة سنة غير ملتحقين بالمدارس.

ولا يزيد عدد العلماء والمهندسين العاملين بالبحث والتطوير في البلدان العربية على ٣٧١ لكل مليون من السكان، وهو أقل بكثير من المعدل العالمي البالغ ٩٧٩ لكل مليون من السكان. وبينما تتراوح نسبة الإنفاق على البحث والتطوير في البلدان المتقدمة بين ٢,٥٪ إلى ٥٪ من الناتج القومي فإنها لا تتجاوز ٠,٢٪ في البلدان العربية.

يعد تمويل البحث في العالم العربي من أكثر المستويات انخفاضاً في العالم فقد بلغ معدل الإنفاق العلمي نسبة إلى الناتج المحلي الإجمالي ٠,١٤٪ فقط في العالم العربي عام ١٩٩٦م مقابل ٢,٥٣٪ عام ١٩٩٤م لإسرائيل و ٢,٩٪ لليابان و١,٦٢٪ لكوبا.

ورغم أن العرب يشكلون ٥٪ من سكان العالم إلا أن إنتاج الكتب في العالم العربي لم يتجاوز ١,١٪ من الإنتاج العالمي.

وعلى الرغم من وجود ٢٨٤ مليون عربي في ٢٢ دولة يتراوح العدد المعتاد لنشر أي رواية أو مجموعة قصص قصيرة ما بين ١٠٠٠ و ٣٠٠٠ نسخة ويعتبر الكتاب الذي يوزع منه ٥٠٠٠ نسخة ناجحاً نجاحاً باهرا.

ويعامل الكتاب العربي في كثير من الأحيان كأنه سلعة محظورة ويخضع لإجراءات رقابية وبيروقراطية تعرقل حركة النشر وتفرض تلك الإجراءات على المؤلف والناشر مراعاة أمزجة أو تعليمات ٢٢ رقيباً عربيا!!

أما الكتب المترجمة فأرقامها هزيلة للغاية، فالعالم العربي يترجم سنوياً ما يقرب من ٣٣٠ كتاباً، وهو خمس ما تترجمه اليونان، والإجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن يبلغ ١٠٠,٠٠٠ كتاب، وهو ما يوازي تقريبا ما تترجمه أسبانيا في عام واحد.

وتحدث التقرير عن تنامي ظاهرة هجرة الأدمغة العربية مما يعني خسارة كلفة

إعدادها، كما تمثل فرصاً مضاعة من الإسهام في التنمية. فمن أصل ٣٠٠,٠٠٠ من خريجي المرحلة الجامعية الأولى من الجامعات العربية في العام الدراسي ١٩٩٥/ ١٩٩٦م يقدر أن نحو ٢٥٪ هاجروا إلى أمريكا الشمالية ودول السوق الأوربية، وبين عامي ١٩٩٨ و ٢٠٠٠م غادر أكثر من ١٥٠٠٠ طبيب عربي إلى الخارج. ويقدر أنه بحلول العام ١٩٧٦ كان قد غادر البلدان العربية نحو ٢٣٪ من المهندسين و٥٠٪ من الأطباء و١٥٪ من حملة الشهادات الجامعية الأولى.

وعلى المستوى السياسي، ليس يخفى على أحد أن جملة البلدان العربية، قد خضعت منذ عهود الاستقلال، إلى أنظمة سياسية لم تستطع أن تتخلى عن نزعات الاستبداد المنحدرة من عصور التاريخ القديمة والمتأخرة، فظل هامش الحريات محدوداً في مواطن، أو غائباً تماماً في مواطن أخرى.

وساهم القمع والتهميش في قتل الرغبة في الانجاز والسعادة والانتماء، ولذا نلاحظ سيادة الشعور باللامبالاة والاكتئاب السياسي، ومن ثم ابتعاد المواطنين عن المساهمة في إحداث التغيير المنشود في الوطن.

وعلى صعيد الحريات المدنية السياسية يشير التقرير إلى أن الاتجاه في عموم البلدان العربية كان هابطاً إلى أدنى مستوى من التمتع بالحريات بين مناطق العالم المعتبرة. كما تحتل المنطقة العربية أدنى مستويات التمثيل والمساءلة كأهم أركان الحكم الصالح بين مناطق العالم.

إن أكثر من بلد عربي يخضع لقانون الطوارئ منذ سنوات ويقدم فيه المدنيون للمحاكم العسكرية ومحاكم أمن الدولة (الاستثنائية).

ويمنع قيام منظمات المجتمع المدني في أغلب البلدان الإسلامية.

حال الاقتصاد

على الصعيد الاقتصادي وخلافاً للوهم الشائع بغنى العرب فإن حجم الناتج الاقتصادي العربي لاثنين وعشرين دولة عربية في نهاية القرن العشرين ٢٠٠٠م (٦٠٤

مليار دولار) يتعدى بالكاد ناتج دولة أوربية واحدة مثل أسبانيا (٥٥٩ مليار دولار) ولا يصل إلى ناتج دولة أخرى مثل إيطاليا (١٠٧٤ مليار دولار).

وهناك انخفاض واضح في مستوى الإنتاجية في المجتمعات العربية، لقد كان الناتج العربي للفرد يصل إلى نصف نظيره في شرق آسيا عام ١٩٧٠م وبحلول عام ٢٠٠١م أصبح الناتج العربي للفرد يقل عن سبع نظيره في شرق آسيا للتحسن الكبير في أداء تلك الدول اقتصادياً في مقابل تراجعه عربياً.

وتشير بيانات البنك الدولي ١٩٩٨م إلى أن الناتج القومي الإجمالي للفرد في قوة العمل يقل في مجمل البلدان العربية عن نصف مستواه في بلدين ناهضين في العالم الثالث، واحد في آسيا (كوريا الجنوبية) والثاني في أمريكا اللاتينية (الأرجنتين).

فالإنتاجية في الدول العربية التسع الأغنى بالموارد النفطية، تتعدى بالكاد نصف الناتج للعامل في بلدي المقارنة (كوريا الجنوبية ـ الأرجنتين) بينما ينخفض مؤشر الإنتاجية في البلدان العربية متوسطة الثراء النفطي (تونس ـ سوريا ـ مصر..) إلى حوالي سدس بلدي المقارنة، وفي الدول العربية الأفقر نفطياً مثل (الأردن والسودان واليمن ولبنان) إلى أقل من العُشر. ويعني ذلك أن استبعاد تأثير ريع النفط سيقلل من الإنتاجية في الاقتصاديات العربية إلى مدى أبعد مما تظهره المقارنة.

وبينما فاق معدل نمو الإنتاجية ١٥٪ في الصين و٨٪ في كوريا، و٦٪ في الهند، لم يتعد معدل نمو الإنتاجية في أفضل البلدان العربية أداءً ٤٪ حيث وصل إلى ٣ـ٤٪ في عمان ومصر، ٢ـ٣٪ في تونس وموريتانيا والمغرب، ١ـ٢٪ في الأردن والجزائر، وأقل من ١٪ في الإمارات والسعودية.

وينقل التقرير عن (مؤسسة الشفافية الدولية) لعام ٢٠٠٢م أن مؤشر الانطباع عن الفساد في معاملات الأعمال في العالم العربي يرتفع إلى الحد الأكثر فساداً.

ويبلغ نسبة البطالة في البلدان العربية ١٥٪ وهي من أعلى النسب في العالم، والبطالة مأساة للتنمية الإنسانية وعبء على التقدم الاقتصادي.

وتتراوح تقديرات نسبة الفقر في مصر مثلاً في منتصف التسعينيات حوالي ٣٠ ـ

٤٠٪ وفي الأردن ٢١٪ وفي اليمن ٣٠٪ وفي جيبوتي ٤٥٪ وفي السودان ٨٥٪.

إن أكثر من نصف النساء العربيات لا يزلن أميّات، وإن معدل وفيات الأمهات أثناء فترة الولادة في المنطقة هو ضعف معدلها في أمريكا اللاتينية والكاريبي، وأربعة أضعاف معدلها في شرق آسيا.

كما تعاني النساء في بعض البلدان العربية من عدم المساواة في المواطنة، وفي الحقوق القانونية، التي غالباً ما تتجلى في حرمانها من حقها في التصويت والانتخاب، ولا تزال الاستفادة من قدرات المرأة العربية من خلال المشاركة السياسية والاقتصادية هي الأقل في العالم.

إن البلدان تصنف على أساس قاعدة (بوردا) إلى بلدان تتمتع بمستوى رفاه إنساني مرتفع، وبلدان تتمتع بمستوى رفاه إنساني متوسط، وبلدان ذات مستوى رفاه إنساني منخفض، واستناداً إلى هذا التصنيف لا يتمتع أي بلد عربي بمستوى رفاه إنساني مرتفع، وتتمتع سبعة بلدان عربية يشكل سكانها ٨,٩٪ فقط من العالم العربي بمستوى رفاه إنساني متوسط، وأما البلدان العربية التي يشكل سكانها ٩١,١٪ من العالم العربي فإنهم يعانون من تنمية بشرية متدنية ينخفض فيها مستوى الرفاه.

الأمة وتحدي الإصلاح الداخلي (2)

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٣ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ

ومن تداعيات هذا الواقع تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين واللاجئين نحو الدول المتقدمة، وحسب ما أفاده الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي عبدالواحد بلقريز في الاجتماع الأخير للمنظمة في اسطنبول، فإن ٧٠٪ من اللاجئين في العالم من المسلمين.[١]

كما أن سيطرة حالة الفقر والركود الاقتصادي على هذه المساحة البشرية الواسعة لا يخدم تقدم الاقتصاد العالمي.

إن هذا الواقع لم يعد مقبولاً على المستوى الدولي، وهو مخالف لحركة البشرية نحو التطور والتقدم، فلابد من حصول تغيير وإصلاح من داخل الأمة لواقعها السياسي والاجتماعي، وإلا فإن المجتمع الدولي لن يسكت على هذا الواقع طويلا.

حيث يشير تقرير التنمية العربية ٢٠٠٢م إلى أن الاتجاه في عموم البلدان العربية على صعيد الحريات المدنية السياسية كان هابطاً إلى أدنى مستوى من التمتع بالحريات بين مناطق العالم المعتبرة. كما تحتل المنطقة العربية أدنى مستويات التمثيل والمساءلة كأهم أركان الحكم الصالح بين مناطق العالم.

إن أكثر من بلد عربي يخضع لقانون الطوارئ منذ سنوات ويقدم فيه المدنيون للمحاكم العسكرية ومحاكم أمن الدولة (الاستثنائية).

---

(١) الشرق الأوسط: جريدة يومية تصدر من لندن، ١٥ / ٦ / ٢٠٠٤م.

كما يمنع قيام منظمات المجتمع المدني في أغلب البلدان الإسلامية.

وليس يخفى على أحد أن جملة البلدان العربية، قد خضعت منذ عهود الاستقلال، إلى أنظمة سياسية لم تستطع أن تتخلى عن نزعات الاستبداد المنحدرة من عصور التاريخ القديمة والمتأخرة، فظل هامش الحريات محدوداً في مواطن، أو غائباً تماماً في مواطن أخرى.

وساهم القمع والتهميش في قتل الرغبة في الانجاز والسعادة والانتماء، ولذا نلاحظ سيادة الشعور باللامبالاة والاكتئاب السياسي، ومن ثم ابتعاد المواطنين عن المساهمة في إحداث التغيير المنشود في الوطن.

إن أكثر من نصف النساء العربيات لا يزلن أميّات، وإن معدل وفيات الأمهات أثناء فترة الولادة في المنطقة هو ضعف معدلها في أمريكا اللاتينية والكاريبي، وأربعة أضعاف معدلها في شرق آسيا.

كما تعاني النساء في بعض البلدان العربية من عدم المساواة في المواطنة، وفي الحقوق القانونية، التي غالباً ما تتجلى في حرمانها من حقها في التصويت والانتخاب، ولا تزال الاستفادة من قدرات المرأة العربية من خلال المشاركة السياسية والاقتصادية هي الأقل في العالم.

تخلص البشرية من الرق

لقد تجاوزت البشرية ظاهرة الرق والاستعباد، التي كانت منتشرة في مختلف أنحاء العالم، ومن بدايات التاريخ البشري، بسبب الحروب والصراعات، وحوادث الخطف ووجود تشريعات قديمة تفرضه عقوبة على بعض الجرائم، ثم جاءت أعمال القرصنة الأوربية منذ أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، على شكل غارات وحملات خطف منظمة لأبناء القارة الأفريقية، ونقلهم إلى أمريكا الشمالية ومناطق أوربا لبيعهم كعبيد أرقاء.

إلى أن شهد أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بدايات التوجه لإلغاء الرق وتحرير العبيد، حيث أصدر مجلس الثورة الفرنسي سنة ١٧٩١م قراراً بإلغاء الرق

في جميع المستعمرات الفرنسية، ومساواة جميع من فيها في الحقوق والواجبات مع تمتعهم بالجنسية الفرنسية.

لكن حين تولى نابليون الحكم، لاحظ انخفاض صادرات المستعمرات الفرنسية التي تعتمد على اليد العاملة الزنجية، فأصدر قراراً عام ١٨٠٢م بالعودة إلى استرقاق الزنوج، فثار الزنوج في المستعمرات وقاوموا مدة ثلاث سنوات فقضى نابليون على ثورتهم وأعادهم إلى الرق.

وفي عام ١٨٨٤م صدر قرار في فرنسا بإلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية تماشياً مع قرارات مشابهة اتخذتها بريطانية والبرتغال، وهولندا والدنمارك.

وأصدر أبراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٦٣م إعلاناً بتحرير الرقيق، وكان ذلك من أسباب اغتياله عام ١٨٦٥م.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وقعت الدول المشتركة في عصبة الأمم عام ١٩٢٦م اتفاقية تقضي بملاحقة تجارة الرق والمعاقبة عليها، والعمل على إلغاء الرقيق بجميع صوره، وفي عام ١٩٤٨م أصدرت هيئة الأمم المتحدة إعلاناً عالمياً تضمن حظر الرق وتجارة الرقيق[1]، وهكذا انتهى الرق وتخلصت البشرية من مآسيه.

كفاح البشرية ضد الاستعمار

ثم تجاوزت البشرية ظاهرة الاستعمار، والتي عانت منها أكثر شعوب العالم منذ القرن الثامن عشر الميلادي، حيث زحفت موجات بشرية من الأوربيين لتستوطن بلداناً كثيرة، أو تستولي عليها عسكرياً، لتتحكم في أمورها وتسيطر على مقدراتها.

وبعد أن تحركت الشعوب رافضة ثائرة، وتصاعدت مقاومتها للاستعمار، تجاوبت معها الجهود الدولية العالمية، وأصدرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٦٠م قراراً تضمن مبدأ منح شعوب العالم غير المستقلة حق تقرير المصير. وأيدت هذا الاتجاه مؤتمرات دول عدم الانحياز. وفي نوفمبر ١٩٦١م

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج١١ ص٢٥٨، الطبعة الثانية.

أنشأت الأمم المتحدة لجنة خاصة لتصفية الاستعمار، ووافقت على إنشاء هذه اللجنة جميع الدول الأعضاء باستثناء بريطانيا والبرتغال وجنوب أفريقيا.[١]

وأخيراً تجاوزت البشرية ظاهرة الاستعمار وانسحبت بريطانيا من جميع مستعمراتها، وانتهى الحكم العنصري في جنوب أفريقيا ولم يبق إلا الاحتلال الصهيوني، وتعويقه لإرادة الشعب الفلسطيني في الحرية والاستقلال.

معركة البشرية ضد الاستبداد

وتجد البشرية نفسها الآن في معركة التخلص من الاستبداد والذي يعني إلغاء دور الناس ومشاركتهم في القرار السياسي، وفي تسيير شؤون حياتهم، لحساب فرد أو فئة تمسك بأزمة السلطة والحكم.

لقد تجاوزت أغلب شعوب العالم هذه الحالة وأصبحت تتمتع بميزات النظام الديمقراطي الذي يتيح لهم المشاركة السياسية، وحرية التعبير والرأي، ويفتح مجال التداول السلمي للسلطة، لكن المجتمعات الإسلامية في معظمها محرومة من هذه الفرص، وتعيش معاناة احتكار القرار، وما يستتبعه من تهميش لإرادة الناس، واستئثار بمقدراتهم.

وذلك سبب رئيس في تكريس واقع التخلف، وإفراز حالات العنف، وتفشي مظاهر الفقر والفساد.

وكما تجاوزت البشرية ظاهرة الرق، وظاهرة الاستعمار، بعد كفاح ونضال عالمي، فإنها ستتجاوز ظاهرة الاستبداد في هذه الحقبة من الزمن.

إن رقعة الديمقراطية تتسع عالمياً يوماً بعد آخر، وقد أصبحت الخيار الذي تتطلع إليه جميع الشعوب، وإذا كانت مصالح بعض الدول الكبرى ذات يوم تقتضي دعم أنظمة الاستبداد، فقد تغيّرت المعادلة الآن بفضل تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وأصبح الاستبداد عائقاً أمام حركة الاقتصاد، وقطار العولمة الشاملة.

---

(١) الكيالي: عبدالوهاب، موسوعة السياسة، ج١ ص١٧٤، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

بالتأكيد فإن بعض القوى الدولية والإقليمية ستبقى مدافعة عن الاستبداد حتى آخر لحظة، كما كان هناك من أصر على التمسك بنظام الرق، واستمرار الهيمنة الاستعمارية. لكن ذلك اتجاهاً مخالفاً لحركة التاريخ، وتطور المجتمعات البشرية لا يمكن استمراره ولا صموده.

والحديث هنا عن الديمقراطية باعتبارها آلية لتحقيق المشاركة الشعبية، والتداول السلمي للسلطة، وتوفير حرية التعبير عن الرأي، ولا اعتراض للإسلام على هذه المضامين، كما لا يحظر أي آلية مناسبة لتحقيقها، ولسنا ملزمين بحرفية تجارب الشعوب الأخرى، بل يمكننا الاستفادة من المناهج والأساليب بما لا يتعارض مع ثوابت الدين.

ومن المؤسف أن تتركز حالة الممانعة للمسار الديمقراطي في المنطقة العربية والإسلامية، وأن تتعنون ممارسات الإرهاب والعنف باسم الأمة والإسلام.

مما فسح المجال للحديث عن صدام الحضارات، وإظهار الإسلام كعائق لتقدم أتباعه ولاستقرار العالم، وأصبح ذلك مبرراً لكي تبحث المؤسسات الدولية والقوى العالمية واقع هذه المنطقة، وتطرح الحلول والمشاريع لتغييره وإصلاحه.

ومن أخطر القضايا المثارة في هذا السياق هو التمترس بالإسلام لتبرير واقع الاستبداد من جهة، ولتسويغ ممارسات الإرهاب والعنف من جهة أخرى. فالديمقراطية مخالفة للإسلام، والمجتمعات الإسلامية لها خصوصيتها، والجهاد ضد الكفار فريضة، وإرهاب الأعداء واجب.

ومما يساعد على ترويج هذه الأقوال إتصاف المساحة الأوسع من تاريخ المسلمين بسمة الاستبداد، حيث كان الأمويون والعباسيون والعثمانيون يحتكرون السلطة ويتداولونها وراثياً بالقوة والغلبة، وكان إلى جانبهم فقهاء يمنحونهم الشرعية الدينية.

فهناك جذور تاريخية للاستبداد ومدرسة دينية لتأصيله وتشريعه.

لكن الباحث الموضوعي يستطيع أن يفصل بين الواقع التاريخي السيئ

للمسلمين، وبين حقيقة مفاهيم الإسلام وتشريعاته. ووجود مسار آخر في التاريخ الإسلامي يعارض ما كان قائما، ويبشر بقيم العدالة والحرية وحقوق الإنسان برؤية دينية واعية، يؤكد مصداقية هذا الفرز المطلوب.

والدليل الأوثق والأصدق يتجلى في سيرة رسول الله ﷺ، فإذا كان النص الديني يحتمل أكثر من قراءة وتفسير، وإذا كان رأي الفقيه قابلاً للأخذ والردّ، فان سيرة الرسول ﷺ وممارسته الفعلية لإدارة المجتمع الإسلامي الأول، تقدم الصورة الصحيحة الواضحة التي لا لبس فيها عن رؤية الإسلام ومنهجه في السياسة والحكم.

ولا أدري لماذا يستغرق البعض في الاهتمام بقضايا جانبية من السيرة النبوية، ويتغافل عن النهج السياسي والاجتماعي الذي اعتمده الرسول ﷺ في إدارة الأمة وتسيير شؤونها؟

إن القراءة الواعية للسيرة النبوية الشريفة في هذا السياق يمكنها أن تساعد الأمة في تجاوز آثار تاريخ الاستبداد، وفي مواجهة الآراء المحافظة المتزمتة، كما تؤصل لتوجهات الإصلاح والتطوير.

الخطوة الأولى نحو التغيير

كلمة الجمعة بتاريخ ١ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ

وسط حضور مميز ألقى سماحة الشيخ حسن موسى الصفار ظهر يوم الجمعة الموافق ١ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ (١٩ يونيو ٢٠٠٤م) كلمةً عقب الصلاة تحدث فيها عن الخطوة الأولى نحو التغيير والتطوير، مؤكداً أن التغيير لا يتم إلا عبر معرفة الإنسان أو المجتمع للواقع المعاش وما به من علل وأخطاء ثم التصميم والعزم على تغيير هذا الواقع وبالتالي يتحقق التطوير، مهتدياً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

وفيما يلي تقريرٌ عن ما جاء في الخطاب:

الخطوة الأولى لكي يتجاوز الإنسان ما به من علل وأمراض لابد أن يعرف تلك العلل والأمراض، وأن يعرف أسبابها ثم يتوفر له العزمً على العلاج، أما إذا لم يكن عارفاً بمرضه أو كان متستراً عليه وغير مهتمٍ بمعالجته فإن ذلك المرض سيبقى ويتطور حتى يقضي على حياته.

وهكذا بالنسبة للأمم والمجتمعات فإن الخطوة الأولى لتجاوز الوضع السيء هو أن تعرف حقيقة أوضاعها، وهذا ما تؤكده آيات القرآن الحكيم، يقول تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**.

فقبل أن تبدأ مرحلة التغيير للمجتمعات، يَمثل للعيان هذا التساؤل: هل يعرف

---

(١) سورة الرعد الآية ١١.

هؤلاء الناس حقيقة الأوضاع التي يعيشونها، ويدركون أبعاد الواقع الذي يعيشونه؟

المجتمعات المتقدمة عادةً ما تهتم بفحص أوضاعها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك عن طريق وسائل الإعلام الحرة والمؤتمرات والبرلمانات وبمختلف الطرق الأخرى، وبالتالي تكتشف العلل والأخطاء فتطوقها وتحاصرها.

وكنموذج واضح على ذلك ما حصل في سجن أبو غريب حيث قام الجنود الأمريكيون بجرائم التعذيب البشعة بحق المعتقلين العراقيين، وكما يقول المحللون إنه لا يُمكن أن تحصل مثل هذه الأمور بشكلٍ فرديٍّ واعتباطي وإنما نتيجة أوامر عليا.

ولكن من الذي اكتشف هذا الأمر وفضحه وقاومه؟ هل أن الجامعة العربية قامت بذلك؟ هل أن منظمة المؤتمر الإسلامي كشفت ذلك؟ هل أن الجهات العراقية الشعبية هي التي فضحت وقاومت ما حصل؟

يجب الاعتراف أن من كشف وفضح الأمر هم بعضٌ من الأمريكيين، وأن الحملة بدأت ضد ما حصل من تعذيب في داخل أمريكا. وهذا لا ينفي إدانتنا وشجبنا لما حصل، ولكن هناك حالةٌ سليمةٌ عندهم، فحينما تحصل مثل هذه الجرائم هناك إمكانية لكشفها ومقاومتها ومواجهتها، وهذا دليلٌ على أن الوضع الذي يعيشونه وضعٌ سليم وإلا لما أمكن اكتشاف هذه الجرائم بسرعة، ونشرها بالصور الفوتوغرافية والفيديو أيضاً. ومع ما نتج عن هذه الفضيحة من مشكلة كبيرة للرئاسة الأمريكية لم يُنكّل بالجندي الذي كشف حقيقة ما حصل، وإنما وجّه لهٍ وزير الدفاع الأمريكي شكراً على ما قام به لأنه كان سبباً في وضع حدٍّ لهذه المشكلة.

وماذا عن واقع المجتمعات العربية والإسلامية؟ ألا يحصل في سجون العرب والمسلمين شبيهٌ بما في سجن أبو غريب؟ بلىٰ وفي بعض البلدان يحصل أضعاف ما حصل، ولكن من يكتشف ويتحدث عن ذلك. وكمثال على هذا الواقع، مع ما عمله الطاغية صدام بالشعب العراقي، لم يكن هناك حديثٌ عن المقابر الجماعية أو عن ما مارسه من تعذيب ضد الشعب العراقي إلا بعد سقوطه.

فمشكلة المجتمعات العربية والإسلامية أنهم لا يعرفون ما بهم، والتغيير لا يتم

إلا بعد تجاوز هذه الخطوة.

وأشار سماحته إلى التقريرين الصادرين من الصندوق الإنمائي للأمم المتحدة (٢٠٠٢ - ٢٠٠٣م) تحت عنوان: تقرير التنمية العربية، مبيناً أن التقريرين موضوعيان، ويبينان واقع الحال في العالم العربي. ومع ذلك هناك جهاتٌ كثيرة انتقدت هذه التقارير واتهمتها بالتهويل والتضخيم، رغم أن الفريق القائم عليها أغلبهم من العلماء والمفكرين العرب، لكن المشكلة أن القوم لا يرغبون في معرفة ما بهم.

وأضاف إن المجتمعات العربية والإسلامية ليست فقط لا تُريد معرفة الأخطاء والعلل المحدقةِ بها، وإنما تقوم بأمورٍ سلبية تجاه الواقع الذي تعيشه، ومن ذلك:

أولاً- التستر والتكتم على الأخطاء. فهناك كثيرٌ من البلدان لا تنشر نقاط الضعف والخلل والتقصير خوفاً من أن تفتضح أمام العالم، متناسين أن تصحيح الأوضاع أهم من أي شيءٍ آخر.

ثانياً- سياسة التبرير. خاصةً أن الإنسان العربي يصعب عليه الاعتراف بالخطأ، وإنما يلجأ للتبرير والمكابرة، وهذه سمةٌ سيئة تمنع الإنسان من تلافي الأخطاء والأمراض.

ثالثاً- إلقاء المسؤولية على المجهول. فإذا ما كشف الخطأ والخلل تلجأ هذه المجتمعات للبحث عن جهةٍ تعلّق عليها أخطاءها وتحمّلها المسؤولية كاملةً.

وفي واقعنا الاجتماعي هناك جهة دائماً تُعلّق عليها مختلف الأخطاء وهي الجن والسحر. فيكون ذلك مانعاً للبحث عن الأسباب الأساسية وراء الأخطاء التي نعيشها. إضافةً إلى أن الاعتقاد بهذه الأمور يجعل الإنسان يعيش اضطراباً نفسياً. ولذا ينبغي تجاوز هذه الحالة السلبية.

والغريب في الأمر أن البعض يلجئون في تبرير هذه الحالة إلى الآيات القرآنية التي تتحدث عن السحر والحسد، ولكن يجب أن نعرف هل أن القرآن يتحدث عن حقيقة تأثيرٍ للسحر والحسد أم توهّم تأثير؟

وخلاصة الحديث أن القوم المتخلفين لا يعرفون ما بهم، ولا يسعون من أجل

معرفة الأسباب وراء تخلفهم، وهذا مانعٌ لهم من التغيير والتطوير، إذ أن التغيير يبدأ أولاً بهذه الخطوة وهي أن يعرف القوم ما بهم.

وأشار سماحة الشيخ في حديثه إلى جانب من البيانات التي أصدرتها قمة الثماني في جورجيا والتي تكشف عن الواقع المتردي الذي تعيشه الدول العربية والإسلامية وأن الإصلاحات لا تفرض من الخارج وإنما يجب أن تنبع من داخل هذه الدول، في حين أن هذه الدول ترفض أي تدخل خارجي لإصلاح أوضاعها الداخلية، ومع ذلك تجدها تبحث عن مبررات غير عقلائية للإبقاء على الواقع المتردي، ومن تلك المبررات الاحتلال الإسرائيلي، بينما نحن نجد أن إسرائيل نفسها تعيش ديمقراطية، ويتمتع شعبها بكامل الحرية. وهذه الدول التي تبرر لواقعها المتردي بوجود إسرائيل بينها نجدها تستأسد على شعوبها وتقمعهم، وهذه الحالة من أفظع صور الاستبداد.

ثم تطرّق إلى صور متعددة من صور الواقع المتخلف الذي تعيشه البلاد العربية والإسلامية بدءً بالأعمالً الإرهابية المتكررة بين حين وآخر في مختلف دول العالم العربي والإسلامي في العراق والسعودية والمغرب وغيرهما، مؤكداً أن هذه الأعمال نابعةٌ من خللٍ ومشكلةٍ في الواقع المعاش وينبغي معالجتها من جذورها.

ومن صور التخلف المستوى التعليمي المتدني في هذه الدول، حيث في كل عام ومع حلول العطلة الصيفية تبدأ دوامة الحديث عن الجامعات وصعوبة حصول الطلاب والطالبات على مقاعد في الجامعة، فلماذا لا يكون هناك تعاونٌ أهلي وحكومي من أجل تغيير هذه الحالة؟

إضافة لذلك قضية البطالة المنتشرة في العالم العربي والإسلامي، إذ كيف لنا أن نفهم أن هناكً بلدٌ فيه ما لا يقل عن ستة ملايين عامل أجنبي يُعاني أبناءه من البطالة؟

وهذه المشاكل وغيرها ليست وليدة اليوم وإنما هي حصيلة سنوات عديدة، فلا ينبغي السكوت عليها وإنما يجب معالجتها بسرعة، إذ أن التغافل عنها لا يحل المشكلة وإنما يزيدها تعقيداً وخطورةً.

ثم إن علاج المشكلة لا يقع على عاتق الحكومات فقط مع ما تتحمله الحكومات

من مسؤوليةٍ كبرى في هذا الجانب، وإنما ينبغي أن تكون هناك ظاهرةَ تغييرٍ شاملةً بدءً بالواقع الاجتماعي المعاش.

وتطرق سماحة الشيخ في ختام حديثه إلى مسألة العطلة الصيفية وضرورة تفعيلها حيث أن الشباب وهم يمرون بهذه المرحلة الحساسة من عمرهم، إضافةً إلى أن مرحلة الشباب هي مرحلة القوة والنشاط، ينبغي أن تُستغل هذه العطلة لتهيئتهم لمختلف الأمور والقضايا الدينية والثقافية والاجتماعية حتى لا تضيع هذه العطلة سدىً، ومن هنا ينبغي أن تعجَّ البلاد بالبرامج والدورات والأنشطة المختلفة سواءً عبر الجهات الحكومية والاجتماعية.

كما ينبغي أن لا يتجاهل المجتمع الفتيات، حيث أن فرصهنَّ الخارجية أقل من الشباب، فحتى لا تضيع أوقاتهن بين الفراغ والفضائيات ينبغي التفكير الجاد في برامج تشغل أوقاتهن وتفجر طاقاتهن وكفاءاتهن.■

الضغوط الاقتصادية وهم المعيشة

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٠ جمادى الاولى ١٤٢٥هـ

ألقى سماحة الشيخ حسن موسى الصفار كلمةً ظهر الجمعة ٢٠ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ (٩ يوليو ٢٠٠٤م) عقب الصلاة تحدث فيها عن الضغوط الاقتصادية والهموم المعيشية التي يمر بها الكثيرون خصوصاً في هذه الحقبة الزمنية، مما قد يُسبب لدى البعض تأزماً نفسياً يعرقل مسيرته الحياتية، وأشار إلى سبل التقدم المعيشي مؤكداً على ضرورة أن يعمل الإنسان بقدر طاقته لا بقدر حاجته، إضافةً إلى حسن التدبير و تقديم الأولويات.

وفيما يلي نص الكلمة:

هم المعيشة والمسألة الاقتصادية فرضت نفسها على أكثر الناس في عصرنا الحاضر وفي مجتمعاتنا المعاصرة ذلك أن متطلبات الحياة قد اتسعت، كما أن رغبات الإنسان وتطلعاته للرفاهية ولإشباع الرغبات أصبحت لها فنونٌ للإثارة وللتحريض عبر وسائل الإعلام وكذلك الحالة العامة التي يعيشها الناس، بعكس ما كانت عليه في الماضي. وتركت هذه المسألة أثراً كبيراً على الحالة النفسية عند الناس، حيث يعيش الكثير حالة القلق والكآبة والأرق؛ كما أن هناك تأثيرٌ على الحالة العائلية فتحصل في بعض الأحيان مشاكلٌ بين الزوج وزوجته، أو بين الأب وأفراد أسرته، وكل ذلك بسبب الضغوط الاقتصادية. إضافةً إلى ذلك فإن ترتيب حياة الإنسان من حيث الزواج وتوفير السكن وباقي متطلبات الحياة تواجه حالة إرباك عنيف لذات السبب.

قد تمر هذه الحالة على الأفراد، وأيضاً على المجتمعات، ويتفاوت الأفراد

وكذلك المجتمعات في مواجهتهم لمثل هذه الحالة، فهناك من يُضيف إلى الضغوط ضغوطاً أخرى بسبب عدم حسن التصرف.

وهنا نؤكد على نقطتين في مواجهة الضغوط الاقتصادية وهموم المعيشة:

أولاً- التحفيز للإنتاجية والعمل.

الكثيرون يريدون أن يترفهوا وأن تتوفر لهم مختلف الرغبات والتطلعات، لكنهم لا يضغطون على أنفسهم باتجاه الإنتاج والعمل، ويكتفي الكثير بمستوى معين من العمل والإنتاج ويقف عنده، ولا يُطالب نفسه ببذل المزيد من الجهد، وهذا خلاف ما نراه عند الأمم الناهضة.

وهذه الحالة لا تعكس الصورة التي يُريدها الإسلام، فهناك العديد من الأحاديث التي تدفع الإنسان باتجاه العمل والإنتاج، ليس بمقدار الحاجة فقط، وإنما بمقدار طاقة الإنسان. في الحديث عن رسول ﷺ أنه قال:«**إن قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلةٌ يُريد أن يغرسها فليغرسها ولا يقولن قد قامت القيامة**»، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:«**إني لأخرج في حر الظهيرة للحاجة قد كفيتها ولكن أحب أن يراني الله أتعب نفسي في طلب الحلال**»، وروى محمد بن عساكر عن أبيه أنه دخل على الإمام الصادق عليه السلام فدفع إليه (١٧٠٠) دينار، وقال له: اتجر لي في هذا المبلغ، و والله ليس لي حاجةٌ في فوائده، ولكن أحب أن يراني الله أتعرض لفوائده.

هكذا ينبغي للإنسان أن يكدح ويتعب، والفرص في بلدنا متاحة والآفاق مفتوحة، ولكن المشكلة هي أن الكثيرين لا يُريدون أن يتعبوا، والقصص التي يذكرها الكثيرون حول تجاربهم في الأعمال الإضافية التي يقومون بها سوى عملهم الرسمي كثيرة وفيها الخير الكثير، ولا يتطلب ذلك شيئاً سوى بذل الجهد والسعي باتجاه العمل والإنتاج.

ثانياً- حسن التدبير وتقديم الأولويات.

يقول تعالى:﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ**

مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (سورة الإسراء الآية: ٢٩.)، في هذه الآية الكريمة نهيٌ صريح عن البخل وفي نفس الوقت عن الإسراف والتبذير أيضاً، لأن ذلك مما يسبب الملامة من قبل الناس، وأيضاً الحسرة والندم على ما فات. ولذلك ورد في الحديث الشريف:«**حسن التدبير نصف المعيشة**». وقال رسول الله ﷺ:«**إني لا أخاف على أمتي الفقر، ولكن أخاف عليهم سوء التدبير في المعيشة**».

فتنظيم الجانب الاقتصادي مسألة مهمة، تُساعد الإنسان على تيسير أمور حياته بنجاح. ولكن تجد البعض يتجه للكماليات متغافلاً عن الأمور الأساسية، وهذا مما يُضعف القوة الاقتصادية عند هذا الصنف من الناس.

وقد نقلت الصحف أن ما يصرفه السعوديون على السياحة الخارجية، كما في إحصائية سنة (٢٠٠٠م) حيث بلغ الإنفاق (١٤) بليون دولار، تعادل (٥٤) بليون ريال. فالسياحة والترفيه أمرٌ ضروري ولكن لا ينبغي أن يكون على حساب الأمور الأساسية في حياة الإنسان.

ومن جانب آخر الصرف الكمالي الزائد على القضايا الاجتماعية المختلفة كحفلات الزواج وما شاكلها، ويكفي أن نعرف أن استثمارات صالات الأفراح في السعودية تصل إلى (٥٠٠) مليون دولار، لندرك حجم الصرف على الأمور الكمالية في حياة مجتمعاتنا. وأما عن الطعام في حفلات الزواج فحدث عنها ولا حرج حيث الكثير من الإسراف والتبذير في حين يعيش الكثير من أفراد المجتمع حالة الفقر والحاجة.

هذه الحالة تعيشها المجتمعات العربية والإسلامية بشكل عام، وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط تقريراً عن مصر بتاريخ (٢١/ ٦) يتحدث عنً ظاهرة دلع الكلاب في المجتمع الراقي في القاهرة، هذه المدينة التي يوجد فيها حوالي مليون طفل مشردين يتسكعون في الشوراع، و (٩٠٪) منهم حفاة. ويقول أحد أصحاب المحلات أن قيمة الطوق الذي يلبسه الكلب يكفي لإعالة عائلة مكونة من خمسة أشخاص لمدة شهرين.

نعم تعيش المجتمعات الغربية هذه الحالات الكمالية، ولكن تلك المجتمعات

حاجاتها الأساسية متوفرة، فلا إشكال في الاتجاه نحو الكماليات، بعكس المجتمعات العربية والإسلامية.

لذلك علينا أن نربي أنفسنا وأبناءنا على حسن التدبير، ولا يصح أن يُعطى الولد مساحة كبيرة من الحرية في التصرف بالمال لأن ذلك مما يُسبب في عدم مقدرته على إدارة شؤونه الاقتصادية في المستقبل.■

مصادرة رأي الفتاة في الزواج

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ

ألقى سماحة الشيخ حسن موسى الصفار كلمةً ظهر الجمعة ٢٧ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ (١٥ يوليو ٢٠٠٤م) عقب الصلاة تحدث فيها عن العلاقة المتبادلة بين العائلة والأبناء، وكيفية جعل هذه العلاقة طبيعية مستمرة. وتحدث عن جانب فرض الشخصية التي تُمارسها بعض العوائل تجاه أبنائها، وتجاه البنات بشكلٍ خاص، واستعرض الرأي الفقهي لهذه المشكلة.

وهذا نص الكلمة:

كل إنسان في هذه الحياة له شخصيته ورغباته ومصالحه، وحينما يُراد لعلاقةٍ أن تتم بين شخصين، فلكي تكون هذه العلاقة صحيحة ومستمرة يجب أن تتأسس عَلى الاحترام المتبادل بين هذين الشخصين، أما إذا كانت العلاقة قائمةً على أساس تجاهل مصلحة أحد الطرفين، فهذه العلاقة لا تكون طبيعية، ولأنها غير طبيعية فهي غير قابلة للاستمرار بالشكل السليم. وهذا الكلام يتحقق بالنسبة للأفراد والجماعات على حدٍ سواء.

وحتى من لديهم وشائج طبيعية من العلاقة، كالعلاقة العائلية والعاطفية. فالأب يُحب ولده، ويعطف عليه، والولد يحترم أباه، وينشدُّ إليه، ولكن هذه العلاقة ينبغي أن تتأسس على أساس احترام كلٍّ منهما لشخصية الآخر ولرغباته ولمصالحه.

في فترة صغر الأولاد وقبل بلوغهم سن الرشد من الطبيعي أن يكون القرار للأب، فهو الولي وصاحب الرأي، وعلى الولد -ذكراً كان أم أنثى- أن يتقيد بآراء أبيه.

وهذا الأمر معروفٌ وواضح من الناحية الشرعية والقانونية. ومع ذلك فإن هذا الأمر لا يُعطي الأب السلطة المطلقة بحيث يُمارس ما يُريد تجاه ولده، فلو أراد الإضرار بولده فإن الشرع لا يُجوّز له ذلك، ويقف القانون أمامه. وقد تكونت في بعض الدول المتقدمة مؤسسات لحماية الصغار من التصرفات السيئة للكبار، ومؤخراً تأسست في (جدة) هيئة للحماية الأسرية.

وإذا تجاوز الولد مرحلة الصغر، وأصبح بالغاً راشداً، فإن ولاية الأب وصلاحيته السابقة تنتهي، وبالتالي ينبغي أن تتأسس العلاقة على أساس الاحترام المتبادل. على الولد أن يحترم ويبر بوالديه، وفي المقابل ينبغي للوالد أن يُساعد الابن على أن يكون باراً به، كما هو مفاد الحديث الذي يرويه يونس بن رباب، قال: قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «رحم الله من أعان ولده على بره. قلت: يا ابن رسول الله كيف يُعين ولده على بره؟ قال عليه السلام: يقبل ميسوره، ويتجاوز عن معسوره»

فالولد له مصالحه ورغباته وعواطفه، ولا يحق للأب أن يفرض عواطفه ومشاعره وآرائه ومواقفه على ولده. فيجب أن تكون العلاقة واقعية بعيدة عن المثالية التي يتطلع إليها بعض الآباء من أبناءهم.

يرى الفقهاء أنه ليس للأب حق الطاعة المطلقة على ولده بعد البلوغ، وفي المقابل لا يجوز للولد أن يؤذي والديه، ويخدش مشاعرهما ولكن دون أن يكون ذلك في ضرره. أما إذا كان إرضاء الوالدين يُسبب مضرةً للولد فلا يجب على الولد أن يمتثل لرأيهما. وعلى الأب أن يُحاور ولده فيما يخص الولد ليقنعه برأيه لا أن يفرض عليه ذلك. وهذا الأمر يتحقق في كل الأمور سواء فيما يرتبط بمستقبل الولد الدراسي كاختيار التخصص الذي يُريد الولد الالتحاق به، أو المستقبل العائلي كاختيار الزوجة التي يُريد الولد الارتباط بها؛ في كل هذه الحالات لا يحق للأب أن يفرض رأيه على ولده، وليس أمامه سوى الحوار. يسأل ابن أبي يعقوب الإمام جعفر الصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله أريد أن أتزوج امرأة، ولكن أبوي يريدان أن يُزوجاني غيرها، فهل أتزوج من هويت، أو من هوى أبواي؟ قال الإمام عليه السلام: تزوج من هويت أنت، ودع من هوى أبواك.

في مجتمعاتنا واضحٌ أن للأبناء نوع من الاستقلالية في الشخصية، ولكن المشكلة ترتبط في كثير من الأحيان بموضوع البنات، إذ أن الحالة العامة في المجتمع أن البنت لا يُعترف لها بشخصيتها واستقلالها، وبالتالي يُطلب منها خضوع أكبر وقبول أكثر بأمر الأب، وهذا ليس من صلاحية الأب إلا في الحدود الشرعية، وأما فيما يرتبط بأمور الفتاة الشخصية فعلى الآباء أن يعرفوا أن هناك حدود لسلطتهم، وعليهم أن يتفهموا شخصية البنت. ويقع موضوع الزواج في الصدارة من بين المشاكل المرتبطة بفرض شخصية الأب أو العائلة على الفتاة. والقصص الاجتماعية في هذا الجانب كثيرة جداً، وهنا يجب التعرف على الرأي الفقهي في هذا الجانب.

وأهم الأقوال في المسألة ثلاثة آراء:

الرأي الأول: القرار للولي

يرى جمع من فقهاء الإسلام أن قرار زواج الفتاة البكر وإن كانت بالغة راشدة هو بيد وليها وهو الأب والجد للأب بشكل كامل، وليس لها رأي أو اعتراض.

وبهذا الرأي قال الشيخ الطوسي في أكثر كتبه، والصدوق، وابن عقيل، والكاشاني وغيرهم واختار هذا الرأي ودافع عنه الشيخ يوسف البحراني في الحدائق الناضرة.

واستدلوا عليه بنصوص كثيرة صحيحة السند.

منها صحيحة فضل بن عبد الملك عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «لا تستأمر الجارية التي بين أبويها إذا أراد أبوها أن يزوجها، هو أنظر لها. وأما الثيّب فإنها تستأذن.»

وصحيحة الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام في الجارية يزوجها أبوها بغير رضاء منها، قال: «ليس لها مع أبيها أمر إذا أنكحها جاز نكاحه وإن كانت كارهة».

وهذا هو رأي الشافعية والمالكية حيث قالوا: تثبت الولاية إجبارياً للأب وللجد عند عدمه، فللأب تزويج البكر صغيرة أو كبيرة بغير إذنها، ويستحب استئذانها. ودليلهم خبر الدار قطني (الثيّب أحق بنفسها من وليها، والبكر يزوجها أبوها) ورواية

مسلم (والبكر يستأمرها أبوها وإذنها سكوتها) حملت على الندب

وجاء في متن المنهاج للنووي - من أعلام الشافعية- (للأب تزويج البكر الصغيرة أو الكبيرة بغير إذنها، ويستحب استئذانها)

الرأي الثاني: القرار بيد الفتاة

وقد ذهب جمع آخر من الفقهاء إلى أن قرار زواج الفتاة بيدها ما دامت بالغة رشيدة.

وذلك لأن الأصل سلطة الإنسان على نفسه، وحريته في تصريف شؤون حياته، وأي استثناء من هذا الأصل يحتاج إلى دليل وإثبات.

وهذا الرأي يقتضيه من الأدلة العامة اطلاقات الآيات والنصوص الواردة في النكاح فإن العقد إنما هو الصيغة التي تقع بين الرجل والمرأة فيجب الوفاء به سواء رضي الأب أو الجد أو لم يرضيا بذلك، كما يقتضيه إطلاق قولـه تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ .

كما أن هناك نصوصاً خاصة استدل بها على استقلال البكر في أمرها.

كرواية زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إذا كانت المرأة مالكة أمرها تبيع وتشتري وتعتق وتشهد وتعطي من مالها ما شاءت فإن أمرها جائز تزوج إن شاءت بغير إذن وليها، وإن لم يكن كذلك فلا يجوز تزويجها إلا بأمر وليها.»

ورواية سعدان بن مسلم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لا بأس بتزويج البكر إذا رضيت بغير إذن أبيها.

وضمن هذا السياق نقل السيد الحكيم في المستمسك خبر ابن عباس: إن جارية بكراً جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أبي زوجني من ابن أخ له ليرفع خسيسته. وأنا له كارهة، فقال ﷺ: أجيزي ما صنع أبوك. فقالت: لا رغبة لي فيما صنع أبي. فقال ﷺ: فاذهبي فانكحي من شئت. فقالت: لا رغبة لي عما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء في أمور بناتهم شيء .

والخبر أورده ابن ماجه في سننه مروياً عن ابن بريدة.

بناء على هذه الأدلة ذهب إلى هذا الرأي كثير من العلماء المتقدمين والمتأخرين وأصبح هو الرأي المشهور، بل ادعى عليه الإجماع من قبل السيد المرتضى. وتبناه الشيخ النجفي في الجواهر، والشهيدان في اللمعة وشرحها، ومال إليه السيد الشيرازي، في بحثه الاستدلالي وتعليقته على العروة الوثقى، وإن كان قد قال في الفتوى بالاحتياط. جاء في الفقه: (والأقرب في النظر أن الولاية بيدها وحدها للأدلة التي تقدمت ولا تقاومها أدلة سائر الأقوال. إذ أدلة سائر الأقوال بالإضافة إلى منافاتها للأدلة العامة مثل الناس مسلطون ونحوه، لا بد وأن تحمل على نوع من الأدب مثل أنت ومالك لأبيك)

وهكذا حمل أصحاب هذا الرأي الروايات الصحيحة التي تجعل الأمر بيد الولي على الندب والاستحباب والتأكيد على مكانة الأب وأخذ رأيه واحترام مقامه.

ومن أهل السنة ذهب الأحناف إلى أن قرار الزواج هو بيد الفتاة، قال أبو حنيفة وأبو يوسف: ينفذ نكاح حرة مكلفة بلا رضا ولي، ودليلهم أولاً: حديث (الأيم أحق بنفسها من وليها) والأيم التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً، فدل على أن للمرأة الحق في تولي العقد. ثانياً: للمرأة أهلية كاملة في ممارسة جميع التصرفات المالية من بيع وإيجار ورهن وغيرها، فتكون أهلاً لمباشرة زواجها بنفسها، لأن التصرف حق خاص لها .

الرأي الثالث: الاشتراك في القرار

ولأن النصوص التي تدل على أن القرار بيد الولي صحيحة وصريحة، وفي ذات الوقت فإن في النصوص الدالة على استقلال الفتاة بالقرار ما هو صحيح ويقويه الشهرة وعمل الفقهاء ويوافق ما يقتضيه الأصل والأدلة العامة، فقد استصعب عدد من الفقهاء الجمع بين الفريقين من الأدلة بحمل أحدهما على الندب والاستحباب، ورأوا أن المتعين القول بالاشتراك في القرار، فلا يمضي قرار الأب في زواج ابنته البكر دون رضاها، ولا قرار البنت وحدها دون رضا الولي.

جاء في العروة الوثقى: (تشريك بمعنى اعتبار إذنهما معاً والمسألة مشكلةٌ فلا

يترك مراعاة الاحتياط بالاستئذان منهما، ولو تزوجت من دون إذن الأب أو زوجها الأب من دون إذنها وجب إما إجازة الآخر أو الفراق بالطلاق).

ويرى السيد الخوئي أن الاشتراك في القرار هو المتعين في المقام لما فيه من الجمع بين النصوص الواردة، ولخصوص ظهور قوله عليه السلام في معتبرة صفوان: (فإن لها في نفسها نصيباً) أو (فإن لها في نفسها حظاً) فإنهما ظاهران في عدم استقلالها وكون بعض الأمر خاصة لها.

«فعن صفوان قال: استشار عبد الرحمن موسى بن جعفر عليه السلام في تزويج ابنته لابن أخيه، فقال: افعل ويكون ذلك برضاها، فإن لها في نفسها نصيباً. قال: واستشار خالد بن داود موسى بن جعفر عليه السلام في تزويج ابنته علي بن جعفر، فقال: افعل ويكون ذلك برضاها فإن لها في نفسها حظاً.»

وهذا هو رأي الحنابلة أنه يزوجها وليها بإذنها سواء كانت بكراً أم ثيباً .

الخلاصة

انقسم الفقهاء في قرار زواج الفتاة البالغة الرشيدة إلى ثلاثة آراء، الرأي الأول: أن القرار بيد ولي البنت ويستحب له استئذانها، ويراه بعض فقهاء الشيعة والشافعية والمالكية من السنة. والرأي الثاني: أن القرار بيد الفتاة ويستحب لها أن تستأذن أباها، ويذهب إليه المشهور من علماء الشيعة، ويوافقهم الأحناف من السنة. والرأي الثالث: الاشتراك في القرار بيد الولي والفتاة، وهو رأي أغلب فقهاء الشيعة المعاصرين، والحنابلة من أهل السنة.

ويشكل الرأي الثالث ضمانة لمستقبل الفتاة، فإنها لكونها بكراً لا خبرة لها في الحياة الزوجية قد تتسرع في اتخاذ قرار الزواج من منطلق عاطفي، وإذا ما اتخذ الولد قرار الزواج ثم وجده خاطئاً فقرار الطلاق بيده، لكن الفتاة إذا ما ارتبطت بزواج غير مناسب فإن انسحابها منه ليس أمراً سهلاً. لذلك تأتي أهمية التأني من قبلها في اتخاذ القرار وأن ينضم رأي وليها إلى رأيها.

الواقع الاجتماعي يتحدث عن المشكلة

والواقع الاجتماعي يُحدثنا عن قصص كثيرة تقف فيها العائلة حائلاً دون الموافقة على زواج البنت بمن ترغب لمبررات سطحَية، وتحصل نتيجةً لذلك مضاعفات كبيرة، منها:

١. لجوء بعض الفتيات إلى الانتحار.

٢. نشوء علاقة محرمة والعياذ بالله، خصوصاً مع التقدم الاجتماعي ووسائل الاتصال المختلفة، تحول دون السيطرة على هذا الأمر.

٣. تتعقد الفتاة نتيجة الضغوط التي تمر بها، ويلحق بالفتاة ظلم وأذى دون مبرر صحيح.

٤. توسع ظاهرة العنوسة.

فعلى الآباء أن يتقو الله في هذا الأمر، فنحن لا نعيش العصر السابق بحيث أن الفتاة تقبل برأي الأب والعائلة دون ممانعة أو حصول مضاعفات، فالخيارات المعاصرة كثيرة وواسعة والفرض لا يُحقق إلا النتائج السلبية. وشخصية الإنسان -ذكراً كان أو أنثى- أصبحت أقوى وأكثر إصراراً على رغباتها من السابق.■

ثم منهجيةٌ خاطئة

كلمة الجمعة بتاريخ ١٢ جمادى الآخر ١٤٢٥هـ

ألقى سماحة الشيخ حسن موسى الصفار كلمةً ظهر يوم الجمعة الموافق ١٢ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، تحدث فيها عن ضرورة اتخاذ منهج التخاطب بأحسن الحديث منهجاً عاماً لحياة البشرية جمعاء وللمسلين بصورة خاصةً ذلك لأن دينهم يأمر بذلك من خلال آيات القرآن الحكيم والأحاديث الشريفة.

وفيما يلي نص الكلمة:

هناك إرادتان متصارعتان في حياة البشر:

الأولى: الإرادة الإلهية، التي تريد للناس أن يعيشوا حياة الوئام والانسجام.

الثانية: الإرادة الشيطانية، التي تريد أن يعيش الناس حالة الاحتراب والشقاق.

إن الله تعالى في شرائعه يوجه الناس إلى ما يُقرب بين قلوبهم، وما يجعلهم يعيشون بشراً متحابين، بينما يُريد الشيطان أن يعيش الناس متحاربين متقاتلين؛ كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ (سورة المائدة الآية: ٩١).

الإرادة الإلهية التشريعية تتمثل في الكثير من الآيات القرآنية، والنصوص الشرعية، والتعاليم التي تُبعد الناس وتنهاهم عما يُثير بينهم الشقاق والفتن. ومن تلك الآيات الحكيمة قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لعبَادي يَقُولُوا الَّتي هيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ

يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (سورة الإسراء الآية: ٥٣-٥٤.). وقد اختلف المفسرون في المقصود من لفظة ﴿لِعِبَادِي﴾ إلى رأيين:

الأول: أن المقصود بها المؤمنون.

الثاني: أن المقصود بها عموم الناس، وهذا الرأي هو الأرجح، فالناس جميعاً عباد الله تعالى.

وفي الآية توجيه صريح، لا غموض فيه، بأن يسلك الناس الخطاب الأحسن في تعاملهم مع غيرهم. وواضحٌ أن الآية تعني العباد الذين بينهم اختلاف، إذ من الطبيعي أن يتخاطب المتآلفون والمتحابون بخطاب حسن فيما بينهم.

ولماذا يُوجه الله تعالى الناس لهذا التوجه؟ الآية الكريمة تبين السبب: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾، ذلك لأن الخطاب السيء والانفعالي يُعطي الفرصة المناسبة للشيطان ليزرع الفتنة والشقاق، والخطاب الحسن يُفوّت تلك الفرصة.

من يريد الخير للبشرية، عليه أن يدعو إلى الوئام بين أبناء البشر مهما اختلفوا ومهما تعددت وتنوعت مشاربهم.

والآية الأخرى تلفت إلى حقيقة مهمة جداً، وهي: أن بعض الناس يُجيز لنفسه أن يُسيء القول للآخرين، على اعتبار أن الآخرين أعداءٌ لله، ومطرودون من رحمة الله. وهذه الحالة موجودة عند كثير من الناس، وتمارس باسم الدين والإسلام؛ سواء كان الآخر على دين آخر، أو على مذهب آخر.

الله تعالى في هذه الآية يُريد أن يُعالج هذه الحالة، بأن يقول للإنسان أنه ليس من حقك الفرز بين الناس من حيث قربهم وبعدهم عن الله تعالى، فالنتائج والعواقب لا يعلمها إلى الله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾.

هذه هي أخلاق وآداب الإسلام كما تؤكدها آيات القرآن الحكيم: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (سورة البقرة الآية: ٨٣.). وتؤكدها الأحاديث الشريفة والروايات الواردة عن

أهل البيت ﷺ، ومنها «أن رجلاً أخذ بلجام دابة رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ما أفضل الأعمال؟ فقال ﷺ: «إطعام الطعام، وإطياب الكلام». ويقول أمير المؤمنين ﷺ: «من عذب لسانه كثر إخوانه». «وقال سليمان بن مهران -أحد تلامذة الإمام الصادق : دخلت على الإمام جعفر الصادق وعنده جماعة من الشيعة وهو يوصيهم ويقول لهم: «كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً»، «قولوا للناس حسناً، واحفظوا ألسنتكم، وكفوها عن الفضول وقبيح القول».

إذن آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والروايات الواردة عن أهل البيت ﷺ كلها تريد أن تربي الإنسان المؤمن، فضلاً عن عامة الناس، على أن يكون التخاطب فيما بينهم خطاباً حسناً، وليس على أساس السب والشتم والقذف واللعن.

وماذا يُريد الإنسان من الخطاب السيء؟ هل للانتقام من الآخرين؟ ومتى كان السب مؤدياً للانتقام؟ إذا كان الآخر صاحب نفوذٍ وقوة فإن السب والشتم لا يُغير من المعادلة شيئاً.

هل أن السب والشتم والخطاب السيء يُغير الواقع الخارجي؟ هل أن السب والشتم يردع الطرف الآخر؟ متى وجدنا أن أصحاب دين أو مذهب يقتنعون برأي آخر نتيجة السب والشتم لدينهم أو مذهبهم؟ إن المسألة علىً العكس مَن ذلك تماماً، إذ أن السب والشتم يؤدي إلى نفور الناس من هذا الدين أو المذهب الذي يسلك أتباعه هذه المنهجية.

إذن سبك وشتمك الآخرين لا يُغير من المعادلة الخارجية، ولا يُؤثر فيهم تأثيراً إيجابياً فيجلبهم إلى رأيك وإلى دينك ومذهبك، بل على العكس من ذلك.

وإضافةً إلى ذلك، فإن الدنيا ليست محصورة فيك وفي المخالفين لك، وإنما هناك رأيٌ عام، وأناسٌ محايدون، ومنهجية السب والشتم تجعل الرأي العام والمحايدين في صف الطرف الآخر.

نعم، هناك شيءٌ يجعل الناس يلجئون إلى السب والشتم، وهو التنفيس عن الحالة النفسية. والبعض يقول أن هناك فائدة إيجابية، وهي: تحصين الناس من التأثر بالظالم،

والانخداع به، وهذا أمرٌ صحيح، ولكن ليس على الدوام، وليس في جميع الحالات والمواقف، ولذلك لا يصح أن تكون سياسة عامة، وإنما نستخدم هذه المنهجية في حالات الاضطرار إليها فقط.

وهذا الكلام يتحقق في الخطاب مع اليهود أو النصارى، فالخطاب السيء المتبع لمنهجية السب والشتم ليس في صالح المسلمين أولاً، ويُنفر الجانب المعتدل من اليهود والنصارى من الإسلام.

والمسألة ليست مسألة أن الطرف الآخر يستحق أو لا يستحق، وإنما المسألة راجعة إلى المصلحة العامة.

ويستغرب الإنسان المسلم حينما يرى هذه الخطابات القرآنية والدينية الواضحة، وفي المقابل غفلة الناس عنها والأخذ بحديث هنا، ورواية هناك، وممارسة هنا، وممارسة هناك، ويُعرضون عن هذا المنهج القرآني العظيم: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وهذه آية قرآنية محكمة وليست متشابهة حتى يتغافل الناس عن المنهج الذي تُقدمه للبشرية جمعاء.

وحينما نقرأ سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام نجد التجسيد العظيم لهذا النهج الرباني، ونجد الالتزام الكامل بأخلاق القرآن وآداب الإسلام، وهم يستقون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله فهو قدوتهم ومعلمهم ومربيهم. فكان خطابهم لبقاً جميلاً ليناً.

البعض من الناس يضع هذه المفارقة، فيقول: إن الآخرين لا يُقصرون في سبنا وشتمنا على مختلف المستويات، ولكن هل يصح أن تكون مثلهم، أم الواجب أن تتخلق بأخلاق القرآن؟ فهل يصح منك أن تُخالف أخلاق القرآن نتيجة مخالفة الآخرين لها؟ كلا! إن الواجب على الإنسان المؤمن أن يتمسك بأخلاق القرآن وأن يتمثل بسيرة أهل الهدى والرشاد أئمة أهل البيت، ونحن نقرأ في سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام أن رجلاً كان يشتمه، ولكن الإمام عليه السلام تركه وانصرف عنه، ولكن الرجل لم يكتف بذلك وإنما لحق بالإمام وأمسك به، وقال له: إياك أعني! فأجابه الإمام عليه السلام: وعنك أغضي! وشتان بين المنهجين. وأخيراً فإن الانصياع إلى منهجية السب والشتم انهزامٌ وفشلٌ، ولا يعني

سوى أن الطرف الآخر استطاع أن يستدرجك إلى فخه، وأن يُلبسك الثوب الذي هو لابسه. والبطولة هي أن تمسك أعصابك وتتمسك بالهدوء، وأن تلتزم بالتعاليم التي أنت مقتنعٌ بها، والمحاسب عليها من قبل الله تعالى. ولكن هذا -بالطبع- يحتاج إلى إرادة، وإلى رزانة، وإلى بيئة مساعدة ومشجعة.■

الآباء والرعاية العاطفية للبنات

كلمة الجمعة بتاريخ ١٩ جمادى الآخر ١٤٢٥هـ

* إن الخلاف الذي حصل بين أهل البيت عليهم السلام وبين الحاكمين من أمويين وعباسيين جعل أي تمجيدٍ للزهراء عليها السلام كنوع من الانتصار لأهل البيت عليهم السلام.
* كما أن الوحي والرسالات كشفت لنا عن اصطفاء الله تعالى للأنبياء، فإن الأحاديث الواردة في فضل الزهراء عليها السلام تكشف عن اصطفائها وعظم مكانتها.
* الأحاديث الواردة في فضل السيدة الزهراء عليها السلام تُعطي رسالة إلى البشرية جمعاء، بأن المرأة لا تقعد بها أنوثتها عن الوصول إلى الموقعية المتقدمة من الفضل والكرامة.

حذر سماحة الشيخ حسن موسى الصفار الآباء من خطورة التقصير في إشباع الجانب العاطفي للبنات معتبراً ذلك مدخلاً لاستغلال الآخرين من خارج المنزل لجوع البنت العاطفي لتُصبح فريسةً في فخّ خُدعهم وإغراءاتهم. وأكد من خلال تأمله في الأحاديث الواردة في فضل السيدة الزهراء عليها السلام أن هذه الأحاديث تُعطي رسالة إلى البشرية جمعاء، بأن المرأة لا تقعد بها أنوثتها عن الوصول إلى الموقعية المتقدمة من الفضل والكرامة، إضافةً إلى أنها تكشف عن حقيقة اصطفاء السيدة الزهراء عليها السلام، وتجعلها في مقام القدوة والتأسي للبشرية جمعاء. وعبّر عن أسفه لما سببته الخلافات

والنزاعات المذهبية أن منعت بعض المسلمين من أن ينظروا نظرةً موضوعيةً منصفةً لهذه الأحاديث. كان ذلك في كلمة سابقة للشيخ الصفار ألقاها ظهر الجمعة ١٩ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ (٦ أغسطس ٢٠٠٤م) بمناسبة ذكرى مولد سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء ﷺ.

بدأ الشيخ الصفار كلمته بتوصيف للحالة التي كان عليها رسول الله ﷺ قبل ولادة السيدة الزهراء ﷺ، وقال: نحن نستقبل اليوم ذكرى ميلاد فاطمة الزهراء ﷺ المبارك، ذلك الميلاد الذي أدخل ما لا يعلمه إلا الله من السرور على قلب رسول الله ﷺ، والذي كان ينتظر قدوم هذه البضعة الطاهرة بفارغ الصبر. ذلك لأن قريشاً والمشركين كانوا يُظهرون الشماتة والتعيير لرسول الله ﷺ باعتباره لا عقب له ويُطلقون عليه صفة (الأبتر)، ولكن الله سبحانه وتعالى وعده بأن يمنّ عليه بكثرة الذرية فكان التحقق بميلاد فاطمة الزهراء ﷺ كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾.

ثم تحدث عن فضل السيدة الزهراء ﷺ من خلال الأحاديث المنقولة عن رسول الله ﷺ في ذلك، مؤكداً أن هذه الروايات كثيرة جداً، وأن الظروف السياسية منعت نقل عدد كبير منها. وأضاف قائلاً: من الواضح أن السيدة الزهراء ﷺ كان لها موقف تجاه الخلفاء بعد رسول الله ﷺ، وهذه حقيقةٌ تاريخية كتبها المؤرخون من مختلف المذاهب، فالزهراء ﷺ لم تكن راضيةً عما حدث بعد وفاة أبيها رسول الله ﷺ وكانت غاضبة، حتى أن الخليفة الأول والثاني بذلا جهوداً لاسترضائها ووسطا علياً ﷺ من أجل أن تقبل باستقبالهما. ومن الواضح أيضاً أنها عند وفاتها أوصت بأن تُدفن سراً، وأن لا يحضر تشييعها وجنازتها أحدٌ إلا أفرادٌ مخصوصون، مما يدل على أنها لم تكن راضية. (راجع البداية والنهاية لابن كثير، المجلد الثالث، ص: ٣٠٩ - ٣١١).

وأكد أن هذا الموقف جعل بعض الرواة يترددون ويتحفظون عن ذكر كل ما ورد من فضائل الزهراء ﷺ.

وأضاف قائلاً: إن الخلاف الذي حصل بين أهل البيت ﷺ وبين الحاكمين من أمويين وعباسيين جعل أي تمجيدٍ للزهراء ﷺ كنوع من الانتصار لأهل البيت ﷺ، ونوع

من الإظهار لمقامهم، وبالتأكيد فإن أولئك الحاكمين لا يريدون أن يُعطوا هذه الفرصة لمنافسيهم، ولذلك حصل نوع من التعتيم على فضائل الزهراء ﷺ. ومع ذلك ما ورد في المصادر الإسلامية غير الشيعية من رواياتٍ في فضل الزهراء ﷺ، مع ملاحظة هذه الأجواء، ليس شيئاً قليلاً.

ونقل الشيخ الصفار مجموعة من الأحاديث الواردة في فضل السيدة الزهراء ﷺ، ومنها ما جاء في صحيح البخاري في باب مناقب فاطمة بنت رسول الله ﷺ عنه ﷺ أنه قال: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» (حديث رقم: ٣٧٦٧). وجاء في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تعليقاً على هذا الحديث: أتى النبي ﷺ ملكٌ وقال: إن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة.

وعقّب على ذلك بقوله: نحن نعلم أن كلمة (نساء أهل الجنة) شاملة للأولين والآخرين، وحينما يقول الحديث: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»، يعني ليست هناك امرأة في تاريخ البشر أفضل من فاطمة الزهراء من الأولين والآخرين.

وتابع يقول: بسبب الأجواء السياسية حاول البعض أن يُبرز بعض الأحاديث الواردة في فضل بعض أمهات المؤمنين كالسيدة عائشة، معتبراً إياها أفضل من فاطمة الزهراء ﷺ اعتماداً على تلك الأحاديث المروية عندهم، ولكن العلماء المحققين من أهل السنة أنفسهم، كما أورد ابن حجر العسقلاني في شرح صحيح البخاري أن السبكي الكبير قال: الذي ندين الله به أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة. (شرح صحيح البخاري، ج: ٧، ص: ١٣٧).

ونقل حديثاً آخر في فضل السيدة الزهراء ﷺ ومن صحيح البخاري أيضاً حيث قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني» (حديث رقم: ٣٧٦٧). ويُجيب على سؤال: ماذا يُريد رسول الله ﷺ أن يقول من خلال هذا الحديث؟ وهل أن تعبيره (بضعةٌ مني) يعبّر عن حالة طبيعة، كما يقولها أي إنسان عن ابنته؟ بقوله: بالتأكيد أن الرسول ﷺ لا يعني الجانب المادي فقط، وإنما يعني المكانة المعنوية.

وتابع الشيخ الصفار في ذكر نماذج من الأحاديث الواردة في فضل الزهراء ﷺ، ومنها الحديث الذي ذكره ابن حجر في الصواعق المحرقة، ص: ٥٥٧، عن أبي

أيوب أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش يا أهل الجمع نكسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم حتى تمر فاطمة بنت محمد على الصراط، تمر مع سبعين ألف جارية من الحور العين كمر البرق» وحديثٌ آخر ورد في مصادر عديدة، من مصادر أهل السنة، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: «أول شخص يدخل الجنة فاطمة» (ميزان الاعتدال، ج:٢، ص: ١١٦). وأحاديث أخرى أيضاً أنه ﷺ قال لها: «فداك أبوك». (بحار الأنوار، ج:٢٢، ص: ٤٩١). وتُشير الروايات «أن النبي ﷺ إذا أراد سفراً كان آخر الناس عهداً بفاطمة، وإذا قدم كان أول الناس عهداً بفاطمة» (بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٤٠).

وأكد أن هذه الروايات يجب أن تستوقف المسلمين جميعاً، معبراً عن أسفه لما سببته الخلافات والنزاعات المذهبية أن منعت بعض المسلمين من أن ينظروا نظرةً موضوعيةً منصفةً لهذه الأحاديث.

وأشار الشيخ الصفار أن هذه الأحاديث:

أولاً- تكشف عن حقيقة اصطفاء السيدة الزهراء عليها السلام.

فكما أن الوحي والرسالات كشفت لنا عن أشخاص الأنبياء، وأن الله تعالى اصطفاهم، كذلك هذه الأحاديث تكشف عن هذه الشخصية المصطفاة، وهي فاطمة الزهراء عليها السلام. مضيفاً: أنه كما أن أفضل البشر من الرجال على الإطلاق، وبما لا يقبل النقاش، هو رسول الله ﷺ، فإن هذه النصوص تدل على أن أفضل البشر من النساء هي فاطمة الزهراء عليها السلام.

ثانياً- تجعل فاطمة الزهراء عليها السلام في مقام القدوة والتأسي للبشرية جمعاء.

ثالثاً- تُعطي رسالة إلى البشرية جمعاء، بأن المرأة لا تقعد بها أنوثتها عن الوصول إلى الموقعية المتقدمة من الفضل والكرامة.

وأوضح أن المجتمعات البشرية كانت ومازالت تنظر إلى المرأة نظرة دونية، مؤكداً أن المجتمعات المتقدمة المعاصرة كأمريكا وأوروبا تُعاني من التمييز بين الرجل والمرأة مع كل الفرص التي أتيحت للمرأة في تلك المجتمعات. وأضاف قائلاً: هذا

الفارق قد يكون كاشفاً عن حالة طبيعية بسبب الاهتمامات المختلفة للمرأة والحالة المختلفة لها، وفي بعض الأحيان قد يكشف عن وجود نظرة غير متساوية لكفاءة المرأة مع كفاءة الرجل.

وحينما يتحدث رسول الله ﷺ بهذه الأحاديث عن ابنته، وخاصة في تلك البيئة والأجواء فهو يُريد أن يُعطي رسالة إلى البشرية جمعاء، بأن المرأة لا تقعد بها أنوثتها عن الوصول إلى الموقعية المتقدمة من الفضل والكرامة. وفاطمة الزهراء عليها السلام أنثى، ولكن أنوثتها لم تمنعها أن تتبوأ هذه الموقعية الكبيرة المميزة.

وأكد أنه لا ينبغي أن ننظر إلى الناس من خلال جنسهم، ذكراً أو أنثى، وإنما ينبغي أن ننظر إلى حقيقة المواهب والقدرات والسلوك، فالمسألة ترتبط بجوهر الشخصية، وحقيقتها. مضيفاً أن الله تعالى أراد للمرأة أن تقوم بدور هام جداً، فعن طريقها يأتي النسل البشري، وهي التي تحمل الإنسان في أحشائها جَنيناً، ثم هي التي ترضعه، وهي التي تربيه، وهذا الدور يستوجب أن تكون نفسيتها مهيأة، ولذلك فإن الله تعالى جعل المرأة تمتلك مخزوناً من العواطف والأحاسيس أكثر مما يمتلك الرجل، وهذا المخزون يجعل المرأة في وضعية معينة عند بعض الناس.

واستطرد الشيخ الصفار في الحديث عن ضرورة الاهتمام بالمرأة، وخاصة في مرحلة كونها بنتاً، مشيراً إلى الأحاديث التي تُعطي للاهتمام بالبنت أهمية أكبر من الاهتمام بالولد الذكر، كالحديث المروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى على الإناث أرق منه على الذكور، وما من رجل يُدخل فرحةً على امرأة بينه وبينها حرمة إلا فرحه الله يوم القيامة». (الوسائل، ج: ١٥، ص: ١٤). وفي حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: «من دخل السوق فاشترى تحفةً فحملها إلى عياله كان كحاملِ صدقة إلى قوم محاويج وليبدأ بالإناث قبل الذكور، فإن من فرّح ابنةً فكأنما أعتق رقبةً من ولد إسماعيل». (بحار الأنوار، ج: ١٠١، ص:٦٩) مؤكداً أن السبب في التأكيد على الاهتمام بالبنت كونها مرهفة الأحاسيس والعواطف، وينتظرها دورٌ كبير، فيجب أن تُهيأ لذلك، ولا يكون ذلك إلا من خلال إحاطتها بقدرٍ كبيرٍ من الاحترام والحنان والعطف.

وأشار الشيخ الصفار إلى خطورة تقصير العوائل في إشباع الجانب العاطفي للبنت، محذراً من احتمالية استغلال الآخرين من خارج المنزل جوع البنت العاطفي فتُصبح فريسةً في فخ خُدعهم وإغراءاتهم، خصوصاً مع تقدم التكنولوجيا من خلال الإنترنت التي فتحت الآفاق واسعة في هذا المجال. وأخيراً يجب علينا كمسلمين أن نتأمل في الأحاديث الواردة في فضل الزهراء ﷺ ونأخذ منها الدروس والعبر بعيداً عن الخلافات المذهبية، فالزهراء ﷺ رمزٌ وقدوةٌ لعموم المسلمين وليس لطائفةٍ دون أخرى.■

الأحداث الدامية في النجف

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٦ جمادى الآخر ١٤٢٥هـ

* مقاومة الاحتلال أمرٌ مشروع، ولكن التمترس بالأماكن المقدسة وتحويلها إلى ساحةٍ للحرب والصراع أمرٌ مداف.
* أمر المرجعية الدينية بضرورة خروج كل أطراف العنف من النجف الأشرف كان يجب أن يُلتزم به وينفذ.
* الشيعة منزعجون وغاضبون على الأمريكيين والمتواطئين معهم بالدرجة الأولى، وعلى من أعطى الفرصة لهم لإدارة المعركة في المدينة المقدسة.

أدان سماحة الشيخ حسن موسى الصفار القوات الأمريكية والقوات الحليفة، فهي تتحمل القسط الأكبر من المسؤولية لما يجري من أحداث دامية في النجف الأشرف، واعتبر ما يجري فاجعة من الفجائع التي تعيشها الأمة الإسلامية في هذا العصر. وفي الوقت ذاته أدان التمترس بالأماكن المقدسة وتحويلها إلى ساحة للحرب والصراع. وأكد أن مقاومة الاحتلال الأمريكي أمرٌ مطلوب، ولكن الصحن الحيدري ليست الساحة التي ينبغي اختيارها للمقاومة. وأكد على الموقف الذي طالما طرحته المرجعية الدينية العليا في النجف، بضرورة خروج جميع المتقاتلين وأن لا تكون النجف ساحة للقتال، مضيفاً أن بعض الأطراف لا تصيغ سمعاً للمرجعية، مصرةً على

مواقفها، وكانت النتيجة ما يحدث الآن. جاء ذلك في الكلمة التي ألقاها الشيخ الصفار ظهر الجمعة ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ.

تحدث الشيخ الصفار في بداية الكلمة عن غريزة الدفاع عن الذات وأن الله تعالى قد زوّد كل كائن حي بهذه الغريزة، وبإمكانات وقدرات معنوية هي العقل، ومادية هي أعضاء الجسد، وذلل له الإمكانات الموجودة في الكون، وجعل ذلك ساحةً مفتوحةً للجميع، من أجل أن يتمكن كل إنسان فرداً كان أو مجتمعاً من أن يحمي وجوده ومصالحه. ولذلك يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ لاَ دَفْعُ اللَّه النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْض لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّه كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ موضحاً أنَ الآية تؤكد أن هناك توازناً في القوى فليست هناك جهة واحدة تمتلك القوة والآخرون مجردون عنها، وإنما بإمكان أي جهةٍ أن تتسلح بالإمكانات والقوى للدفاع عن نفسها.

وأشار إلى معاني كلمات هذه الآية فقال: صوامع: هي أماكن العبادة عند المسيحيين، تبنى خارج المدن إذ ينعزل فيها بعض الرهبان للعبادة، بيَع: هي الكنائس، أماكن العبادة لعامة المسيحيين، وتكون في المدن، صلوات: هي معابد اليهود، مساجد: هي أماكن العبادة للمسلمين. ويُجيب على سؤال: لماذا تُركز الآية الكريمة على أماكن العبادة؟ بقوله: لأن حرص الناس على أماكن العبادة وحمايتها عادةً ما يكون أكثر من أي مكان آخر. وأضاف: أصل انشداد الإنسان إلى حالة روحية، دينية، له نصيبٌ من الاحترام والاهتمام، مبيناً أن الأحكام الفقهية تنص على عدم جواز الاعتداء على معابد أتباع الديانات الأخرى، مستنكراً على من يُجيز لنفسه الإساءة لمقدسات وأماكن عبادة أتباع الديانات أو المذاهب الأخرى، مؤكداً أن احترام هذه الأماكن احترامٌ لأصل التوجه الديني ولمشاعر الآخرين. «مستشهداً برواية تقول: إن رجلاً قال للإمام الصادق عليه السلام، متحدثاً عن مساجد المخالفين لأهل البيت من بقية المسلمين: إني لأكره الصلاة في مساجدهم، فقال له الإمام عليه السلام: لا تكره ـ إلى أن قال عليه السلام: فأدّ فيها الفريضة والنوافل واقض ما فاتك».

وتحدث الشيخ الصفار عن مكانة النجف الأشرف مؤكداً على أنه مكان مقدّس،

وقداسته نابعة من أن فيه مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، هذا الرجل الذي قد يختلف المسلمون حول مستوى وحجم مكانته، ولكن لا يختلفون حول فضله وأصل عظمة مكانته. وأضاف: إن للنجف تاريخاً علمياً، وأنها أسهمت بشكل كبير في إثراء المعرفة والثقافة الإسلامية، والأدب الإسلامي، وأنها تحتضن لأكثر من ألف سنة حوزةً علميةً من أعرق الحوزات والمعاهد الدينية، وتمتاز عن بقية الحوزات والمعاهد الدينية باستقلاليتها، فلم تكن خاضعةً لأية حكومة من الحكومات، ولا أي سلطة من السلطات. والنجف ترمز إلى المرجعية الدينية لأتباع أهل البيت ﷺ في غالب الأدوار والمراحل الزمنية، إضافةً إلى وجود روايات عند الشيعة حول فضل منطقة النجف، ومنطقة الغري، ومسجد الكوفة.

وأضاف الشيخ الصفار: هذه المدينة المقدسة أصبحت في هذه الفترة مسرحاً لمشاهد الرعب والعنف والدمار والاعتداء على مقدساتها، فقد أصبح مقام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، والصحن الحيدري الشريف، ثكنةً عسكرية، معتبراً ذلك فاجعةً من الفجائع التي تعيشها الأمة الإسلامية في هذا العصر بأن تكون مقدّسات الأمة مستباحة ومنتهكة. وأكد أن قوات الاحتلال الأمريكي تتحمل القسط الأكبر من المسؤولية، باعتبارها قوات احتلال، وأنها تريد إخضاع كل القوى في العراق. فهي لا تريد لأي قوة أخرى أن تكون شامخة وواضحة في العرق. ويُضيف إن الجهات الأخرى التي تريد مقاومة الأمريكيين وتتمترس بالأماكن المقدسة وتحولها إلى ساحة للحرب والصراع مدانةٌ أيضاً. مؤكداً في الوقت ذاته أن مقاومة الاحتلال حقٌ مشروع، بل يكون واجباً ضمن شروطه وضوابطه، ولكن النجف الأشرف ليست الساحة التي ينبغي اختيارها لإدارة المعركة مع الأمريكيين.

واستشهد الشيخ الصفار بموقف الإمام الحسين ﷺ الذي رفض المقترحات الموجهة إليه بالبقاء في بيت الله الحرام والاحتماء به، مبيناً سبب ذلك بقوله لأخيه محمد بن الحنفية: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد ابن معاوية بالحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت. وقال لابن الزبير: لأن أقتل خارجاً منها بشبرين أحب إلي من أن أقتل خارجاً منها بشبر. وعلى العكس من ذلك كان موقف عبد الله بن الزبير

الذي احتمى بالبيت الحرام فكان السبب في استباحة حرمة البيت، وقصف الكعبة المشرفة بالمنجنيق من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي جاء مع جيشه بأمر من عبد الملك بن مروان، ودارت المعركة في ساحة البيت الحرام، وقتل ابن الزبير في وسط البيت.

وعقّب الشيخ الصفار ذلك بقوله: على الإنسان المؤمن أن يحترم المقدسات بأن لا يُعطي الفرصة للأعداء لانتهاكها. مؤكداً على الموقف الذي طالما طرحته المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف، بضرورة خروج جميع المتقاتلين من جميع الأطراف، وأن لا تكون مدينة النجف ساحة للقتال، معبراً عن أسفه، لعدم إصغاء بعض الأطراف لكلام المرجعية الدينية، مصرةً على مواقفها، وكانت النتيجة ما يحدث الآن. وأضاف: قد تكون لهذه الجهات أهداف صحيحة شريفة، ولكن هذه الوسيلة خاطئة، لا يقبلها الشيعة، مؤكداً انزعاج الشيعة وغضبهم على الأمريكيين والمتواطئين معهم بالدرجة الأولى، وعلى من أعطى الفرصة لهم لإدارة المعركة في المدينة المقدسة، وأن أمر المرجعية الدينية بضرورة خروج كل أطراف العنف من النجف الأشرف كان يجب أن يُلتزم به وينفذ، ولكن: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فسماحة الشيخ الصفار لا يبرئ ساحة الاحتلال الأمريكي، ولا القوات الحليفة، فهم مجرمون بعدوانهم السافر على كل العراق، وعلى المقدسات خاصة. ولكن في الوقت نفسه يدين الأطراف التي اختارت المدينة المقدسة حتى تكون ساحةً لمعاركها. ■

مرجعية السيستاني ونهج الاستيعاب

كلمة الجمعة بتاريخ ١١ رجب ١٤٢٥هـ

حوادث العنف والأعمال الإرهابية التي تحصل في العراق، على فظاعتها وبشاعتها، يجب أن لا تحجب أنظارنا عن التأمل في روعة أداء الشعب العراقي لمهامه الوطنية، تطلعاً للاستقلال والحرية وبناء الدولة العصرية الديمقراطية، رغم الظروف الصعبة التي فرضها عليه واقع الاحتلال بعد ثلاثة عقود من الديكتاتورية والقمع والحرمان.

إن مستوى التوافق والقدرة على التعاون، الذي أظهرته النخبة السياسية العراقية، على تنوع أطيافها: القومية والدينية والسياسية، ومع ضخامة التعقيدات الداخلية، وتشابك الإرادات الخارجية من دولية وإقليمية، قد فاق كل التوقعات.

وجاء انعقاد المؤتمر الوطني تتويجاً لهذه المسيرة الرائعة من التوافق، حيث اجتمع ١٣٠٠ شخصية وطنية من الرجال والنساء، ومن مختلف الاتجاهات والشرائح، وأنجزوا اختيار برلمان مؤقت، يتكون من ١٠٠ عضو، لمراقبة أداء الحكومة المؤقتة، والإشراف على انتخابات الجمعية التأسيسية، والاستفتاء على دستور دائم للدولة.

وعلى الصعيد الشعبي العام فإن مسيرات الترحيب الحاشدة التي استقبل بها المرجع الديني السيد السيستاني لدى عودته من لندن بعد تلقي العلاج، واستجابة مئات الألوف للزحف مع موكب سماحته إلى النجف الأشرف، من أجل إنقاذها من حالة الاقتتال والعنف، واصطفاف كل القوى السياسية والعشائرية خلف موقفه ومبادرته السلمية، وقبول جميع الأطراف بها، إن ذلك يمثل تأكيداً جديداً من قبل

الشعب العراقي على أصالته، وتمسكه بهويته الإسلامية، والتفافه حول قيادته الدينية.

لقد عصفت بالشعب العراقي تيارات عنيفة مناوئة للدين، وتشكلت في وسطه مختلف الأحزاب من شيوعيين وبعثيين وقوميين، وكان القاسم المشترك بين هذه الأحزاب حربها على الحالة الدينية، بأساليب الترغيب والترهيب، والتي بلغت قمتها بسياسة القمع والبطش التي لا مثيل لها في التاريخ على يد حزب البعث الصدامي.

ولسنا بحاجة للتذكير بجرائم الحكم البائد في العراق بحق علماء الدين والحوزة العلمية والحركات الإسلامية، ومجمل الحالة الدينية، فقد أصبحت النموذج الأسوأ لسلطة القمع والإرهاب في هذا العصر.

لكننا نشير إلى ما استهدفته هذه السياسة من فصل الشعب العراقي عن قيادته ورموزه الدينية، وجاء الاحتلال الأمريكي، بما يستهدف من مطامع ومشاريع لاستمرار وجوده العسكري ونفوذه السياسي في المنطقة، ليعلن تصديه ومواجهته للمد الأصولي الديني حسب تعبيرهم، حيث صرح المسؤولون الأمريكيون إنهم لن يسمحوا بقيام حكم إسلامي في العراق. في مواجهة كل هذه الجهود المناوئة للدين في الماضي والحاضر، يؤكد الشعب العراقي انحيازه لأصالته، وولاءه لقياداته الدينية.

مرجعية السيستاني

لا بد من الإشادة بميزة هامة اتسمت بها منهجية السيد السيستاني في إداراته للمرجعية الدينية، منذ تصديه لها في أعقاب وفاة السيد الخوئي المرجع الأعلى السابق.

إنها صفة الاستيعاب والتعاطي مع مختلف التوجهات الفكرية والسياسية في ساحة الأمة، وهي صفة تشتد الحاجة إليها في هذا العصر، وخاصة في مثل الساحة العراقية، حيث واقع التنوع السياسي والثقافي يستلزم وجود اعتراف بالتعددية، واستعداد للحوار والتعاون بين الأطراف المختلفة.

إن من أهم عوائق الاستقرار السياسي والتعايش الاجتماعي في مجتمعاتنا هو

سيطرة الآحادية على الواقع السياسي والديني، بما يعني القطيعة والمفاصلة مع الآخر، التي تؤسس للنزاع والاحتراب.

وحين تفتح المرجعية الدينية قلبها للجميع، وتحتضنهم بموقعيتها الأبوية، فإنها تهيئ أرضية التعايش، وتخلق أجواء الاحترام المتبادل، والتعاون المشترك، بما يخدم الوحدة والمصلحة العامة للأمة والوطن.

ولا يعني الحديث عن هذه السمة في مرجعية السيد السيستاني، افتقاد المرجعيات الأخرى لها، لكن درجتها قد تتفاوت بين مرجع وآخر،كما أن للظروف المختلفة دوراً في تجليتها وإبرازها.

بدأت مرجعية السيد السيستاني في ظروف بالغة الصعوبة، حيث استعاد صدام سيطرته على العراق بعد الانتفاضة الشعبية التي أعقبت انسحابه من الكويت، وتصاعد بطشه وقمعه للمرجعية والحوزة العلمية.

من جهة أخرى فإن واقع الطائفة الشيعية قد حصلت فيه تغيرات كثيرة، فهناك نظام حكم تقوده مرجعية دينية في إيران لها تأثيرها وامتداداتها، وهناك عدد من الأحزاب والحركات الفاعلة في الوسط الشيعي، وهناك مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية أخذت موقعيتها في الساحة، كما برزت فيها رموز وشخصيات لها آراؤها واجتهاداتها الفكرية والسياسية.

تجاه هذا التنوع السياسي والثقافي والفئوي والمؤسساتي في الطائفة الشيعية، كانت الحاجة ماسة إلى وجود مرجعية تحتضن كل هذه الأطياف، وتساعدها على تجاوز حالات التباين والصدام، وتوجهها للتعاون في مواجهة الاستحقاقات المصيرية.

وجاءت مرجعية السيد السيستاني لتلبي هذه الحاجة الملحة، فهي منفتحة على جميع التوجهات على اختلافاتها وتبايناتها.

آليات ومصاديق الانفتاح

من خلال المتابعة والمواكبة لمسيرة مرجعية السيد السيستاني، يمكننا أن نرصد

الآليات والمصاديق التي اعتمدتها في منهجية الانفتاح واستيعاب أطراف الساحة الشيعية في النقاط التالية:

١. اتجاهات الوكلاء:

من المعروف أن المرجعية الدينية تتواصل مع جمهور الأمة عبر شبكة من الوكلاء، الذين ينقلون للجمهور فتاوى المرجع وآرائه، ويستلمون الأخماس والزكوات والحقوق الشرعية من المقلدين، ويتصدون لإدارة الشؤون الدينية بمباركة المرجع وتأييده.

ويتفاوت المراجع في درجة المرونة والحذر في منح وكالاتهم، حيث يتشدد البعض فلا يعطي وكالته إلا للمتوافقين معه في كل توجهاته وآرائه. أو يضع (فيتو) استثناءً على بعض الاتجاهات.

لكن مرجعية السيد السيستاني اعتمدت سياسة الانفتاح على كل الاتجاهات المختلفة، وباستقراء توجهات من يحملون الوكالة عنه، تجد بينهم التقليدي المحافظ، والثوري الحركي، والمتفرغ للشأن الديني، والمنشغل بالأمور السياسية، ومن يقلّد سماحته، ومن يدعو إلى تقليد مراجع آخرين وهو يحمل وكالة السيد السيستاني.

وقد يتعرض مكتب السيد السيستاني في بعض الأحيان لضغوط ناتجة من الخلافات المرجعية والصراعات الفئوية، لمنع إصدار الوكالة، أو لسحبها من شخص ما أو جهة ما، لكنه لا يخضع ولا يستجيب لتلك المحاولات التي تريد حشر المرجعية في تلك الصراعات.

٢. شمولية الدعم والمساعدة:

لا تتردد مرجعية السيد السيستاني ممثلة في مكتبه الخاص بالنجف الأشرف، وممثلياته في الخارج في مد يد العون والدعم لمختلف الجهات في أنشطتها الإنسانية والثقافية والاجتماعية، وقلَّ أن يردوا طالباً للمساعدة لحاجته الشخصية أو لنشاطه العام.

وقد اطلعت شخصياً على حالات كثيرة من الدعم المادي والمعنوي لأشخاص

ومؤسسات متعددة الاتجاهات، وربما شمل الدعم من لهم مواقف سلبية تجاه مرجعيته. فالمرجعية ترى نفسها راعية لكل المصالح الدينية والاجتماعية.

٣. التواصل:

لا ترفض مرجعية السيد السيستاني استقبال أي شخص أو جهة مهما اختلفت الآراء والتوجهات، ومعروف أن جميع القيادات السياسية والدينية والاجتماعية في الساحة العراقية قد زارت سماحته، ورأت منه الاستقبال الحسن، وكذلك فإن ممثليات سماحته في الخارج تتواصل مع كل الأطياف والجهات، لا تطرد أحداً ولا ترفض جهة، بغض النظر عن اختلاف الآراء والانتماءات والتوجهات.

وقد لاحظت شخصياً المدى الواسع لتواصل وعلاقات مكتب سماحته في قم وفي لبنان وفي سوريا مع مختلف الجهات والتوجهات الدينية والسياسية والثقافية.

٤. المرونة في المواقف:

لا تتخذ مرجعية السيد السيستاني مواقف حادّة تجاه الآخرين عند اختلاف الرأي والموقف، بل تعتمد الحوار، وتراهن على الإصلاح، والتقليل من آثار ما تراه خطأً، والحد من مضاعفاته وتطويقه.

إنها لا تستخدم أسلوب إصدار الفتاوى والبيانات والتعبئة والتحريض ضد الجهة المخالفة، وتتحمل الكثير من الضغوط على هذا الصعيد.

المنهجية الناجحة

ويبدو لي أن لهذه المنهجية جذوراً فكرية وعمقاً أخلاقياً في شخصية السيد السيستاني. تتجلى في النقاط التالية:

١ . إن التعددية واختلاف الآراء والاجتهادات أمر طبيعي، وواقع معاش في حياة المجتمعات، فلا يمكن أن يتقولب الشعب العراقي مثلاً، أو الطائفة الشيعية على مستوى العالم ضمن قالب واحد، ورأي واحد في مختلف الشؤون.

فلا بد من الاعتراف بحرية الرأي وحق الاجتهاد، فيما عدى الثوابت الدينية

القطعية، وأن تأخذ المرجعية دور الإرشاد والتوجيه لا دور الوصاية والقمع.

٢ . إن حفظ وحدة الأمة والمجتمع مقصد أساس من مقاصد الدين، والمرجعية الدينية هي الجهة الأقدر على تحقيق هذا الهدف الخطير، ولا يتأتى ذلك إلا بانفتاحها على الجميع وشمولهم برعايتها، أما حينما تتخذ مواقف عدائية ضد هذا الطرف أو ذاك، فإن ذلك سيخلق انقساماً في المجتمع، وتمزقاً في أوصاله. وتكون المرجعية سبباً وغطاءً للفتنة والصراع، مما يتيح الفرصة للعناصر المصلحية داخل المجتمع، والجهات المعادية من خارجه لتحقيق مآربها ومطامعها.

٣ . ومن أجل حفظ مقام المرجعية وتكريس موقعها الأبوي، لا بد من هذه المنهجية الحكيمة، وإلا فإن الأطراف المتُجاهَلَة والمهمشّة في المجتمع من قبل المرجعية، أو المتضررة بسببها، لن تحترم مقام المرجعية، ولن تنظر لها بارتياح، وقد تقوم تجاهها بأدوار مسيئة مناوئة.

٤ . إن تصحيح الأخطاء والتقليل من أضرارها في الآراء والمواقف هو ما يجب أن تسعى إليه المرجعية، وإبقاء خطوط التواصل مع مختلف الأطراف هو الذي يمكنّ المرجعية من ذلك، أما القطيعة والمناوئة فإنها قد تدفع الطرف الآخر إلى مزيد من التحدي والتصعيد، وتفوّت فرص الإصلاح والتقريب.

وأحداث النجف الأشرف الأخيرة شاهد واضح على هذه الحقيقة، فلولا المرونة في موقف السيد السيستاني تجاه السيد مقتدى الصدر وتياره، وعدم اتخاذ أي موقف عدائي حادّ، لما استطاع السيد السيستاني إنجاح مبادرته لإنقاذ النجف من حالة العنف والدمار.

إن الاختلاف والتباين واضح جداً بين آراء ومواقف السيد السيستاني وبين ممارسات السيد مقتدى الصدر وتياره، ورغم كل الاستفزازات التي استهدفت السيد السيستاني والإساءات التي وجهت إليه، إلا أنه لم يتخذ موقفاً عدائياً حاداً، بل استمر يوجه النصح ويبدي الرعاية للجميع، وقد استقبل السيد مقتدى الصدر قبل سفره للعلاج، ثم استقبله في الساعات الأولى لعودته إلى النجف الأشرف، وكانت مبادرته تراعي حقوق وكرامة كل الأطراف، وتتجه لنزع فتيل الأزمة وإنهاء العنف والقتال،

وحماية مقام الإمام علي عليه السلام من الهتك والعدوان.

ونجاح هذه المبادرة السلمية، وآثارها الايجابية على الساحة العراقية، وما تركته من أصداء عظيمة على المستوى الدولي، دليل على نجاح منهجية السيد السيستاني في الاستيعاب، وحفظ موقع المرجعية، وتفعيل دورها الأبوي في الأمة.

نسأل الله تعالى أن يمنّ على سماحته بالشفاء والعافية وأن يحفظه وجميع المراجع الكرام، وأن يوفق الشعب العراقي لتجاوز هذه الظروف الصعبة، ليستعيد استقلاله وحريته، ويبني دولته على أساس الديمقراطية والعدل.■

قضايا العقيدة والتواصل المعرفي

كلمة الجمعة بتاريخ ١٨ رجب ١٤٢٥هـ

لقد شهدت ساحة الأمة في هذا العصر، بداية تواصل معرفي يبشّر بالخير بين نخبها العلمية والفكرية لكنها اتجهت غالباً صوب المجالين الفقهي والثقافي.

ففي المجال الفقهي صدرت عام ١٩٦١م موسوعة جمال عبدالناصر الفقهية من القاهرة، لتذكر آراء المذاهب الإسلامية في مسائل الفقه جنباً إلى جنب، المذاهب الأربعة والمذهب الظاهري ومذهب الإمامية ومذهب الزيدية ومذهب الاباضية.

وصدرت مجموعة من الكتب الفقهية التي تتناول آراء مختلف المذاهب في جميع أبواب الفقه الإسلامي أو بعضها. ككتاب (الفقه على المذاهب الخمسة) للشيخ محمد جواد مغنية، وموسوعة (الفقه الإسلامي وأدلته) للدكتور وهبة الزحيلي، وكتاب (الأحوال الشخصية) للشيخ محمد أبو زهرة، وكتاب (أحكام الأسرة في الإسلام) للدكتور محمد مصطفى شلبي، وغيرها كثير.

وكان تأسيس (مجمع الفقه الإسلامي) بالقرار الصادر عن مؤتمر القمة الإسلامي الثالث المنعقد بمكة المكرمة، بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٤٠١هـ الموافق ٢٨ يناير ١٩٨٩١م خطوة رائدة على هذا الصعيد.

حيث يتكون هذا المجمع من علماء وفقهاء يمثلون كل الدول الإسلامية الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي بمذاهبها المختلفة، من السنة والشيعة والزيدية والاباضية.

وينتظم أعضاؤه في شعب متخصصة لها لجان فرعية، ومن شعبه شعبة التقريب بين المذاهب، وفي كل دورة من دورات المجمع تناقش قضية أو أكثر من قضايا الفكر والفقه الإسلامي، حسب تخطيط مسبق من قبل الأعضاء المشاركين. كما تصدر عن المجمع مجلة تتضمن البحوث المقدمة والمداخلات والتعقيبات، بعنوان (مجلة مجمع الفقه الإسلامي) وقد صدر منها أربعون مجلداً.

ومن الانجازات الطيبة التي قام بها مجمع الفقه الإسلامي لتفعيل حركة التواصل المعرفي بين المذاهب الإسلامية، ما قرره المجمع في دورته الثالثة المنعقدة بعمّان ـ الأردن بتاريخ ٨ صفر ١٤٠٧هـ من تشكيل لجنة لدراسة مشروع تحت اسم معلمة القواعد الفقهية يستهدف الدراسة المقارنة للقواعد الفقهية في شتى المذاهب، وبعد سنوات عقدت ندوة خاصة لمتابعة المشروع انتهت بالاتفاق على مقترح للوفد الإيراني يتلخص في أن يقوم ممثلوا كل مذهب بانتخاب عمدة الكتب الأصيلة الفقهية والأصولية لديهم، ثم استخلاص القواعد منها، مع الإشارة إلى المصادر في كل كتاب. ويعتمد ذلك مرجعاً ومصدراً لرأي المذهب على هذا الصعيد.

وقد أنجز الجانب الإيراني مهمته بتشكيل لجنة من الحوزة العلمية قامت بإعداد كتاب جامع للقواعد الأصولية والفقهية للمذهب الإمامي طبع في ثلاثة مجلدات، هذا العام ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

أما على الصعيد الثقافي: فحركة التواصل بين مفكري الأمة وعلمائها ومثقفيها من مختلف المذاهب والتيارات أقوى وأنشط، فهناك أكثر من مؤتمر ولقاء يعقد كل عام في مختلف أنحاء العالم، لتناول قضايا الإسلام وأوضاع الأمة، وهناك عدد من المجلات الفكرية الثقافية: العامة أو المتخصصة التي يشارك في تحريرها كتاب من مختلف الاتجاهات والمذاهب في الأمة.

ضعف التواصل عقدياً

لكن مجال البحوث العقدية، وميدان علم الكلام، هو ما تشكو فيه حركة التواصل المعرفي بين مذاهب الأمة وتياراتها من الخمول والركود.

حيث لا زال هذا الميدان ساحة للصراع، ومعتركاً للنزاع، تسود أجواءه حالة التوتر، وتسيطر على حركته حالة التشنج.

ويبدو لي أن العلماء الناضجين في الأمة لم يولوا هذا المجال ما يستحق من عناية واهتمام، وتركوه لتفاعلات تراث العصور الماضية، بما فيه من خصومات وخلافات، فأصبح ساحة للقوى المتطرفة المتعصبة من مختلف المدارس والمذاهب.

وأكبر شاهد على ذلك كتابات التهريج ضد هذا المذهب أو ذاك، وفتاوى التكفير ضد هذه الطائفة أو تلك، والمناظرات غير العلمية التي تبثها بعض الفضائيات، والمشتملة على كثير من الإثارات والمهاترات التي تؤجج نار العداوة والبغضاء بين المسلمين.

وعلى شبكة الانترنت تخصصت مواقع طائفية كثيرة لتبادل الاتهامات والمطاعن والسباب والشتائم.

ولا شك أن القضية العقدية هي الأكثر أهمية على المستوى الديني، فهي أساس الدين وجوهره وعمقه وأصله، كما أن لها تأثيرها الكبير على مشاعر الإنسان وتوجهاته السلوكية والعملية.

وإذا كان التعارف والتواصل مطلوباً بين أبناء الأمة في مختلف المجالات، فهو في المجال العقدي أكثر أهمية وفائدة.

وذلك للأسباب التالية:

أولاً: يساعد الإنسان المسلم على اكتشاف الحق ومعرفة الصواب في مسائل العقيدة، عن طريق اطلاعه على مختلف الآراء، وفهمه لأدلتها، فليس صحيحاً أن يسترسل الإنسان في معتقداته مع ما ورثه من آبائه وأجداده، أو ما ألفه في بيئته ومحيطه، دون بحث وتمحيص، ودليل وبرهان.

ثانياً: إن القراءة الموضوعية لآراء الفرق والاتجاهات العقدية الأخرى، تمكن الإنسان من معرفة الآخرين على حقيقتهم وواقعهم، بينما تكون القطيعة المعرفية سبباً للجهل بالآخر، ورسم صورة غير دقيقة عن توجهاته.

إن بعض المسلمين يسيئون الظن ببعضهم الآخر، ويحكمون عليهم أحكاماً جائرة، بناءً على مقدمات خاطئة، ومعلومات مغلوطة. قد تؤخذ عن طريق مناوئيهم وخصومهم.

وهذا ما حذر منه القرآن الكريم ﴿**فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ**﴾.

ولعل أكثر المصادر التي تتحدث عن الملل والنحل، والمذاهب والفرق، مصابة بهذا الخلل الكبير، والمؤسف أن مصدراً حديثاً هو (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة) أصدرته مؤسسة إسلامية عالمية هي (الندوة العالمية للشباب الإسلامي) وروجته بشكل مكثف وبطبعات متكررة، لكنه يقدم سائر المذاهب والاتجاهات الإسلامية المخالفة للنهج السلفي، بصورة مشوهة، وبأسلوب يقطر حقداً وتعصبا.

وكأن الجهة التي أصدرته تريد نشر الخصومة والعداوة بين أجيال الأمة المعاصرة. وما نأمله هو سرعة المبادرة لإعادة النظر في موادّ هذه الموسوعة من قبل الجهة التي أصدرتها.

إن مثل هذه الجهود البغيضة تؤكد ضرورة الانفتاح والتواصل المعرفي المباشر بين المدارس الكلامية والاتجاهات العقدية في الأمة، وخاصة على صعيد النخبة العلمية.

ثالثاً: إن التواصل العلمي، وتدارس القضايا بموضوعية وإخلاص، على أي صعيد ديني ومعرفي، يتيح المجال لبلورة الرأي، وتكامل الفكر، وحل العُقَد، ومعالجة الثغرات.

وكما يمكن التقارب والتكامل في معالجة قضايا الفقه والثقافة، فإنه يمكن الوصول إلى بعض المعالجات وتصحيح بعض الآراء في المسائل الكلامية والعقدية.

خاصة وأن بعض الخلافات كانت تغذيها عوامل سياسية ومصلحية، في التاريخ الماضي، وقد تجاوزتها الأمة.

رابعاً: هناك مسائل جديدة في علم الكلام تشكل تحدياً أمام العقيدة الإسلامية ككل، وهي تستوجب تعاوناً بين علماء الأمة المتخصصين من مختلف المذاهب، لتوضيح الرؤية الإسلامية تجاه هذه المسائل المطروحة في أذهان الجيل المسلم المعاصر.

لهذه الأسباب وغيرها يتوجب الاهتمام ببعث حركة علمية معرفية، للتواصل والانفتاح بين علماء الأمة المهتمين ببحوث العقيدة وعلم الكلام، من مختلف المدارس والمذاهب.

مقترحات للتواصل

إن ساحة الأمة وخاصةً في هذا العصر الذي تشتد فيه التحديات، وتتسم أجواؤه بالانفتاح المعرفي، بحاجة إلى مبادرات جريئة لكسر حالة الجمود والقطيعة على الصعيد العقدي معرفياً، وتوفير فرص التواصل العلمي، وعرض الآراء والأفكار بموضوعية وإنصاف، ويمكن أن تكون المقترحات التالية سبيلاً للتواصل:

إنشاء كلية لدراسة العقائد وعلم الكلام المقارن على نسق دراسة علم الفقه المقارن.

تشكيل مؤسسة علمية إسلامية، تهتم بالدراسات والبحوث العقدية، بمشاركة علماء ومفكرين يمثلون مختلف المدارس الكلامية في الأمة، على غرار مجمع الفقه الإسلامي. ونتمنى تكرار التجربة الرائدة لمجمع الفقه الإسلامي التي سبقت الإشارة إليها: من تكليف ممثلي كل مذهب بتقديم رأي مذهبهم على صعيد القواعد الأصولية والفقهية، نتمنى حصول مثل ذلك على الصعيد العقدي أيضاً، بأن يقدم العلماء من كل مذهب آراءهم العقدية والكلامية بأسلوب علمي موثق، ليكون ذلك هو المصدر والمرجع المعتمد لدى الآخرين عنهم.

إصدار مجلة متخصصة ببحوث علم الكلام والدراسات العقدية، تنفتح على مختلف التوجهات، بنشر كتاباتها العلمية، وإجراء الحوارات مع شخصياتهم المعرفية.

عقد مؤتمرات تخصصية تناقش قضايا العقيدة وعلم الكلام، تشارك فيها مختلف المدارس، ويبحث كل مؤتمر قضية محددة، مثلاً: مسألة العصمة، أو القضاء والقدر، أو أسماء الله وصفاته، أو الإمامة... وكذلك بحث المسائل الجديدة في علم الكلام كالتعددية الدينية، والعلاقة بين الدين والعلم، والهرمنوتيك أو تفسير النصوص..

قد يقال إن ما تواجهه الأمة من تحديات سياسية واقتصادية أولى بالاهتمام من هذه البحوث النظرية، لكني أجيب مع إدراكي لخطورة التحديات المذكورة، بأن إهمال ساحة البحث العقدي، يسبب الكثير من عوامل الخلل والإضعاف لقدرة الأمة على مواجهة تلك التحديات، ومن مظاهر الخلل إتاحة الفرصة للمتعصبين والمغرضين، ليعبثوا بوحدة الأمة، ويمزقوا صفوفها بطروحاتهم الطائفية المتشنجة، فلا بد من مواجهتهم بالطروحات العلمية الموضوعية.

كما أن لقضايا العقيدة تأثيراً لا يمكن إنكاره وتجاهله في نفوس أبناء الأمة، وتشكيل فكرهم الديني، وعلاقاتهم مع بعضهم، فلماذا نترك هذه القضايا الهامة خاضعة لتأثير الموروث التاريخي، وضمن حالة المفاصلة والقطيعة، ولغة الانفعال والعاطفة؟ أليس من الأفضل الارتقاء بالشأن العقيدي إلى لغة العلم والمعرفة، وضمن أفق التواصل والحوار.

القرآن دعوة إلى الانفتاح

لن تجد في أي ثقافة من الثقافات دعوة إلى الانفتاح المعرفي أوسع مما دعت إليه الآية الكريمة: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾[1].

إنها تزف البشارة من الله تعالى لمن يتصفون بالانفتاح على المعرفة، وممارسة النقد والتقويم الموضوعي، فهم يبحثون عن الآراء والأفكار، حيث ﴿**يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ**﴾، والاستماع درجةٌ متقدمة على السماع، لأن الاستماع يدل على قصد واهتمام

(١) سورة الزمر الآية: ١٧، ١٨.

بينما السماع قد لا يكون كذلك. وبعد الاستماع والإطلاع على مختلف الآراء، تأتي مهمة النقد والتقويم، لاختيار الرأي الأصوب والفكرة الأصح، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

فالانفتاح المصحوب بإعمال الفكر، واسترشاد العقل، لا خوف منه ولا ضير فيه، بل هو طريق الهداية إلى الحق والخير.

قال ابن عاشور في تفسيره للآية الكريمة: «والتعريف في (القول) تعريف الجنس، أي يستمعون الأقوال مما يدعو إلى الهدى مثل القرآن وإرشاد الرسول ﷺ، ويستمعون الأقوال التي يريد أهلها صرفهم عن الإيمان من ترهات أئمة الكفر فإذا استمعوا ذلك اتبعوا أحسنه وهو ما يدعو إلى الحق»[١]

وفي الآية الكريمة دلالتان هامتان:

الأولى: تأكيد الثقة بعقل الإنسان، فهو المرجعية المعتمدة للتمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر.

الثانية: الثقة العالية للدين بأحقيته وأفضليته، لذلك فهو لا يخشى من انفتاح أبنائه على غيره من الأديان والآراء، إذا ما عرفوا حقائق الدين واستخدموا عقولهم في المقارنة والتمييز.

وهناك نصوص دينية أخرى، تشجع الإنسان المؤمن على أن يتطلب كل فكرة نافعة، بغض النظر عن مصدرها. كالحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»[٢]، وروي عن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ قوله: «الحكمة ضالة المؤمن فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق

---

(١) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج ٢٤ ص ٥١، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م بيروت ـ مؤسسة التاريخ.
(٢) الترمذي: محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حديث رقم ٢٦٨٧، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

بها وأهلها»[١]. وفي كلمة أخرى عنه ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق»[٢].

مع وضوح هذه الرؤية الإسلامية إلا أن حالات التعصب المذهبي أصابت بعض أوساط نخب الأمة بداء الانغلاق والقطيعة المعرفية، فيما بين المدارس والاتجاهات الفكرية في الأمة.

ومن المؤسف أن نقرأ لبعض علماء المسلمين أنهم يفتخرون بتجاهلهم للرأي الآخر، وإعراضهم عن مجرد قراءته والإطلاع عليه.

فمثلاً نقرأ ما كتبه الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (توفي ٧٤٨هـ) وهو عالم مؤلف شهير، حينما يُترجم في كتابه (سير أعلام النبلاء) للشيخ المفيد محمد بن النعمان البغدادي (توفي ٤١٣هـ) وهو من أبرز علماء الشيعة ومقرري آرائهم العقدية، فإن الشيخ الذهبي يحمد الله تعالى أنه لم يقرأ شيئاً من مؤلفات هذا العالم الذي يُمثل مدرسةً فكرية عقدية في ساحة الأمة.

والغريب أن الشيخ الذهبي ينقل كلمات الإشادة والإطراء من قبل العلماء والمؤرخين بشخصية الشيخ المفيد، وأن من صفاته الاهتمام بالإطلاع على كتب المخالفين لمذهبه فيقرأها ويحفظها!!

يقول الذهبي: عالم الرافضة، صاحب التصانيف، الشيخ المفيد، واسمه: محمد بن محمد النعمان، البغدادي الشيعي، ويُعرف بابن المعلّم، كان صاحب فنون وبحوث وكلام واعتزال وأدب، ذكره ابن أبي طي في تاريخ الإمامية، فأطنب وأسهب وقال: كان أوحد في جميع فنون العلم: الأصلين والفقه والأخبار ومعرفة الرجال والتفسير والنحو والشعر. وكان يُناظر أهل كل عقيدة مع العظمة في الدولة البويهية، والرتبة الجسيمة عند الخلفاء، وكان قوي النفس كثير البر، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، يلبس الخشن من الثياب، وكان مديماً للمطالعة والتعليم، ومن أحفظ الناس. قيل: إنه ما ترك

(١) الريشهري: المحمدي، ميزان الحكمة، رقم ٤٢١٠.
(٢) نهج البلاغة،قصار الكلمات، رقم ٨٠.

للمخالفين كتاباً إلا وحفظه، وبهذا قدر على حل شبه القوم، وكان من أحرص الناس على التعليم... إلى أن قال: مات سنة ثلاثة عشر وأربع مائة، وشيعه ثمانون ألفاً، وقيل بلغت تواليفه مائتين، لم أقف على شيءٍ منها ولله الحمد[١].

وقد تجد مثل هذه الحالة في أتباع مختلف المذاهب، فلابد من توفير أجواء دافعة للتواصل، لتتجاوز الأمة حالات القطيعة، وعوامل الفرقة والتمزق.■

(١) الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج ١٧ ص ٣٤٤، الطبعة التاسعة ١٩٣٩م،بيروت-مؤسسة الرسالة.

الفقيه ومتغيرات البيئة الاجتماعية

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٥ رجب ١٤٢٥هـ

تختلف أوضاع المجتمعات الإسلامية باختلاف البلدان التي يعيشون فيها، والبيئات التي ينتمون إليها، حيث تتفاوت طبيعة الأنظمة والظروف السياسية، بين وضع سياسي مستقر، ووضع قلق مضطرب، وبين نظام يتيح فرصة المشاركة السياسية وحرية الحركة والتعبير، وآخر تنعدم في ظله تلك الفرص، وقد يكون النظام ملتزماً بمبادئ الإسلام وشريعته، أو يكون علمانياً محارباً للدين، أو محايداً تجاهه.

كما تتفاوت الظروف والأوضاع الاجتماعية: من حيث التجانس أو التنوع القومي والديني، ومن حيث التوازن والاستقرار في العلاقة بين الأطراف المتنوعة في الوطن الواحد.

وهناك اختلاف على مستوى الثقافات والعادات والأعراف السائدة في كل مجتمع. كما أن لطبيعة الظروف الحياتية والاقتصادية المختلفة انعكاسات على أنماط التفكير والسلوك في المجتمعات، بين مجتمع حضري وآخر بدوي، ومجتمع زراعي وآخر صناعي، ومجتمع يعيش الرخاء والوفرة المادية، وآخر يعاني من الأزمات والصعوبات الاقتصادية.

هذا الاختلاف في أوضاع وظروف المجتمعات، يُنتج اختلافاً في ألوان التحديات والإشكاليات التي تواجهها، وحين تتطلب هذه التحديات والإشكاليات معالجات شرعية، وتوجيهاً دينياً، فإن الفقهاء هم الجهة التي يُرجع إليها، ويُلجأ لها لأخذ أحكام الدين، وآراء الشرع، في النوازل والحوادث الواقعة.

وبما أن بعض المجتمعات قد تخلو من وجود فقهاء في أوساطها، يعايشون معها التحديات التي تواجهها، ويدركون بالمباشرة انعكاسات الظروف والأوضاع على الأبعاد المختلفة من حياتها، فإنها حينئذ إما أن تعيش الحاجة والفراغ في مجال التوفر على معالجات وحلول شرعية لقضاياها ومشاكلها، وإما أن تلجأ إلى الاستفادة من آراء وطروحات الفقهاء من خارج محيطها وبيئتها.

وهنا قد تثار إشكالية تتعلق بمدى قدرة الفقيه من خارج البيئة الاجتماعية، على التشخيص الدقيق للموضوعات التي تتطلب الرأي الشرعي، وفيها ما يتعلق بالشأن السياسي، وما يرتبط بالواقع الاجتماعي، وما يلامس الأمر الاقتصادي، أو يدخل في نطاق المسألة الثقافية.

المرجعية والضوابط الشرعية

لابد من التأكيد هنا بأن للمرجعية الدينية شروطاً ومواصفات ليس من بينها الاعتبارات المادية والاجتماعية، فمن يرجع إليه في أخذ الحكم الشرعي، يجب أن يكون فقيهاً، أي مجتهداً قادراً على استنباط الحكم الشرعي من مصادره المقررة، وأن يكون عادلاً نزيهاً لا يخالف في سلوكه وممارساته شيئاً من أوامر الدين. وقد تشترط فيه الأعلمية بأن يكون الأعلم من غيره، كما هو الرأي المشهور لفقهاء الشيعة المعاصرين.

أما الاعتبارات المادية: كالنسب، أو القومية، أو الجنسية بأن يكون من رعايا هذه الدولة أو تلك، فليس لها اعتبار في اختيار المرجع، إذا ما فقدت الشروط الأساسية المطلوبة.

وبحمد الله تعالى فقد بقيت المرجعية الدينية بعيدة عن تأثير هذه الاعتبارات غالباً، فقد يكون المرجع الديني عربياً أو فارسياً أو تركياً، أو عراقياً أو إيرانياً أو باكستانياً أو غير ذلك، وقد يكون هاشمياً في نسبه، أو ينتمي إلى نسب آخر.. وبقي مقياس الاختيار غالباً هو الكفاءة العلمية ومستوى العدالة والالتزام الديني.

والحديث عن أهمية وجود الفقيه ضمن البيئة المحلية الاجتماعية، لا يعني

تجاوز تلك الضوابط الشرعية لصفات المرجع الديني، وإنما هي عنصر إضافي إلى جانب تلك المواصفات.

كما أنه لا تلازم بين وجود الفقيه المحلي وبين المرجعية والتقليد، فقد يكون المرجع خارج البلاد، وضمن الحوزات العلمية المركزية، كالنجف الأشرف وقم، لتوفره على صفة الأعلمية، ويكون وجود الفقيه في المجتمع وإن لم يكن مقلداً، عاملاً مسانداً ومساعداً للمرجعية، تعتمد عليه في تشخيص الموضوعات، وتقويم الظروف، وتقديم المعالجات، وتناط به مهمة القضاء والقيام بالأمور الحسبية الأخرى. وهذا ما حصل في الماضي ويحصل بالفعل في عدد من البلدان والمجتمعات.

ومن أواخر الأمثلة والشواهد دور السيد موسى الصدر (١٩٢٨ ـ ١٩٧٨م)، والشيخ محمد مهدي شمس الدين (١٣٥٠ ـ ١٤٢١هـ) في لبنان فقد كانا فقيهين، قام كل منهما بدور قيادي في الساحة اللبنانية، وقدما معالجات نافعة لمشكلات المجتمع هناك، وكانا على تواصل وتنسيق مع المرجعية الدينية.

وفي القطيف يمكن الإشارة إلى دور الفقيه الشيخ علي الجشي (١٢٩٦ ـ ١٣٧٦هـ)، والذي تولى القضاء وكان محل ثقة المرجعية واعتمادها.

والفقيه الشيخ محمد الهاجري (١٣٤٤ ـ ١٤٢٥هـ)، الذي فجعنا بفقده هذه الأيام يشكل نموذجاً لهذه الحالة على الساحة الأحسائية. وهناك نماذج مماثلة في ساحات أخرى.

الحكم الشرعي هل يتأثر بالبيئة؟

قد يؤثر اختلاف الأوضاع والبيئات الاجتماعية في استنباط الحكم الشرعي من قبل الفقيه، أو في كيفية تطبيقه، ويتضح ذلك من خلال الموارد التالية:

١. تغيّر العناوين والموضوعات من زمن لآخر ومن بيئة إلى أخرى، ومن أمثلته المتداولة بين الفقهاء صدق المثلي والقيمي، حيث كانت الألبسة والأواني تعد من القيميات في الماضي لأن صناعتها يدوياً كانت تسبب اختلافاً في مواصفاتها يؤثر

في قيمتها، لكنها الآن تعد من المثليات. حيث تنتجها الآلات والمصانع فهي متماثلة متشابهة.

والقيمي في الاصطلاح الفقهي: ما لا يوجد له مثل في السوق، أو يوجد لكن مع التفاوت المعتدّ به في القيمة. أما المثلي فهو ما يوجد مثله في السوق بدون تفاوت يعتدّ به.

وهناك بعض المسائل الشرعية التي ترتبط بهذا التغيّر في صدق القيمي والمثلي، كضمان ردّ المغصوب إذا تلف بمثله إن كان مثلياً، وبقيمته إن كان قيمياً. وكإقراض المثلي والقيمي وما يثبت عوضاً له في الذمة.

ومن أمثلة تغيّر العناوين: صدق المكيل والموزون على شيء، حيث إن الحكم الشرعي بيع المكيل بالكيل، والموزون بالوزن، لا بالعدّ، ولكن هذا يختلف حسب اختلاف البيئات والمجتمعات، ويلحق بكل حكمه. فقد يباع البيض مثلا في بعض المناطق بالوزن، وفي أخرى بالعد. فلو باعه بالعد في المناطق الأولى، أو بالوزن في المناطق الأخرى لم يكن البيع صحيحاً. وكذلك لو باع البيضة ببيضتين والجوزة بجوزتين في الأماكن التي يباع فيها بالعد لا يكون من الربا، بينما يكون رباً في المناطق التي يباع فيها بالوزن عند اختلاف وزنها.

وكذلك فإن المصاديق الخارجية لبعض العناوين التي ترتبط بها أحكام شرعية قد تختلف باختلاف البيئات، فيختلف الحكم تبعاً لذلك، فالاستطاعة والفقر والغنى، ومقدار النفقة، والمعاشرة بالمعروف للزوجة، مصاديقها وحدودها متفاوتة من مجتمع لآخر.

٢.ختلاف المقاصد والملاكات، فالأحكام الشرعية لها استهدافات ومناطات تابعة للمصالح والمفاسد، وحين يكون المناط والمقصد واضحاً أمام الفقيه، فإنه يأخذه في الاعتبار حين تختلف الظروف والبيئات، فيتغير الملاك، ويتغير الحكم تبعاً لذلك.

فمثلاً: كان بيع الدم محرماً في الماضي لعدم وجود منفعة مباحة له، لكن بيع

الدم لم يعد الآن حراماً لوجود الحاجة إليه لإسعاف المرضى.

وكان التصرف في جسد الميت بقطع شيء منه حراماً، لأنه كان يحصل في الماضي بقصد التمثيل والانتقام، لكنه الآن أصبح ضرورياً في بعض الحالات لزرع الأعضاء وإنقاذ حياة المشرفين على الموت، فلا يعتبر حراما لهذه الغاية.

٣. طور أساليب الحياة بما يؤثر على كيفية تطبيق الأحكام الشرعية، فإذا كانت الغنائم الحربية سابقاً في حدود السيف والرمح والفرس وما شابه، فإنها من نصيب المقاتلين بعد تخميسها، لكن الغنائم الحربية اليوم أصبحت في مستوى الدبابات والمدرّعات والقذائف والصواريخ، فكيف يطبق الحكم الشرعي بتوزيعها على المقاتلين الآن؟

وكذلك الحال في حكم امتلاك الإنسان للمعدن الذي يكتشفه في أرضه، كيف يمكن الآن تطبيقه في مجال آبار النفط، فهل تكون هذه الثروة الهائلة ملكاً للأشخاص الذين تكتشف في أراضيهم؟

٤. مراعاة المصلحة العامة وتقدير الحاجات والضرورات: ففي الفقه الإسلامي أكثر من عنوان يتيح للفقيه المتصدي، أن يفتي بأولوية حكم شرعي على آخر عند التزاحم، وأن يفتي بتجاوز بعض الأحكام بمقتضى العناوين الثانوية كالضرورة والاضطرار، والضرر والضرار، والعسر والحرج، والأهم فالأهم، والذرائع للواجبات والمحرمات، والمصالح العامة للأمة. وهي عناوين تعطي المجال للفقيه لمعالجة التزاحم بين الأحكام والأزمات الاجتماعية.

إن هذه الموارد وأمثالها تؤكد وجود مساحة من التشريع تتأثر باختلاف الأزمنة والأمكنة والبيئات، وعلى الفقيه مراعاة ذلك في استنباطه للأحكام الشرعية، ولعل من أهم مبررات وجود الفقيه وإيجاب الشارع المقدس طلب الفقاهة على أبناء الأمة على نحو الوجوب الكفائي، هو تصدي الفقهاء لهذه المهمة، بتجديد البحث والنظر في الأحكام الشرعية التي يمكن تأثرها باختلاف البيئات وتطور الحياة.

نصوص وشواهد

جاء في نهج البلاغة أنه سئل الإمام علي عليه السلام عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «غيروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود»، فقال عليه السلام: «إنما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قُلٌّ، فأما الآن وقد اتسع نطاقه، وضرب بجرانه، فامرؤ وما اختار»[١].

قال الشيخ محمد جواد مغنية في شرحه لهذه الكلمة:

كان النبي قد أمر الشيوخ من أصحابه أن يستروا الشيب عن العدو بالخضاب، ليظهروا أمامه في هيئة الأقوياء. فقال الإمام علي عليه السلام: ذاك حيث كان الإسلام ضعيفاً بقلة أتباعه، أما اليوم وقد ظهر على الدين كله، فلم يبق لهذا الحكم من موضوع، فمن شاء فليترك الخضاب، ومن شاء فليخضب.

وتسأل: ألا يتنافى هذا مع الحديث المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة»؟

الجواب: إن الأحكام الشرعية على نوعين:

الأول منهما: يرتبط بطبيعة الإنسان وفطرته من حيث هو إنسان، وهذا النوع من الأحكام لا يتغير ولا يتبدل تماماً كنظام الكون والأفلاك في حركتها الدائبة، وهذا النوع هو المقصود بالحديث المشهور.

والنوع الثاني: يرتبط بالحياة الاجتماعية، وهذا تتغير أحكامه تبعاً لتغير المجتمع من حال إلى حال، حيث يتغير موضوع الحكم وسببه الموجب[٢]

وفي هذا السياق ما ورد في الوسائل عن محمد بن مسلم، وزرارة، أنهما سألا الإمام محمد الباقر عليه السلام عن أكل لحوم الحمر الأهلية؟

فقال عليه السلام: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن أكلها يوم خيبر، وإنما نهى عن أكلها في ذلك

---

(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة، قصار الحكم ١٧.
(٢) مغنية: محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة، ج٤ ص٢٢٦، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، دار العلم للملايين، بيروت.

الوقت، لأنها كانت حمولة الناس، وإنما الحرام ما حرّم الله في القرآن[١].

وفي نص آخر: «إنما نهى عنها من أجل ظهورها مخافة أن يفنوها، وليست الحمير بحرام»[٢].

وقد أشار إلى هذه الحقيقة المحقق الأردبيلي (توفي ٩٩٣هـ) حيث قال:

«ولا يمكن القول بكلية شيء بل تختلف الأحكام باعتبار الخصوصيات والأحوال والأزمان والأمكنة والأشخاص، وهو ظاهر، وباستخراج هذه الاختلافات والانطباق على الجزئيات المأخوذة من الشرع الشريف امتياز أهل العلم والفقهاء»[٣].

وتحدث الإمام الخميني عن هذا الموضوع في كلمة اشتهرت عنه حيث قال: «إني على اعتقاد بالفقه الدارج بين فقهائنا، وبالاجتهاد على النهج الجواهري، وهذا أمر لا بد منه، لكن لا يعني ذلك أن الفقه الإسلامي لا يواكب حاجات العصر، بل إن لعنصري الزمان والمكان تأثيراً في الاجتهاد، فقد يكون لواقعة حكم لكنها تتخذ حكماً آخر على ضوء الأصول الحاكمة على المجتمع وسياسته واقتصاده»[٤].

وللفقيه المعاصر الشيخ جعفر السبحاني رسالة موجزة قيمة تحت عنوان »تأثير الزمان والمكان على استنباط الأحكام الشرعية والحكومية»[٥]، استفدنا منها في بحثنا هذا.

الشيخ الهاجري: الفقيه الراحل

بفقد آية الله الشيخ محمد بن سلمان الهاجري (١٣٤٤ ـ ١٤٢٥هـ) قاضي محكمة المواريث والأوقاف في الأحساء بتاريخ ٢١/ ٧/ ١٤٢٥هـ خسرت المنطقة

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة، حديث رقم ٣٠١٢٠.
(٢) المصدر السابق، حديث رقم ٣٠١٢٥.
(٣) الاردبيلي: أحمد بن محمد، مجمع الفوائد والبرهان، ج٣ ص٤٣٦.
(٤) الخميني: السيد روح الله الموسوي، صحيفة النور، ج٢١ ص٩٨.
(٥) السبحاني: الشيخ جعفر، البلوغ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، مؤسسة الإمام الصادق، قم.

واحداً من أبرز فقهائها المجتهدين، فقد كان S متميزاً بفقاهته وعلميته، التي شهد له بها كبار العلماء، وكل من عاشره والتقى به من أهل العلم لاحظ جديته وعشقه لبحث القضايا العلمية في كل مجلس ومناسبة.

يقول عنه أحد زملائه الذين حضروا معه بحث الشيخ يوسف الخراساني في كربلاء، إن عدداً من زملائه الطلاب كانوا يعتمدون على ذاكرة الشيخ الهاجري واستيعابه للبحث إذا فاتتهم بعض المطالب والنقاط، فيتحلقون حوله ليعيد عليهم ما طرحه الأستاذ الخراساني، ثم يضيف هو بعض الإشكالات والإيرادات وإجاباتها، فكأنه يقرر لهم بحثاً آخر.

كان يغتنم كل فرصة لقاء مع أحد من العلماء أو طلاب العلوم الدينية ليطرح مسألة لغوية أو فقهية أو أصولية.

ولم يترك التدريس حتى مع انشغاله بمهام القضاء، ومع اعتلال صحته، بل كان لا يذهب إلى المحكمة يومياً إلا بعد إنهاء تدريسه.

فتربى على يديه جيل من العلماء والفضلاء، في العراق والأحساء ومن بين تلامذته من تصدى للمرجعية والإفتاء.

ومع مكانته العلمية، وموقعيته الاجتماعية، كان شديد التواضع، يحترم الكبير والصغير، ويستجيب لدعوة الفقير، ويعيش البساطة في حياته وسلوكه دون تكلف. وقد رفض التصدي لمقام المرجعية والإفتاء رغم طلب الكثيرين من أبناء مجتمعه في الأحساء أن يقبل رجوعهم له في التقليد، لكنه أصر على الامتناع وكان يوجه الناس إلى تقليد المراجع البارزين.

وثمة صفة هامة في شخصية الشيخ الفقيد هي تصديه واهتمامه بالشأن الوطني العام، وما قبوله بمنصب القضاء إلا مصداق لهذا الاهتمام، رغم أنه كان غير راغب في القيام بهذا الدور، لتقدم سنه، حيث كان عند توليه القضاء في التاسعة والستين من العمر (١٤١٣هـ)، ولما ينتابه من الأمراض، ولحرصه على صرف جهده في العلم والتدريس، وتكرار السفر كل عام إلى الحوزات العلمية.

لكن شعوره بالمسؤولية الدينية والوطنية أوجب عليه القبول بهذا المنصب، وتحمل تبعاته.

وكان S مهتماً بمعالجة المشاكل التي تحصل في مجتمعه، عبر التواصل مع المسؤولين ورجالات الدولة، حيث ذهب أكثر من مرة بمفرده أو على رأس وفد لمقابلة سمو ولي العهد، ووزير العدل، وأمير المنطقة الشرقية، وكذلك كان يتواصل مع محافظ محافظة الأحساء، ومسؤولي أجهزة الدولة عندما تكون حاجة أو مشكلة.

وكان يبادر للتوقيع على أي رسالة ترفع للمسؤولين لمعالجة قضايا المجتمع، في إطار المصلحة العامة، حيث كان من أوائل الموقعين على وثيقة (شركاء في الوطن) التي رفعت إلى سمو ولي العهد وبقية المسؤولين.

كما أشرف على تقديم مشروع لمعالي وزير العدل من أجل تحسين وضع وأداء محكمة المواريث والأوقاف.

إضافة إلى دعمه للجمعيات الخيرية والمؤسسات الاجتماعية وجهود إصلاح ذات البين.■

المرجعية الدينية والانتماء الوطني

كلمة الجمعة بتاريخ ٢ شعبان ١٤٢٥هـ

هناك تعقيدات سياسية واجتماعية تدرك بالمعايشة والاحتكاك المباشر، وتترك آثارها وانعكاساتها على نفس الإنسان وتفكيره، أكثر من مجرد العلم بها، والاطلاع عليها. فالفقيه بمعايشته الفعلية للمجتمع، يكون أكثر إدراكاً وشعوراً بضروراته وحاجاته، وأفضل تقويماً وتشخيصاً لتفاصيل واقعه وأوضاعه السياسية والاجتماعية. وقديماً قيل يرى الحاضر ما لا يرى الغائب.

بل إن الشهيد الثاني زين الدين ابن علي العاملي (٩١١ ـ ٩٦٥هـ) قد ذكر من جملة أحكام المفتي وآدابه، أنه: «لا يجوز أن يفتي بما يتعلق بألفاظ الأيمان والاقارير والوصايا، ونحوها إلا من كان من أهل بلد اللافظ، أو خبيراً بمرادهم في العادة» [1].

كما وأن الاعتبارات السياسية، تجعل قدرة الفقيه المواطن على إبداء الرأي، واتخاذ الموقف، تجاه أوضاع بلاده، أكبر من قدرة الفقيه المنتمي إلى وطن آخر، وأكثر مقبولية. وإن كانت الاعتبارات الشرعية هي الأصل في الأمور الدينية.

ولوجود الفقيه في المجتمع منافع وآثار ايجابية أخرى، حيث يستطيع رفع مستوى الحركة العلمية الدينية في البلاد، عن طريق التدريس في مختلف مراحله، وتربية الطلاب في المستويات المتقدمة، كالبحث الخارج، حسب اصطلاح الحوزات العلمية.

---

(١) الشهيد الثاني: زين الدين بن علي العاملي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، ص ٩٢، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، مكتب الإعلام الإسلامي، قم.

وكذلك فإن الناس أكثر استجابة وانقياداً للفقيه المجتهد، مما يعزز الحالة الدينية، ويكرس وحدة المجتمع وتماسكه.

من هنا يمكن القول بأن وجود المجتهد الفقيه مطلوب في كل بيئة اجتماعية، وغير بعيد ما استنتجه الشيخ محمد مهدي شمس الدين S من وجوب وجود الفقيه على نحو الوجوب الكفائي في كل مجتمع، على ضوء الآية الكريمة: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[1].

قال: «فقد دلت على وجوب التفقه لأجل تبليغ أحكام الشريعة. ودلت على أن هذا الوجوب ثابت على الأمة بنحو الكفاية يجب أن تقوم به طائفة من كل فرقة، فهو واجب على الأمة الإسلامية مع ملاحظة انقسامها إلى فرق، وينبسط هذا الوجوب على فرق الأمة بنحو الكفاية على كل فرقة، ويتحقق الامتثال بقيام طائفة من كل فرقة بالنفر والتفقه.

وهل يعتبر وحدة الانتماء القومي بين الفرقة والنافرين؟ مما ذكرنا لا يبعد استفادة عدم كفاية وجود مجتهدين في شعب من الشعوب الإسلامية لسقوط وجوب التفقه عن سائر الشعوب الإسلامية، بل يجب على كل شعب (فرقة) مسلم أن يكون منه نافرون متفقهون (مجتهدون)، لأن الأمر في الآية الكريمة وارد وبنحو العموم الاستغراقي ﴿.. **كُلِّ فِرْقَةٍ**..﴾ فلا يتحقق الامتثال بنفر طائفة من فرقة واحدة أو أكثر إذا لم ينفر فرق من جميع الطوائف.

وعلى تقدير البناء على هذا، فهل يعتبر أيضاً أن يكون النافرون من نفس (شعب/ قبيلة) المكلفين، فلا يتحقق امتثال بني تميم مثلاً إذا كان النافرون من طي، ولا يتحقق امتثال العراقيين إذا كان النافرون مصريين مثلاً، فلا يكفي انتماء الجميع للعربية أو الفارسية أو التركية، بل لا بد من أن يكون النافرون (الطائفة) من سنخ الانتماء الخاص (للفرقة) ولا يكفي مجرد اشتراكهم في الانتماء العام (العربية أو الفارسية أو التركية)؟..

---

(١) سورة التوبة ١٢٢.

أو يكفي مجرد الانتماء العام إلى عنوان القوم (الفرقة).

مقتضى قوله تعالى ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ هو اعتبار الانتماء الخاص، وعدم كفاية الانتماء العام، إذ إن بني تميم ـ مثلاً ـ (فرقة) فلو نفر جماعة من طي فإنه لا يصدق عليهم عرفاً أنهم منهم، والمصريون ـ مثلاً ـ فرقة فلو نفر جماعة من العراقيين لا يصدق عليهم عرفاً أنهم منهم، وهكذا، والمسألة بحاجة إلى مزيد من التأمل»[١].

الفقهاء والمراجع في المنطقة

حفل تاريخ منطقة الأحساء والقطيف بوجود عدد كبير من مراجع الدين والفقهاء المجتهدين في مختلف القرون، فكانت المرجعية الدينية محليّة يتصدى لها فقهاء من أبناء المنطقة.

وآخر مرجع ديني كان مقلداً في الأحساء هو الشيخ حبيب بن صالح ابن قرين والذي توفي بتاريخ ٢١ محرم ١٣٦٣هـ. وقبله كانت مرجعية السيد ناصر بن السيد هاشم السلمان توفي سنة ١٣٥٨هـ، كما أن آخر مرجع ديني كان يقلد في القطيف هو السيد ماجد بن السيد هاشم العوامي والذي توفي بتاريخ ٧ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ، وقبله كانت مرجعية الشيخ علي ـ أبوالحسن ـ الخنيزي توفي سنة ١٣٦٣هـ.

بل امتدت مرجعية بعض فقهاء المنطقة إلى المناطق الأخرى كالعراق وإيران والكويت والبحرين.

فالشيخ أحمد بن زين الدين الاحسائي (١١٦٦ ـ ١٢٤١هـ) قلّده بعض العراقيين وكثير من الإيرانيين وعلى رأسهم ملك إيران آنذاك فتح علي شاه وأسرته ووزراؤه وكبار رجال دولته. وقد سجل الدكتور ميرزا مهدي خان في تاريخه: أن ربع الشعب الإيراني كانوا من مقلديه والتابعين له[٢]

---

(١) شمس الدين: محمد مهدي، الاجتهاد والتقليد، ص٩١-٩٢، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت

(٢) الشخص: السيد هاشم، أعلام هجر، ج١ ص١٧٣، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، مؤسسة أم القرى، قم.

والشيخ محمد بن علي آل عبدالجبار القطيفي (توفي بعد ١٢٥٠هـ) كان يقلده كثير من أهالي العراق وأهل القطيف والأحساء وقد ارتضاه علماء النجف للمحاكمة بينهم وبين السيد كاظم الرشتي أيام النزاع بينهم، وارتضاه السيد المذكور وناهيك بذلك فضلا.[١]

أما الفقهاء المجتهدون الذين لم يتصدوا للمرجعية فهم كثيرون في تاريخ المنطقة.

تساؤلات ومعالجات

تدور في بعض الأوساط السياسية والإعلامية تساؤلات حول ارتباط الشيعة في المملكة العربية السعودية بالمرجعيات الدينية في الخارج كالعراق وإيران، وخاصة مع تسليط الأضواء على الشيعة بعد سقوط النظام العراقي. وفي داخل المجتمع الشيعي في المملكة يتنامى شعور بضرورة وجود فقهاء يتصدون لإدارة الحالة الدينية في المجتمع، ويعزّزون ثقة الناس في أنفسهم وفي ولائهم الديني والوطني.

ومن المناسب أن تطرح مثل هذه التساؤلات بصراحة ووضوح وأن تناقش بشفافية وموضوعية، فمثلاً تحاول بعض الجهات أن تطرح موضوع ارتباط الشيعة في المملكة، بمرجعيات دينية خارجها، وكأنه مظهر خلل في الولاء الوطني للشيعة، وهذا الطرح ناشئ من ضعف المعرفة بواقع الارتباط بالمرجعية الدينية، وقد يأتي هذا الطرح في سياق الصراع الطائفي وإرادة التشويه لصورة المواطنين الشيعة.

إن المرجعية الدينية عند الشيعة لا تتدخل في الخصوصيات السياسية للمجتمعات الشيعية في أوطانهم المختلفة، إنما يرجعون إليها في قضاياهم الدينية ومسائلهم الشرعية، أما الشأن السياسي والاجتماعي فتتصدى له القيادات المحلية من علماء ووجهاء، وسيرة المراجع تثبت أنهم في مستوى كبير من النضج والحرص على

(١) البلادي البحراني: الشيخ علي، أنوار البدرين، ص٣١٧، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، مكتبة المرعشي النجفي، قم.

مصالح البلاد الإسلامية، لذلك يوجهون أتباعهم إلى الاندماج في أوطانهم، والتفاعل مع محيطهم، والحفاظ على الوحدة الإسلامية والوطنية.

وقد يتصدى المرجع لدور سياسي في وطنه كإيران أو العراق حسب ما تفرضه الظروف، أو تقتضيه المصلحة هناك. أما تبني المواقف السياسية حول الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى فهذا ما لم يعهد من سيرة مراجع الشيعة، وتاريخهم واضح جلي.

والارتباط بمرجعيات دينية خارج الوطن ليس ظاهرة خاصة بالشيعة، فأهل السنة في بلاد عديدة يرتبطون في شؤونهم الدينية بالجامع الأزهر في مصر، وهناك في بلدان إسلامية من يأخذ بآراء المفتي وكبار العلماء في المملكة العربية السعودية، فهل يعتبر ذلك خلل في ولاء هؤلاء لأوطانهم؟

كما أن المجتمعات المسيحية في دول العالم تقدس البابا الذي يمثل الزعامة الدينية للمسيحيين وترتبط به كنائسهم ومؤسساتهم الدينية، ولا أحد يعتبر ذلك خللاً في الولاء الوطني!!

المرجعية المحلية والضوابط الشرعية

تلتزم المجتمعات الشيعية بالضوابط والشروط الشرعية في اختيار المرجع الديني، ولا تقبل الإخلال بتلك الضوابط لمراعاة الاعتبارات السياسية والمادية. فالمرجع يتم اختياره بإرادة شعبية، بعيداً عن القرارات والمواقف الحكومية، وبشكل عفوي، بناءً على شهادات ذوي الخبرة من العلماء في الحوزات العلمية ومختلف المجتمعات الشيعية.

والتفاف شيعة العراق العرب الاقحاح، بمشاعرهم القومية والوطنية المرهفة حول مرجعية السيد السيستاني، وهو من أصل إيراني، يقدم أروع شاهد على عمق الالتزام بالضوابط الشرعية في اختيار المرجعية الدينية.

كما أن مواقف المرجع السيستاني في غمرة الاضطرابات وتعقيدات الواقع العراقي الناتج عن الاحتلال الأمريكي، يكشف عن استقلالية المرجعية الدينية،

ونضج آرائها، وصدق إخلاصها لمصلحة الدين والأمة، بعيداً عن أي تأثيرات سياسية خارجية أو داخلية.

بالطبع فإن وجود مرجعية دينية من أبناء الوطن تتوفر على المواصفات الشرعية المطلوبة يشكل خياراً أفضل، وهذا ما كان قائماً في الكثير من المجتمعات الشيعية في إيران والعراق ولبنان والبحرين والأحساء والقطيف.

لكن ضعف الحالة العلمية في بعض هذه المناطق هو الذي حرمها من هذه النعمة في الأزمنة الأخيرة.

وكان للظروف السياسية التي مرت بها هذه المناطق دور أساس في خلق هذا الواقع، ولو تبنت الحكومات في هذه المناطق سياسة تشجيع الحالة العلمية للمجتمعات الشيعية فيها، ورفع القيود والعوائق عن طريقها لأمكن توفر عدد من الفقهاء والمجتهدين المحليين، وبالتالي بروز مرجعيات محلية كما كان ذلك في الماضي.

كما تتحمل المجتمعات الشيعية ذاتها قسطاً كبيراً من المسؤولية، لأن عليها أن تدعم وجود الحوزات العلمية في بلادها، وأن تشجع الراغبين في طلب العلم من أبنائها، وتوفر لهم إمكانات الابتعاث لمواصلة الدراسات العليا في الحوزات العلمية المركزية.

والمؤسف أن طلاب العلوم الدينية في مجتمعاتنا لا يوجد من يدعمهم أو يتبناهم، بل يعتمد كل منهم على إمكاناته الذاتية، ومساعدة أسرته، وعلى المكافأة المحدودة التي يقدمها المراجع للطلاب في الحوزات الدينية.

وغالباً ما يضطر أكثرهم للعودة إلى الوطن دون مواصلة الدراسات العليا، بسبب ضغط الظروف الاقتصادية ومتطلبات الحياة العائلية.

ومع إدراكنا لهذه الصعوبات التي تواجه طلاب العلوم الدينية، إلا أننا نأمل أن يشحذوا هممهم، وأن يتحدوا العوائق والعراقيل، فرضا الرب، وخدمة الدين، ومجد العلم يستحق التضحيات، وتهون أمامه الشدائد، وقد روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام

قوله: «لو علم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بخوض اللجج وسفك المهج».

فلماذا يتحمل طالب العلم الإيراني أو الأفغاني أو غيرهما سنين الغربة الطويلة في النجف الأشرف مثلاً، والانقطاع عن أهله ووطنه، ويتحمل أخطار الأوضاع القائمة هناك، وصعوبات الحياة، حتى يصل إلى مقام الاجتهاد والمرجعية، بينما يكتفي أكثر طلابنا بالوصول إلى مستوى محدود من العلم، ثم يسارعون للرجوع إلى بلدانهم؟

ونقول أكثر طلابنا تلافياً للتعميم ففيهم من يتوقع منه وله المستقبل المشرق إن شاء الله.

توطين الاهتمامات الفقهية

حاجة المجتمعات لوجود فقهاء مجتهدين من أبنائها، ليس من أجل أن يجتروا ويعيدوا بحث الموضوعات الأصولية والفقهية التي أُشبعت بحثاً، وإن كان بحثها مهماً لجهة تنمية القدرة العلمية والاجتهادية، وهي موضوعات لا يمكن تجاوزها أو التقليل من شأنها، لكن روادها كثيرون، والاستفادة من باحثيها في مجالها لا يستلزم خصوصية محلية.

إنما الحاجة الأهم للفقهاء المحليين، تكمن في تميزهم المفترض، بإدراك مشاكل مجتمعاتهم وخصوصياتها، وتقديم المعالجات العلمية المناسبة لها.

فالوضع السياسي في كل مجتمع، والقضايا الاجتماعية القائمة فيه، والتحديات الثقافية، والعلاقة بينه وبين أطراف محيطه، كل هذه الأبعاد تحتاج إلى بحث ومعالجة في تميزاتها وخصوصياتها، على هدى الشريعة الإسلامية.

وظاهرة العزوف عن معالجة القضايا المحلية عبر البحث العلمي الفقهي تكشف عن ضعف شعور بالمسؤولية الاجتماعية الوطنية، أو تهيب من ارتياد بحوث غير مألوفة، أو خوف من إبداء الرأي والنظر.

ولا بد أن نشيد هنا ببعض النماذج من الفقهاء الذين تميزوا ببحث مشكلات مجتمعاتهم، وقدموا لها مشاريع وطروحات بتأصيل علمي فقهي، كالإمام السيد

موسى الصدر، والشيخ محمد مهدي شمس الدين في لبنان، واللذان استطاعا إنقاذ مجتمعهم من حالة الانكفاء والحرمان والتهميش، وساعدا على ترتيب أوضاعه الداخلية، وتحسين علاقاته مع أطراف محيطه، وتحقيق مشاركته وإسهامه على المستوى الوطني العام.

وخطاباتهما وكتاباتهما التي أسست لهذه الحالة ورعت نموها وتطورها منشورة معروفة، وخاصة البحوث القيمة التي أنجزها الشيخ شمس الدين مثل (الاجتماع السياسي في الإسلام)، و(نظام الحكم والإدارة في الإسلام)، و(العلمانية)، و(فقه العنف المسلح في الإسلام)، و(ومسائل حرجة في فقه المرأة)، و(ضرورات الأنظمة وخيارات الشعوب)، و(الحوار الإسلامي المسيحي)، و(الإسلام والغرب)، و(في الاجتماع المدني الإسلامي)، و(مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني). وحين أصابه المرض العضال وأحس بقرب الرحيل عن الدنيا سجل وصاياه لأبناء مجتمعه عبر جهاز تسجيل، وكتبت ونشرت بعد وفاته تحت عنوان (الوصايا). وهي كتابات علمية تأصيلية تعالج قضايا مثارة في الساحة بشكل عام ولها انعكاساتها على مستوى الساحة اللبنانية. إضافة إلى آرائه التي طرحها من خلال المحاضرات والمقابلات الإعلامية، فيما يخص الشأن السياسي والاجتماعي في لبنان، برؤية إسلامية وتأصيل فقهي.

ونموذج آخر يتمثل في المرجع الشهيد السيد محمد صادق الصدر (١٣٦٢ ـ ١٤١٩هـ)، والذي استطاع إحياء الحالة الدينية في العراق في ظل طغيان نظام صدام، وقدم معالجات شرعية للكثير من القضايا المعاشة في الوسط العراقي، وقد تضمنت موسوعته (ما وراء الفقه) بعض تلك البحوث، ونشر بعضها الآخر، وأكثرها لا يزال بحثاً شفهياً مسجلاً.

ومن أبحاثه بحث عن الأحكام والأعراف العشائرية السائدة بين قبائل العراق، وبحث عن فئة (الغجر) التي تعيش في العراق. وبحوث أخرى مشابهة.

إن الساحة اللبنانية ساحة مفتوحة تتوفر فيها حرية البحث والتعبير عن الرأي، لكن لها معادلاتها وتعقيداتها الشائكة، كما أن الساحة العراقية في ظل نظام صدام

تمثل أسوأ وضع قمعي، ووجود نماذج شقت طريقها وتصدت لمعالجة الهموم والمشاكل المحلية في الساحتين دليل على إمكانية مثل هذا التوجه ضمن ظروف أي بلد ومجتمع.

إنني أهيب بالكفاءات العلمية من أبناء مجتمعاتنا للتوجه بقدراتهم البحثية لمعالجة قضايا مجتمعاتهم، وليسهموا في مسيرة البناء والتنمية لأوطانهم، فالفقيه الشيعي في بلده مواطن مسلم، عليه أن يتحمل مسؤوليته تجاه وطنه ومجتمعه ودينه، وأن لا يسجن نفسه ضمن القبيلة المذهبية المنكفئة عن التفاعل مع تطورات العصر وقضايا الوطن.■

مرحلة جديدة في العلاقات المذهبية

كلمة الجمعة بتاريخ ٩ شعبان ١٤٢٥هـ

* ينبغي أن لا نكون مثاليين فهناك ركام لا ينتهي بين يوم وليلة بحيث يكون الخطاب المعتدل هو خطابٌ عام يقوله الجميع، كما يَنبغي أن لا نستعجل النتائج.

* يجب على الواعين والمخلصين أن يكونوا صابرين وصامدين، وأن يتحمل كلٌ منهم الأذى من قبل القوى المتطرفة في مجتمعهم.

* للناس نقول: استخدموا عقولكم، ولا تتركوا لأحدٍ أن يستغلّكم ويُضللكم بشعارات برّاقة.

بشّر سماحة الشيخ حسن موسى الصفار بوجود مؤشرات إيجابية بدأت تلوح في الأفق من شأنها توسيع رقعة العلاقة بين أبناء المذاهب الإسلامية، ومن أهمها: بروز الخطاب المعتدل من كل طرف تجاه الطرف الآخر، وكذلك التواصل واللقاءات التي بدأت تتكرر بين فترة وأخرى. وأكد أنه سيبقى متطرفون عند الطرفين، ولكن العقلاء يجب أن يتعاونوا وأن يُوسّعوا رقعة الاعتدال. وخاطب الواعين والمخلصين مؤكداً عليهم أن يكونوا صابرين وصامدين، وأن يتحمل كلٌ منهم الأذى من قبل القوى المتطرفة في مجتمعهم. مضيفاً إن على الجمهور استخدام عقولهم وأن لا يتركوا لأحد أن يستغلّهم ويُضللهم بشعارات برّاقة. جاء ذلك في الخطاب الأسبوعي لسماحة الشيخ حسن موسى الصفار الذي ألقاه ظهر الجمعة التاسع من شعبان ١٤٢٥هـ (٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤).

بدأ الشيخ الصفار خطابه الأسبوعي بالتأكيد على وضوح وجلاء المفاهيم والقيم الإنسانية التي لا يُنكرها أحد، قائلاً: القيم والمفاهيم الإنسانية واضحةٌ جلية، لا يحتاج الإنسان إلى جهد كبير لكي يعرفها ويقتنع بها ويُقنع بها الآخرين. فقيمة العدل أو قيمة الإحسان أو قيمة الحرية وما أشبه من القيم، هي قيمٌ واضحة، لا تجد من يُجادل في صحتها وفي مقبوليتها، ولكن المشكلة تكمن على مستوى التطبيق، حيث تحصل التباساتٌ في تشخيص الموارد والمصاديق. وفي بعض الأحيان تكون هناك قوىً مصلحية لا تُريد لهذه القيم أن تُطبّق، ولا لهذه المفاهيم أن تسود، ولذلك تخلق التباسات، وتختلق اشتباهات من أجل أن لا يكون هناك وضوحٌ في موارد هذه القيم والمفاهيم. وهنا كلمةٌ جميلةٌ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يُؤخذ من هذا ضغثٌ، ومن هذا ضغثٌ فيُمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى» (نهج البلاغة، خطبة ٥٠)

وركّز حديثه حول مصداق من مصاديق هذه الحالة وهي مسألة الوحدة والفرقة، مؤكداً أن الوحدة كقيمة لا أحد يُجادل فيها، مضيفاً: لو أجريت استفتاءً في أي مجتمع تسأل فيه: هل أنت تؤيد الوحدة أم لا؟ لا تجد أحداً يقول لك إنه لا يؤيد الوحدة. ولكن عند التطبيق في هذا المورد أو ذاك المورد نواجه المشكلتين: مشكلة الالتباسات وخلط الأوراق، وأخرى تكمن في وجود قوىً مصلحية لا تُريد لقيمة الوحدة أن تسود في الأمة. ولذلك تتعرقل الوحدة في المجتمعات، وخاصةً المجتمعات التي يضعف عندها الوعي، وتكثر فيها القوى المغرضة.

وأكد أن المجتمعات الإسلامية تُعاني في أوطانها من تعثر مسيرة الوحدة، رغم اتفاق المسلمين نظرياً على أهمية هذه القيمة وعلى دعوة الإسلام إليها: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران، ١٠٣)، ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال، ٤٦). مشيراً إلى نموذج من الالتباسات وخلط الأوراق، وهو: ما قد يُشاع من أن الوحدة تقتضي تنازل طرفٍ مّن الأطراف عن قناعاته أو مصالحه. وقال

في ردّه على هذا الالتباس: في الواقع لو أن الإنسان تأمل ودقّق يصل إلى النتيجة الحقة وهي: ليس المطلوب من أحد أن يتنازل عن قناعاته ومعتقداته، فليبق أتباع كل مذهب على قناعاتهم ومعتقداتهم وآرائهم وليتمسكوا بمصالحهم، ولكن المطلوب هو كفٌ الإساءة من كل طرف باتجاه الآخر، وكف العدوان بحيث يعيش الجميع متساوين في الحقوق والواجبات. والوحدة لا تكون بتنازل أحد الأطراف عن قناعاته لأنها في ذلك الوقت ستكون عملاً تكتيكياً لا يلبث أن ينتهي ويزول.

وتساءل الشيخ الصفار: هل أمتنا عاجزة عن الوصول إلى حل للتوفيق بين الأمرين، أن نحافظ على قناعاتنا ومعتقداتنا دون أن نتنازع ونتخاصم، ونكون أمةً متحدة؟ مبيناً أن الأمم الأخرى حققت هذا الأمر، رغم اختلاف أديانهم ومذاهبهم وقناعاتهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية، ولكنهم يعيشون ضمن حالةٍ من الاستقرار الاجتماعي.

وإجابةً على ذلك قال: الوصول إلى هذا المستوى ليس صعباً ولا عسيراً إذا ما توفرت الإرادة. مضيفاً أن هناك عوامل كثيرة تُساعد الأمة للوصول إلى هذا المستوى:

- **ارتفاع درجة الوعي عند الناس.**
- **الانفتاح على أوضاع المجتمعات الأخرى.**
- **التجربة العملية لآثار التفرقة والخلاف، طيلة ١٤٠٠عام من الزمن، وكانت النتيجة هي الضعف المتصاعد والمستمر.**

مؤكداً أن هذه التجربة القاسية كافية بأن تثبت لنا بأن ما كنا نعيشه من خلاف وتفرقة لم تكن فيه مصلحة، واستشهد بكلمةٍ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول فيها: «إن الله سبحانه لم يُعط أحداً بفرقةٍ خيراً، ممن مضى ولا ممن بقي.» (نهج البلاغة، خطبة: ١٧٦)

وأشار الشيخ الصفار إلى أن هناك مؤشرات إيجابية قد بدأت تلوح في الأفق ومن أبرزها أمران:

الأمر الأول: بروز الخطاب المعتدل من كل طرف تجاه الطرف الآخر.

ينبغي أن لا نكون مثاليين بحيث يكون الخطاب المعتدل هو خطابٌ عام يقوله الجميع، ولكن هناك من مختلف الأطراف من يُنتج خطاباً معتدلاً.

وحتى نقترب أكثر من ساحتنا، لو تحدثنا عن وضعنا في المملكة، فالمملكة تُعتبر ساحةً من الساحات التي كانت تُعاني من القطيعة ومن التشنج المذهبي الطائفي أكثر من أي ساحة أخرى، وخاصة فيما يرتبط بين الشيعة، أتباع أهل البيت ﷺ، وبين السلفيين، الذين يُمثلون الاتجاه السائد في المملكة.

نلحظ في الآونة الأخيرة وجود خطاب معتدل من كلا الطرفين السلفيين والشيعة، ولكنه يبقى محدوداً، لأن الحالة لا يُمكن أنْ تتبدل بين عشية وضحاها، وسيبقى متطرفون عند الطرفين، ولكن العقلاء يجب أن يتعاونوا وأن يُوسّعوا رقعة الاعتدال.

الأمر الثاني: بدأ هناك نوعٌ من التواصل.

سابقاً كنا نعيش قطيعة، وما كنا في يوم من الأيام نجد أن عالماً من علماء السلفيين أو شخصيةً من شخصياتهم يلتقي مع شخصية شيعية، وبالعكس كذلك. وحتى لو حصل لقاء فردي أو ثنائي فإنه يكون في الخفاء نتيجة الأجواء الضاغطة.

ولكننا الآن وبعد سنة من الحوار الوطني، وسنوات من الجهود التي بُذلت، بدأنا نجد بعض النتائج العملية الإيجابية، من خلال بعض اللقاءات والزيارات والحوارات التي تتخطى الحالة الثنائية، وبدأت تُطرح هذه الحالة على المستوى الإعلامي.

البعض يتعجل النتائج، ولكن ينبغي أن نكون واقعيين، حيث أن هذا الركام من التاريخ لا يُمكن أن يُعالج بسرعة. ولكن هذه المبادرات بداية يجب علينا تنميتها، وأن نتعاون في تطويرها.

وعلينا أن نلحظ أن هناك قوىً متطرفة متعصبة من كلا الطرفين، إما لشبهة ذهنية أو لأغراض مصلحية أو حسد عند البعض، وتُغلف هذه الأغراض بأغلفة دينية، وهؤلاء لن يسكتوا عن مثل هذه المبادرات الإيجابية، وبالفعل حصل هناك تشنجات

تجاه بعض المبادرات الإيجابية.

وأوضح أن البعض يُمارس ذلك معتقداً أنه يُدافع عن المذهب وعن العقيدة، مضيفاً أن من يُريد أن يُدافع عن العقيدة فليُترجم حرصه عملياً وليس عبر التشهير والتجريح والتهريج ضد فلان وفلان وهذه الجهة وتلك الجهة، مؤكداً أن الخطاب موجهٌ لمن هم في داخل الشيعة أو السلفيين على حدٍ سواء.

وأضاف أن هذه القوى ستعمل وستتحرك من أجل أن تعرقل أي مسعىً للتلاقي وللحوار، وستُحاول الاستفادة من حدثٍ هنا وحدثٍ هناك.

ووجه في ختام خطابه كلمتين:

الكلمة الأولى: للواعين المخلصين من أبناء الوطن، في الطرفين: السلفيين والشيعة.

يقول فيها: يجب على الواعين والمخلصين أن يكونوا صابرين وصامدين، وأن يتحمل كلٌ منهم الأذى من قبل القوى المتطرفة في مجتمعهم.

مؤكداً أن المصلحين طوال التاريخ واجهوا مثل هذه التشكيكات، وقال: لو قرأنا تاريخ علمائنا الذين تبنوا الوحدة وتحركوا من أجل التقريب بين المسلمين نجد أن مثل هذه العواصف ثارت عليهم. موجهاً الجمهور للقراءة حول تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية التي تبناها السيد البروجردي S ودعمها العلماء الواعون في الشيعة مثل: الشيخ عبد الكريم الزنجاني، الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، السيد محسن الأمين العاملي، وبقية العلماء المصلحين، وما ثار تجاههم من تشكيك وتجريح.

وأضاف: إن مثل هذه الحالة حصلت عند إخواننا أهل السنة حينما أفتى شيخ الجامع الأزهر شلتوت بصحة التعبد بمذهب الشيعة قامت عليه القيامة وألفوا كتباً ضده، ومن جملتها: إعلام الأنام بمخالفة شلتوت للإسلام.

الكلمة الثانية: للجمهور، من أبناء السلفيين والشيعة.

يقول فيها: استخدموا عقولكم، ولا تتركوا لأحدٍ أن يستغلّكم ويُضللكم بشعارات برّاقة تحت شعار: الدفاع عن المذهب، أو عن العقيدة، أو الولاء والبراء، أو

ما أشبه من المصطلحات. إنها مجرد شعارات يُقصد بها تعويق مسيرة الوحدة، ووضع العراقيل أمام المصلحين الواعين بقصدٍ أو بدون قصد.■

التنمية الثقافية والإنفاق الأهلي

كلمة الجمعة بتاريخ ٦ شوال ١٤٢٥هـ

كان اختيار تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣م لموضوع بناء مجتمع المعرفة موفقاً جداً.

ذلك أن المعرفة اكتساباً وإنتاجاً وتوظيفاً قد غدت في مطلع القرن الحادي والعشرين هي الوسيلة الكفيلة بتحقيق التنمية الإنسانية في جميع ميادينها، فهي غالباً ما ترسم الحدود بين القدرة والعجز، بين المنعة والوهن، بين الصحة والمرض، وبين الثروة والفقر.

وقد أشار التقرير إلى أن شح المعرفة وركود تطورها يحكمان على البلدان التي تعانيهما بضعف القدرة الإنتاجية، وتضاؤل فرص التنمية، حتى أن فجوة المعرفة أصبحت تُعدُّ في نظر مؤسسة اقتصادية دولية كالبنك الدولي، المحدد الرئيس لمقدرات الدول في العالم الآن.

إن التخلف الشديد لمجتمعاتنا العربية والإسلامية، في مجال المعرفة والثقافة، هو الذي يكرّس تخلفها في سائر المجالات كما هو ناتج له.

وقد كانت إشارة البدء بانطلاق حضارة الإسلام هي الأمر بطلب المعرفة (اقرأ). وبقدر الاستجابة لهذا الأمر كان الكسب والإنجاز الحضاري. وحين تقلّص الاهتمام بالمعرفة وانخفض مستوى الإجابة للأمر (اقرأ) تراجعت الحضارة، وضاعت المكاسب، وتخلفت الأمة، وسبقتها سائر الأمم التي سلكت طريق المعرفة والعلم.

وتلك هي سنة الله التي تقضي بتفوق أهل العلم والمعرفة على الجاهلين ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾(١)، ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾(٢).

ولا يمكن ردم الهوة العميقة، ولا قطع المسافة الشاسعة، التي تفصل بيننا وبين المجتمعات المتقدمة، إلا ببناء مجتمع المعرفة، وامتلاك قدرة العلم، وإصلاح خلل الثقافة.

إن شواهد العجز والضعف في واقعنا الثقافي أكثر من أن تعد وتحصى، وعلى مختلف الأصعدة، وقد أشار التقرير المذكور إلى بعض تلك الشواهد: إذ ينخفض عدد الصحف في البلدان العربية إلى أقل من ٥٣ لكل ألف شخص، مقارنة مع ٢٨٥ صحيفة لكل ألف شخص في الدول المتقدمة.

ويوجد أقل من ١٨ حاسوب لكل ألف شخص في المنطقة العربية، مقارنة مع المتوسط العالمي هو ٧٨,٣ حاسوب لكل ألف شخص.

أما إنتاج الكتب في البلدان العربية فلم يتجاوز ١,١٪ من الإنتاج العالمي رغم أن العرب يشكلون نحو ٥٪ من سكان العالم.

وعلى الرغم من وجود ٢٨٤ مليون عربي يتحدثون اللغة العربية في ٢٢ دولة، يتراوح العدد المعتاد لنشر أي رواية أو مجموعة قصص قصيرة ما بين ١٠٠٠ و٣٠٠٠ نسخة، ويعتبر الكتاب الذي يوزع منه ٥٠٠٠ نسخة ناجحاً نجاحاً باهرا.

وبينما يصل عدد المنشورات العلمية في فرنسا إلى ٨٤٠ بحثاً لكل مليون فرد، وفي هولندا إلى ١٢٥٢، وفي سويسرا إلى ١٨٧٨ فإنه في البلدان العربية لم يتعد٢٦ بحثاً لكل مليون فرد عام ١٩٩٥م.

ويعاني البحث العلمي في البلدان العربية من انخفاض الإنفاق عليه، إذ أن الإنفاق الرسمي لا يتجاوز ٠,٢٪ من الناتج القومي، وتتفاوت هذه النسبة من بلد

(١) سورة الزمر آية ٩.
(٢) سورة فاطر آية ٤٣.

لآخر ويستهلك معظمها في تغطية رواتب العاملين. وللمقارنة نجد أن نسب الإنفاق على البحث والتطوير في البلدان المتقدمة تتراوح بين ٥ , ٢٪ إلى ٥٪.

وتعتبر الترجمة من القنوات الهامة لنشر المعرفة والتواصل مع العالم، إلا أن حركة الترجمة في البلدان العربية ما زالت تتسم بالركود والفوضى، فمتوسط الكتب المترجمة لكل مليون من السكان في الوطن العربي في هذه السنوات الخمس هو ٤ , ٤ كتاباً، أي أقل من كتاب واحد في السنة لكل مليون من السكان، بينما بلغ ٥١٩ كتاباً في المجر، و٩٢٠ كتاباً في أسبانيا لكل مليون.

ورغم ازدياد عدد الكتب المترجمة في العالم العربي من حوالي ١٧٥ عنواناً في السنة خلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥م إلى ما يقرب من ٣٣٠ كتاباً وهو خمس ما تترجمه اليونان مثلاً.

ويقدر الإجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن بحوالي ١٠٠٠٠٠ كتاباً وهو يوازي ما تترجمه أسبانيا في عام واحد.

مسؤولية النهوض

تتحمل الحكومات العربية الجزء الأكبر والأساس من مسؤولية التردي والضعف في واقع المعرفة والثقافة في البلاد العربية، لشّح إنفاقها على هذا الجانب، ولسوء الإدارة والتخطيط، ولوضعها الحواجز والعراقيل أمام حرية الفكر وحركة المعرفة.

وكنموذج للتجاهل والإهمال الرسمي لشأن المعرفة والثقافة، نشير إلى ما قاله الدكتور شاكر مصطفى المفكر والمؤرخ السوري، الذي كان يرأس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية، قال: «إن المنظمة رأت أن تضع خطة للثقافة العربية عام ١٩٨٢م لترسم السياسة الثقافية المستقبلية، واختارت سبعة عشر مثقفاً متخصصاً من سبعة عشر قطراً عربياً لوضع هذه الخطة، التي استمر العمل فيها لمدة أربع سنوات، أُنفق خلالها مليونا دولار، وقد عقدنا ٢٩ مؤتمراً، ضم كل مؤتمر ٢٥ متخصصاً في كل فروع المعرفة الإنسانية، من الموسيقى إلى الصحافة، ومن الدين إلى العلم. ولخصت بنفسي كل هذا وجمعته في خمسة مجلدات مركونة على الرفّوف

إلى اليوم!! وقد عانيت المرّ في هذا العمل الضخم ليس بسبب الجهد الذي بذلته، ولكن بسبب تعنّت الحكومات العربية، فلم تمدنا بالمعلومات أو الأرقام الخاصة، وكنت أضطر إلى إرسال مبعوث شخصي إلى هذه الحكومات فيفشل في مهمته، فأضطر إلى السفر بنفسي في كثير من الأحيان، وأواجه بكمّ من الإجراءات والعقبات البيروقراطية الكفيلة بنسف مشروعنا من أساسه، ثم وافق وزراء الثقافة العرب بالإجماع على هذه الخطة رغم أنهم لم يقرأوها، وبالتالي لم يقرأها مسؤول عربي واحد إلى الآن»[١].

لكن المسؤولية لا تنحصر في الحكومات، فإن النهوض بمستوى الثقافة والمعرفة يتطلب فاعلية أهلية وحركة اجتماعية، وخاصة من قبل العلماء والمثقفين، ومن جهة رجال الأعمال والثروة.

ففي البلدان المتقدمة تساهم القطاعات الإنتاجية والخدمية، ويقوم الأغنياء ومؤسسات المجتمع المدني بنحو ٥٠٪ من الإنفاق على جهود البحث والتطوير العلمي والمعرفي، بينما لا تتعدى هذه النسبة ٣٪ من المخصصات الضئيلة للبحث والتطوير في البلدان العربية.

في الأول من يناير ١٩٩٧م نشرت صحيفة (كريستيان سيانس مونيتور) الأمريكية: أن أمريكياً لم يرغب في إعلان اسمه تبرع بمبلغ ٣٥ مليون دولار للدفاع عن التمدن والنزاهة والتقاليد النبيلة في بلاده، وأرسل التبرع إلى (معهد المجتمع المدني) الذي أقيم في ولاية (ماساشوسيتس) ويكرس جهوده لمقاومة الانحرافات والانهيارات السلوكية والأخلاقية الحاصلة في المجتمع الأمريكي، وقد وجد الرجل أن رسالة المعهد تحقق له حلماً تمناه لشعبه فوضع تحت تصرفه ذلك المبلغ الكبير.[٢]

وثمة نموذج آخر عرضه الدكتور محمد عبدالسلام، عالم الفيزياء الباكستاني الذي كان أول مسلم حصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٩م وضمنه كتابه (أحلام وحقائق) فقد ظل الرجل يحلم بإقامة مركز دولي للفيزياء النظرية، يستفيد منه ويتدرب

(١) الحياة: جريدة يومية تصدر من لندن، العدد ١١٦٥٦، بتاريخ ١٨ يناير ١٩٩٥م.
(٢) هويدي: فهمي، أثرياء هذا الزمان الأبعدون، جريدة الشرق القطرية، ٧ يناير ١٩٩٧م.

فيه علماء العالم الثالث، ولم يجد مكاناً يستجيب لحلمه سوى مدينة (تريستا) الإيطالية، وقد أدهشه أن مجلس المدينة خصص مبلغ ٤٠ مليون دولار لصالح المشروع، وأن أثرياءها بادروا إلى تشجيعه وتقديم الأموال التي احتاجها.

وروى الدكتور عبدالسلام قصة تبرع بمبلغ ٧٠ مليون دولار قدمته (مؤسسة كيك) التي أنشأتها عائلة أمريكية مغمورة تعمل بالنفط إلى معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، لكي يتمكن من بناء أكبر تلسكوب على وجه الأرض، يبلغ قطره عشرة أمتار. بعد ذلك تساءل قائلاً: أين الأثرياء في بلادنا؟ ولماذا يتقاعسون عن القيام بتلك المهام النبيلة التي يقبل عليها الأثرياء في العديد من أنحاء العالم؟[١].

كانت هذه الروح متوفرة في أوساط أثرياء الأمة في أزمنة سابقة، وبها استطاعت الأمة تحقيق ما يتحدث عنه التاريخ من انجازاتها العلمية والحضارية والإنسانية.

فكانت سنّة (الوقف الخيري) جارية في مختلف مجتمعات الأمة، ومنها أقيمت المدارس والمستشفيات والمكتبات، ودور الضيافة للمسافرين، وعبرها كان يتم الإنفاق على النشاط العلمي والثقافي.

جاء في ترجمة الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ـ ٤٣٦هـ) أنه أوقف قرية زراعية كاملة تصرف مواردها على قراطيس الفقهاء والتلاميذ.[٢]

وفي عهد قريب تبرعت في مصر فاطمة بنت الخديوي إسماعيل لمشروع إنشاء الجامعة المصرية بثلاثة آلاف وثلاثمائة فدان يخصص ريعها للجامعة، فضلاً عن قطعة أرض مساحتها ستة أفدنة لإقامة مباني الجامعة، المقر الحالي لجامعة القاهرة، وقدمت فوق هذا وذاك ١٨ ألف جنيه ذهبية لميزانية الجامعة في سنة ١٩١٣م.

كما أوقف الأمير يوسف كمال على الجامعة ١٢٥ فداناً، وأنشأ من حرّ ماله كلية الفنون الجميلة في أوائل القرن العشرين، وأوفد أوائل خريجيها على نفقته الخاصة في

---

(١) المصدر السابق.
(٢) ديوان الشريف المرتضى، المقدمة في ترجمته ص٥٠-٥١.

بعثات إلى إيطاليا وفرنسا، كما أوقف مصطفى كامل الغمراوي المزارع الثري من بني سويف ٥٠٠ فداناً على الجامعة المصرية[١]

الإنفاق على الشأن العام

لا يمكن إنكار وجود مبادرات طيبة وجهود خيّرة في مجتمعاتنا من قبل بعض المحسنين الباذلين من أموالهم وثرواتهم في سبيل الله ولخدمة المصالح العامة.

لكن هذه المبادرات لا تزال محدودة قليلة، لا تتناسب مع حجم الثروات، وسعة طبقة الأثرياء، فقد تحدثت مجلة (**Arabian Business**) أخيراً عن خمسين ثرياً عربياً يمتلكون ٤٠٤ مليار دولار، وقالت أنها لم تتعرض للملياردية العرب المغمورين وإلا لم تكف ٥٠ صفحة لباقي الأثرياء الذين لا يظهرون ثرواتهم خوفاً من الحسد والمساءلة[٢].

كما أن هذه المبادرات لا تشكل الحد الأدنى من الاستجابة للاحتياجات والتحديات الكبيرة التي تواجهها الأمة في هذا العصر، والتي تنعكس آثارها على جميع شرائح الأمة بما فيهم الأثرياء، وتؤثر على مختلف أوضاع الأمة وفي طليعتها الوضع الاقتصادي.

مما يعني أن الإنفاق على الشأن العام له مردود إيجابي على الأثرياء أنفسهم، وفي مجال اهتمامهم الاقتصادي، كما أن لشّح الإنفاق في خدمة الشأن العام نتائج سلبية ليسوا بعيدين عن آثارها.

وغريب جداً أن يتدنى مستوى الإنفاق على الشأن العام في ساحة أمة يفرض دينها الإنفاق كواجب ملزم، وركن أساس في الانتماء للدين، حيث تقرن آيات القرآن الكريم دائماً بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وتكرر ذلك في ٣٢ آية كقوله تعالى:

---

(١) هويدي: فهمي، الأثرياء الحاضرون الغائبون، مجلة الخيرية، العدد ٩١، جمادى الثاني ١٤١٨هـ.

(٢) محيط: شبكة المعلومات العربية، نقلاً عن آرابيان بيزنيس، العنوان على الشبكة، http:// /us.moheet.com:

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾[١] وبين الإيمان والإنفاق في سبيل الله، كقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٢].

لقد أصبح الإنفاق على الشأن العام ظاهرة عامة في المجتمعات الأخرى، بينما لا يزال في مجتمعاتنا ضمن مستوى المبادرات الفردية المحدودة.

ففي مقال للصحفية (مها عبدالفتاح) في جريدة (أخبار اليوم) المصرية بتاريخ ٥/ ٨/ ١٩٩٧م كتبته من واشنطن تحت عنوان (أروع ما في أمريكا أوقاف أغنيائها وروح العطاء) أشارت فيه إلى أنه لا يكاد يوجد ثري في الولايات المتحدة إلا ويخصص جزءاً من ثروته للمجتمع، وتحدثت عن نموذج لرجل من الأغنياء الأمريكيين أنشأ مؤسستين خيريتين، وأنفق عليهما في صمت مئات الملايين من الدولارات خلال السنوات العشر الماضية، ولم يعرف إلا حين باع بعض شركاته مؤخراً، ووهب لأعمال الخير مليار دولار، في حين لم يستبق لنفسه وأسرته سوى خمسة ملايين دولار فقط.

وجاء في تقرير آخر أن تبرعات الأمريكيين للجمعيات الخيرية عام ٢٠٠٣م وصلت إلى ٢٤٥ بليون دولار، ويمثل ٢,٢٪ من الدخل الوطني[٣]، كما أن معدل التبرع سنوياً هو ٥٠٠ دولار لكل أمريكي.

وقد جاء في تعريف (معهد كارينجي للسلام الدولي) أنه مؤسسة أبحاث سياسية مرموقة في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية، تأسس سنة ١٩١٠م على يد (أندرو كارينجي)، أحد أهم رواد الصناعة في تلك الحقبة، والذي جنى ثروة كبيرة في صناعة الفولاذ، ثم قرر تكريسها لتحقيق الأهداف التي شعر بأن المنظمات الخاصة لا يسعها أن تعهد بها كلياً إلى الحكومة، وأحدها قضية نشر السلام في العالم.

الاهتمام بالشأن الثقافي

غالباً ما يتجه المحسنون في بلادنا للإنفاق على ما يخدم القضايا الدينية المباشرة،

(١) سورة الحج آية ٧٨.
(٢) سورة الحديد آية ٧.
(٣) الوسط: أسبوعية ملحق لجريدة الحياة، العدد ٦٤٩، بتاريخ ٥ يوليو ٢٠٠٤م.

كبناء المساجد، والحسينيات، والحج والعمرة والزيارة، وتلاوة القرآن، وما شاكل من الأعمال الدينية.

وبالدرجة الثانية يأتي الاهتمام في الإنفاق على القضايا الإنسانية، كمساعدة الفقراء، ورعاية الأيتام، وعلاج المرضى.

وفي المرتبة الثالثة يجيء دور الإنفاق على الشأن الثقافي المعرفي، كبناء المدارس والجامعات، وإقامة المراكز العلمية، وإنشاء المكتبات، ونشر البحوث والمجلات والكتب، وتنمية الكفاءات والقدرات.

وإذا كان مستوى العطاء الأهلي محدوداً، وكان الشأن الثقافي في المرتبة المتأخرة منه، فإن ذلك يعني استمرار واقع التخلف وتكريسه على هذا الصعيد. ومع سرعة تقدم المجتمعات الأخرى معرفياً وتكنولوجياً فكيف سيكون مستقبل هذه الأمة؟

فلا بد من استنهاض الهمم، وتوجيه مبادرات العطاء نحو الشأن الثقافي، فالمعرفة ليست مسألة هامشية في نظر الإسلام، بل هي من الدين في الصميم، والإنفاق على نشر المعارف والعلوم لا يقل أهمية وفضلاً عند الله تعالى من الإنفاق على بناء المساجد وقضايا العبادة، وبالمعرفة تتقوى حالة التدين.

كما أن رفع مستوى المعرفة في المجتمع هو أفضل سبيل لمواجهة حالات الفقر والعوز الاقتصادي.

البابطين نموذج ريادي

إن مما يحفز على تشجيع الاهتمام بالإنفاق على الشأن المعرفي والتنمية الثقافية، إشهار المبادرات الطيبة بهذا الاتجاه، وتقدير المبادرين الذين يتبنون رعاية وتمويل الأنشطة المعرفية الثقافية.

وهم في الواقع يستحقون كل تقدير واحترام، لأن اهتمامهم بهذا المجال يدل على مستوى متقدم من الوعي، وشعور عميق بالمسؤولية.

ومن أولئك المبادرين الروّاد في منطقتنا الخليجية الأستاذ عبدالعزيز بن سعود

البابطين حفظه الله. وهو من رجال الأعمال المعروفين في الكويت (ولد سنة ١٩٣٦م) وله نشاط تجاري وصناعي بارز.

وهو أديب شاعر أصدر ديوانه الأول (بوح البوادي) عام ١٩٩٥م وديوانه الثاني (مسافر في القفار) عام ٢٠٠٤م.

ولاهتمامه المعرفي انضم إلى عضوية عدة مؤسسات علمية وثقافية منها: الهيئة التأسيسية للجنة الوطنية لدعم التعليم، وإدارة الصندوق الوقفي للثقافة والفكر التابع للأمانة العامة للأوقاف في دولة الكويت، ورابطة الأدباء في الكويت، ومجلس أمناء المجمع الثقافي العربي في بيروت، وجمعية فاس سايس الثقافية في المغرب، ومجلس أمناء (مؤسسة الفكر العربي)، وهو عضو مراسل لمجمع اللغة العربية في دمشق. ولا شك أن عضويته في هذه المؤسسات تعني تواصله الدائم مع هموم المعرفة والثقافة، وبذله للجهد والوقت والمال بشكل مستمر في خدمتها.

وقد أنشأ جائزة للإبداع الشعري عام ١٩٨٩م ومكتبها الرئيس في القاهرة وافتتحت لها مكاتب إقليمية في كل من تونس وعمان والكويت. كما أنشأ جائزة سنوية مخصصة لأحفاد الإمام البخاري قيمتها (١٠٠) ألف دولار، لترميم الجسور الثقافية الأصيلة بين الأمة العربية والدول الإسلامية المستقلة حديثاً في آسيا.

وأنشأ بعثة للدراسات العليا تُعطي للشعوب الإسلامية في جمهوريات آسيا الوسطى مئة منحة سنوياً للدراسة في جامعة الأزهر بالقاهرة، علاوة على خمس منح سنوية للمغرب، وأخرى للنيجر، وأخرى لأوغندا ومالي، ومئة منحة سنوية لأبناء الشعب العراقي بالتنسيق مع سماحة السيد محمد باقر الحكيم قبل شهادته S. وخمسين منحة سنوية للدراسات العليا لأبناء شهداء انتفاضة الأقصى.

وأسس مكتبة مركزية للشعر العربي في الكويت، ومكتبة في حرم كلية الآداب بجامعة القدس تقدم خدماتها لأبناء فلسطين. وأنشأ جائزة للشعر العربي في فلسطين موجهة للشباب الفلسطيني ممن تقل أعمارهم عن ٣٥ عاماً.

وأسس مركزاً للترجمة في بيروت عام ٢٠٠٤م ليقوم سنوياً بترجمة العشرات

من الكتب العلمية وغيرها من اللغات الأجنبية الحيّة إلى اللغة العربية.

كما أنشأ أكثر من عشر مدارس وكليات في كل من مصر عام ١٩٩٠م ولبنان عام ١٩٩٦م والمغرب والعراق عام ١٩٨٨م، وجمهورية قرغيزستان، وجمهورية مالي، وكازخستان، وأذربيجان، والجزائر، والهند.

إضافة إلى إسهاماته وخدماته في المجال الإنساني كإنشاء المستشفيات والمراكز الطبية وبناء المساجد.

ومع هذا الدور الكبير الذي يقوم به، والموقعية التجارية التي يحتلها، فهو يتصف بتواضع جم، وخلق كريم، وقد زار القطيف مساء يوم الخميس ٥ شوال ١٤٢٥هـ ١٨/ ١١/ ٢٠٠٤م، بدعوة من الأخ الأستاذ محمد رضا نصر الله فأقيم له احتفال تكريمي زحف إليه وشارك فيه جمع من العلماء والأدباء والإعلاميين ورجال الأعمال من القطيف والأحساء.

إنه نموذج ريادي في الاهتمام بالمعرفة والتنمية الثقافية، نأمل أن يقتفي أثره ويحتذي به أثرياؤنا ورجال الأعمال في مجتمعاتنا.

الوقف للإنماء الثقافي

لإيجاد روافد دعم ثابتة للإنماء الثقافي، ولتكريس الدور الأهلي في خدمة قضايا المعرفة، لابد من تشجيع قيام مشاريع وقفية مخصصة للتنمية الثقافية، فكما لدينا أوقاف للمساجد والحسينيات ولتخليد ذكريات أئمة الدين، وكذلك بعض الأوقاف للفقراء والمساكين والأيتام، نحتاج إلى أوقاف للابتعاث للدراسات العليا، وللبحث والتطوير، وللتأليف وطباعة الكتب، وللإعلام والقنوات الفضائية الهادفة.

وقبل ذلك يجب التفكير في الاستفادة من الأوقاف الموجودة فعلاً لصالح التنمية الثقافية.

فالأوقاف التي للمساجد ألا يمكن الاستفادة منها لابتعاث أئمة المساجد لتطوير كفاءاتهم؟ ولإقامة الدروس ودورات التعليم والتثقيف في المساجد؟ ولتمويل أنشطة

معرفية مرتبطة بالمسجد كموقع على الإنترنت ومطبوعات منتظمة؟

وكذلك الأوقاف على الحسينيات ألا يمكن الاستفادة منها في قيام أنشطة معرفية منبثقة عن الحسينية متجهة إلى أهدافها؟

وحينما يكون عندنا وقف باسم إمام من الأئمة ﷺ ألا يصح لنا أن نصرف جزءاً من ريعه لتمويل دراسات علمية عن حياة ذلك الإمام؟ أو إنشاء مؤسسة ثقافية للتعريف بسيرته وبث معارفه وعلومه؟

كمٌ هائل من الأوقاف باسم الإمام الحسين ﷺ لكنه لم يتأسس لحد الآن معهد أو مركز لدراسة حياته وثورته من تلك الأوقاف، وقد بادر الباحث المحقق الشيخ محمد صادق الكرباسي لتأسيس مركز للدراسات الحسينية في لندن، ووضع خطة لإصدار (دائرة المعارف الحسينية) من مئات المجلدات، وقد طبع منها بالفعل حوالي أربعين مجلداً، لكن هذا المركز لا يتوفر له أدنى الدعم المطلوب لتسيير عمله!!

لماذا تنحصر استفادتنا من هذه الأوقاف ضمن الأساليب والتقاليد المألوفة فقط كبناء المساجد والحسينيات، وإقامة المجالس في المناسبات وتقديم الطعام بعنوانها؟

وإذا كانت هناك تحفظات حول مدى انطباق جهة الوقفية على الأنشطة المعرفية والثقافية، فإن مراجع الدين والفقهاء الفضلاء يمكنهم إفادتنا في معالجة هذه الإشكالية، بتبيين مدى اتساع جهة الوقفية، أو الإذن في صرف ما يزيد عن حاجة الجهة المخصصة للوقف، في دعم المشاريع الأخرى.

لقد أصاب تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣م فيما خلص إليه من أن المعرفة تكاد تكون الفريضة الغائبة في أمة العرب الآن.■

الإمام البروجردي
ونهج التقارب بين المسلمين

كلمة الجمعة بتاريخ ١٣ شوال ١٤٢٥هـ

يمكننا تصنيف مواقف علماء الدين تجاه قضية وحدة الأمة والتقارب بين أتباع المذاهب إلى ثلاثة أصناف:

الأول: موقف عدم الاهتمام والمبالاة: حيث لا يجد عالم الدين نفسه معنياً بهذا الموضوع، ولا ينشغل ذهنه به، وبالتالي ليس له موقف ورؤية تجاهه.

وقد يكون من أسباب ذلك ضعف الوعي بأهمية القضية، وموقعيتها في نظر الإسلام، وتأثيرها في واقع الأمة.

وقد ينشأ ذلك من كونه في بيئة منسجمة مذهبياً، فلا يحتك بإشكاليات نابعة من تنوع مذهبي.

وقد تحصل عند البعض قناعات بعدم القدرة على تغيير واقع الاختلاف أو معالجة إشكالاته، فلا جدوى إذاً من الاهتمام بالموضوع.

الثاني: موقف المشاركة في واقع الخلاف، فالصراعات المذهبية غالباً ما تحدث بسبب طرح آراء متشددة من قبل بعض علماء المذاهب تجاه المذهب الآخر، وتعبئة كل طرف لجمهوره في مقابل الآخرين.

وينطلق بعض هؤلاء المتشددين مذهبياً من أفق ضيق، حيث تتضخم في أذهانهم بعض القضايا الجزئية من أمور العقيدة أو مسائل الفقه، فيجعلونها حداً فاصلاً بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والهدى والضلال، والإتباع والابتداع.

وبانتشار هذه الآراء المتطرفة يشتعل أوار الصراع والخلاف المذهبي داخل الأمة.

وقد يكون لبعض هؤلاء المتشددين دافع مصلحي يتمثل في استقطاب الأتباع وجذب المؤيدين، عبر المزايدة والتنافس على إثارة المشاعر الطائفية، حيث يظهرون بمظهر الحماة والمدافعين عن العقيدة والمقدسات والثوابت الدينية.

وقد تدخل بعض الإرادات الخارجية على الخط تشجيعاً لهؤلاء المتشددين، ودعماً مباشراً أو غير مباشر، لتوظيف ذلك لأغراضها ومطامعها، كتمزيق المجتمع وإشغاله بالخلافات لتمرير بعض المخططات، أو لاستغلال النتائج كمبرر للتدخل.

الثالث: موقف الدعوة إلى الوحدة والتقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية، وهو نهج الواعين المصلحين من علماء الأمة، على أساس الاعتراف بما هو قائم من تعدد مذهبي، والتركيز على مساحات التوافق الواسعة، والحوار في موارد الخلاف، والاهتمام بالمصالح المشتركة للأمة.

وينطلق هؤلاء المصلحون في دعوتهم الوحدوية التقريبية، من منطلقين: شرعي تعبدي، وعقلي مصلحي. فوحدة الأمة مطلب ديني، أكد عليه القرآن الكريم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[٢]، وأوصى به رسول الله ﷺ في موارد مختلفة كقوله ﷺ: »مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٣]، وقوله ﷺ: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[٤]، وهو مقصد أساس لتشريعات الإسلام.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩٢.
(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣.
(٣) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ص١٣٩٦، حديث رقم ٢٥٨٦، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار المغني، الرياض.
(٤) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج٢ ص١٠١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩م.

لكل ذلك فالعلماء الواعون يتعبدون الله تعالى ويتقربون إليه بالسعي لوحدة الأمة، والعمل من أجل تماسكها، وتجنيبها الفتن والصراعات. ويرون التقصير في ذلك ذنباً من كبائر الذنوب وموجبات الإثم والعقاب.

أما المنطلق العقلي المصلحي، فنقصد به ما يهدي إليه العقل من أن الوحدة مصلحة للأمة. وتماسك الأمة إعزاز للدين. وحين يرى هؤلاء العلماء ما أنجزته الأمم الأخرى من لمّ شملها، وبناء تحالفاتها، وإنشاء تكتلاتها الدولية، تحترق قلوبهم لواقع التمزق في أمتهم، ويتطلعون لإنقاذها، واستفادتها من تجارب سائر الأمم والمجتمعات.

ومن الطبيعي أن يواجه المصلحون في دعوتهم للوحدة والتقريب العوائق والمصاعب، من جهات سياسية تخالف الوحدة أغراضها، وجهات دينية تتبنى خط التشدد المذهبي، وقوى اجتماعية ارتبطت مصالحها بمعادلات الخلاف الطائفي.

لكن دافع الإخلاص لله تعالى، وإرادة الخدمة للدين والأمة، هي ما يزود المصلحين بطاقة الاستقامة والثبات، وتحمل الآلام والصعاب.

ويأتي في طليعة العلماء المصلحين في هذا العصر الإمام البروجردي S، والذي يصادف يوم الثالث عشر من شهر شوال ذكرى وفاته والتحاقه بالرفيق الأعلى سنة ١٣٨٠هـ ١٩٦١م.

الإمام البروجردي في سطور

يعتبر الإمام البروجردي واحداً من أهم مراجع الشيعة في هذا العصر، لجهة قوة زعامته ومرجعيته، ولدوره في الحوزة العلمية حيث يعتبر المؤسس الثاني للحوزة العلمية في قم بعد مؤسسها الأول الشيخ عبدالكريم الحائري (توفي ١٣٥٥هـ). ولتأثيراته على اتجاهات الشيعة وعلاقتها بسائر الطوائف الإسلامية. لذا وصفه الشيخ آغا بزرك الطهراني بأنه »أكبر زعيم ديني للإمامية اليوم، ومن أشهر مشاهير علماء

الشيعة المعاصرين»[١].

ولد السيد حسين بن السيد علي الطباطبائي البروجردي نسبة إلى بلده (بروجرد) أواخر شهر صفر سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي عليه السلام بثلاثين واسطة.

بدأ دراسته للقرآن الكريم ومقدمات العلوم العربية في السابعة من عمره بمدينته بروجرد، وانتقل في الثامنة عشر من عمره للحوزة العلمية في أصفهان سنة ١٣١٠هـ، ثم التحق بالحوزة العلمية في النجف الأشرف ـ العراق سنة ١٣١٩هـ ١٩٠١م وهو في السابعة والعشرين من عمره. وحضر دروس كبار المجتهدين كالشيخ محمد كاظم الخراساني (١٢٥٥ ـ ١٣٢٩هـ) صاحب (كفاية الأصول) والسيد محمد كاظم اليزدي (١٢٤٧ ـ ١٣٣٧هـ) مؤلف (العروة الوثقى) وشيخ الشريعة الأصفهاني. ودام بقاؤه فيها حوالي عشر سنوات، حتى عاد إلى إيران سنة ١٣٢٨هـ ١٩١٠م، على أمل الرجوع إلى النجف الأشرف مرة أخرى لكن وفاة والده حالت دون ذلك.

أصبح الزعيم الديني في بلده (بروجرد) والمنطقة المحيطة بها. وأسس حوزة علمية، كان يدرس فيها على يديه ٢٠٠ طالب علم.[٢]

وهو أول فقيه كتب تعليقة (حاشية) على كتاب (العروة الوثقى)[٣] الكتاب الفقهي المعروف بتشقيق وتفصيل المسائل الشرعية.

وانتقل إلى قم سنة ١٣٦٤هـ ١٩٤٤م بطلب من علمائها، ليتزعم الحوزة العلمية هناك، فبث فيها روح الحركة والنشاط، وأحدث نهضة علمية وفكرية عظيمة، إليها يعود الفضل في التطورات الدينية والاجتماعية والسياسية في إيران، فالإمام الخميني واحد من تلامذته، وآخرون من قيادات الثورة كالشيخ المنتظري.

(١) الطهراني: آغا برزك، نقباء البشر في القرن الرابع عشر، ج٢ ص٦٠٥، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، دار المرتضى.
(٢) الأمين: السيد محسن،أعيان الشيعة، ج٦ ص٩٢، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٨٦.
(٣) المصدر السابق.

حيث تضاعف عدد الطلاب في ظل زعامته من ألفين إلى ستة آلاف، وكان له درسان صباحاً ومساءً في الفقه والأصول، ثم توقف عن تدريس الأصول، وكان له درس أسبوعي لمجموعة من تلامذته ليالي الجمع في علم الرجال.(١)

وقد تكرست مرجعيته وزعامته بعد وفاة المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني في النجف عام ١٣٦٥هـ ووفاة المرجع السيد حسين القمي في كربلاء عام ١٣٦٦هـ وأصبح المرجع الأبرز للشيعة وخاصة في إيران.

كان ضليعاً بأنساب العلويين حافظاً للكثير منها.(٢)

وامتاز بحفظ جملة كبيرة من الأحاديث في جميع أبواب الفقه بأسانيدها، وكان محققاً في علم الرجال ولديه مناهج تطويرية في هذا العلم، أديباً في اللغتين العربية والفارسية وله أشعار وقصائد فيهما.(٣)

صنف أكثر من عشرين كتاباً علمياً في الفقه والأصول والحديث وعلم الرجال.

حينما قررت حكومة الشاه استبدال الخط العربي والحروف العربية بالخط اللاتيني في الكتابة، كما صنع كمال أتاتورك في تركيا، اتخذ الإمام البروجردي موقفاً مضاداً حال دون ذلك، وكان يقول: «إن هدف هؤلاء من تغيير الخط إبعاد مجتمعنا عن الثقافة الإسلامية ومادمت موجوداً لا أسمح بتحقيق ذلك».(٤)

كان له دور أساس في الدفاع عن الزعيم الديني السياسي السيد أبوالقاسم الكاشاني عندما سجن وكاد أن يحكم عليه بالإعدام لاتهامه بإصدار فتوى بقتل رئيس وزراء إيران (رزم آرا).

كما قام بجهد فاعل للوقوف أمام حركة (البهائية) في إيران، بتكثيف حركة

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) آل نجف: عبدالكريم، من أعلام الفكر والقيادة المرجعية، ص٣٠١، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار المحجة البيضاء، بيروت.

التوعية ضد توجهاتهم، والضغط على الحكومة لتقليص أنشطتهم.

وقف إلى جانب المرجع السيد حسين القمي في مطالبته للشاه بمنع الخمور، وإلغاء قانون منع الحجاب، وإلغاء قانون تغيير الزي الشعبي، وهدد بالزحف إلى طهران إن لم تستجب الدولة لهذه المطالب الشرعية، فاضطرت حكومة الشاه إلى الرضوخ.

وأرادت حكومة الشاه إقامة احتفالات بيوم المرأة تتضمن إخراج طالبات المدارس سافرات لمسيرة استعراضية، فاحتج السيد البروجردي على ذلك بقوة وألغى ذلك البرنامج.

من الإنجازات الهامة لمرجعيته التصدي لإقامة المراكز الإسلامية في الدول الغربية، حيث أشاد مسجداً ضخماً ومركزاً في هامبورغ ألمانيا، وبعث أحد العلماء إلى هناك، كما أسس مركزاً في واشنطن أمريكا وأوفد أحد العلماء لإدارته، وعند وفاته كان لديه مخطط لإقامة مركز في اليابان وآخر في النمسا[1]

توفي صباح الخميس ١٣ شوال ١٣٨٠هـ في قم.

منطلق الوعي والإخلاص

يلفت النظر في سيرة الإمام البروجردي وفي أفكاره، الاهتمام الكبير بوحدة الأمة، والحماس البالغ للتقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية، والتأكيد على تجاوز الخلافات والصراعات الطائفية.

وعند دراسة نشأة الإمام البروجردي والبيئة التي عاش فيها لا نجد دوافع وأجواء خارجية تفسّر لنا هذا الحماس والاهتمام المميّز، فلم تكن له توجهات سياسية، ليكون اهتمامه بالوحدة ضمن منظومة توجهه السياسي، كما هو شأن القيادات الحركية الإسلامية.

ولم تكن بيئته الاجتماعية تعاني توتراً مذهبياً يدفعه لطرح الوحدة والتقارب

(١) المصدر السابق، ص٢٩٩.

كسبيل حل ومعالجة، فالتشيع في إيران هو المذهب الرسمي وأكثرية المواطنين الإيرانيين ينتمون إليه.

والحوزات العلمية التي درس ودرّس فيها كأصفهان والنجف وقم لم تكن هذه الاهتمامات سائدة فيها، وإن كانت لا تخلو ممن يتبناها، لكن أياً من أساتذته مثلاً لم تعرف عنه طروحات ومبادرات بهذا الاتجاه.

وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام هي أن شعار الوحدة والتقريب ما كان يشكل نقطة جذب واستقطاب في وسط القاعدة الشعبية المحيطة بالسيد البروجردي، كما أن مرجعيته وزعامته كانت قوية كاسحة لا تحتاج إلى أي جهد منه لتأكيدها.

إن كل ذلك يدفعنا للاعتقاد بأن هذا الاندفاع والاهتمام الوحدوي الإصلاحي نابع من وعي ذاتي عميق بأهداف الإسلام ومقاصد الشريعة، ومن إخلاص مبدئي لا تخالطه شائبة لمصلحة الدين والأمة.

نهج التقريب

مع إيمانه العميق بالوحدة، وحرصه الشديد على تحقيق التقارب بين المسلمين إلا أن الإمام البروجردي كان موضوعياً واقعياً، لم يجنح به الخيال إلى أطروحات مثالية، ولم يترك قضيته في إطار النظريات المعلقة، بل تحرك بموضوعية وحكمة ليعبّد طريق الوحدة ويغرس بذور التقارب، ومن خلال قراءتي لما كتب عن سيرته وأفكاره، وهي كتابات قليلة لا تتناسب مع أهمية شخصيته وعِظم دوره، يمكنني أن ألخص نهجه في التقارب بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم في النقاط التالية:

١. التعارف العلمي والفكري:

فقد انقطع حبل التواصل العلمي المباشر بين علماء الشيعة وعلماء السنة لحقبة طويلة، وأصبحت معرفة كل طرف بالآخر تتم غالباً عن طريق الكتابات الوسيطة، والانطباعات المنقولة، وعادة ما يصل إلى كل طرف أسوأ ما في وسط الطرف الآخر من آراء وأفكار، ويجري تعميمها وتشكيل صورة الآخر من خلالها.

ففي أوساط الشيعة والسنة هناك آراء شاذة، وتوجهات فردية، وسلوكيات خاطئة، وضمن أجواء الإثارة والخلاف يتم إيصالها عن كل طرف للآخر، ويتم تضخيمها وتعميمها، فينظران إلى بعضهما من خلالها، مما ينتج رؤية مشوشة، وظنوناً سيئة، تكرّس حالة الخلاف والصراع.

هذا ما أدركه السيد البروجردي فأهتم بتشجيع التواصل العلمي والقراءة المباشرة بين علماء السنة والشيعة.

وينقل عنه تلامذته تأكيده في دروسه على ضرورة الإطلاع على الآراء الفقهية للمذاهب الإسلامية، وأن لذلك مدخلية في الفهم الصحيح لرأي المذهب، فبين مدارس الفقه الإسلامي وشائج اتصال في النشأة والتكوين.

يتحدث الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني وهو أحد تلامذته المقربين عن هذا التوجه قائلاً: «كان السيد البروجردي يراجع دائماً كتاب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) للفقيه المالكي ابن رشد الأندلسي، باعتباره من أحسن الكتب في الفقه المقارن، وطالما رأيت الكتاب مفتوحاً أمامه على منضدته، وتعرّف طلابه على هذا الكتاب عن طريقه»(١).

«كان الأستاذ يعتقد أنه يمكن فهم روايات الأئمة عليهم السلام وأقوالهم بشكل أفضل من خلال مراجعة الروايات والفتاوى الشائعة لأهل السنة في عصر أئمة أهل البيت عليهم السلام وكان يقول أحياناً «فقه الشيعة على هامش فقه أهل السنة» لأنّ الفتاوى المستعملة آنذاك هي فتاواهم. وكان أصحاب الأئمة يسألون أئمتهم بناءً على تلك الفتاوى، وكان الأئمة يجيبون في ضوئها أيضاً.

أعتقد أن ما يدعم هذا الرأي هو أن أكثر روايات الشيعة كانت تجري على شكل سؤال من الأئمة عليهم السلام ويظهر أن سواد الناس لا يستطيعون أن يطرحوا تلك الأسئلة بما هي عليه من دقة، فالسائلون كانوا من أهل العلم، وكانوا يسمعون المسائل من فقهاء أهل السنة، ويسألون الأئمة عنها.

---

(١) الخراساني: محمد واعظ زاده، حياة الإمام البروجردي، ص١٨٨، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، المجمع العلمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران.

وكان الأستاذ يرى أن الرجوع إلى فتاوى أهل السنة من مقدمات الفقه. وكان يقول: «إنّ قدماءنا كانوا يحفظون مسائل الخلاف». من هذا المنطلق، قام لأوّل مرّة بطبع كتاب (الخلاف) للشيخ الطوسي مع حواش مختصرة.

وكانت هذه السنّة الحسنة متداولة بين فقهائنا في الماضي حتى عصر الشهيد الثاني وما تلاه من عصور، بيد أنها أهملت أو ضعفت في القرن أو القرنين الأخيرين تقريباً. وبعد التعرّف على نهج آية الله البروجردي، أخذت مكانها ثانية في حوزة قم، ثم في حوزة النجف تدريجياً»[١].

«كان أستاذنا يُنقّب في جذور المسائل المهمة. وعند طرحه نبذة تاريخية عنها، كان يذكّر بمنشأ الاختلاف وأصله بنحو معقول بعيد عن التعصّب المذهبي، ويطرح نقاط الاتفاق والاختلاف بين المسلمين، فيذكر رأي أهل السنة ودليلهم، وكذلك رأي مدرسة أهل البيت، وانعكاس ذلك الاختلاف في الفقه».[٢]

وحينما شكّل السيد البروجردي لجنة لتأليف موسوعة (جامع أحاديث الشيعة في أحكام الشريعة) أمرهم أن يثبتوا روايات أهل السنة في ذيل أبواب الموسوعة، وبدءوا العمل على هذا الأساس، لكن أطرافاً ضغطت ضد هذا الرأي، فاضطر السيد للتراجع عنه.

«وكان يسعى إلى درج روايات أهل السنة في ذيل كلّ باب من أبواب كتاب (جامع الأحاديث) وقد بدأ العمل في هذا المشروع، ولكنَّ الآخرين صرفوه عنه، وكان هدف هذا المشروع ـ إضافة إلى رغبته في إطلاع علماء الشيعة وطلبتهم على روايات أهل السنة ـ المشاركة في تأليف القلوب والتقريب بين الفريقين، ورغم عدم تحقق هذا المشروع عملياً، فإنّه كان على الدوام يشجّع طلبة العلوم الدينية على مطالعة كتب أهل السنة.

وكان يعرض في درسه الفقهي آراء المذاهب الأخرى في المسائل الخلافية

(١) المصدر السابق، ص٩١-٩٢.
(٢) المصدر السابق، ص٩٣.

وأدلتها، ويولي هذه المسائل أهمية خاصة، ويبدو أنه كان يرى العملية الفقهية ناقصة والفقيه قاصراً دون الإطلاع على آراء فقهاء الإسلام وأقوالهم وأدلتهم. وامتازت طريقة عرضه لهذه المسائل بكونها توضح نقاط وحدود الاختلاف والإتفاق بين المذاهب إيضاحاً كاملاً»[١]

وفي مقابل سعيه لتشجيع إطلاع علماء الشيعة على آراء أهل السنة، سعى لإيصال كتب الشيعة لعلماء أهل السنة وخاصة في مصر، وشجع على طباعة بعض كتب الشيعة هناك كتفسير (مجمع البيان) للشيخ الطبرسي وكتاب (المختصر النافع في فقه الإمامية) للمحقق الحلي وغيرها.

٢. الحدّ من الإثارات الطائفية والممارسات الخاطئة

بسبب الجهل واسترسالاً مع حالات التعبئة المذهبية، ولتأثير بعض التوجهات المتطرفة، نشأت في المجتمعات الإسلامية الشيعية والسنية بعض العادات والممارسات السلبية التي من شأنها تكريس القطيعة والتباعد، وتغذية أجواء الخلاف والنزاع.

ومن واجب المصلحين الداعين للوحدة والتقريب توعية مجتمعاتهم لتجاوز تلك الإثارات، والحدّ من تلك الممارسات الخاطئة.

ونقرأ في سيرة الإمام البروجردي مواقف جريئة في نقد حالات من الغلو والتشدد المذهبي لاحظها في مجتمعه فلم يسكت عليها، ولم يداهنها، بل صدع بالحق منكراً لها داعياً إلى نبذها.

ونسجّل هنا بعض ما نقل في ترجمته كشواهد:

• أحد العلماء في قم وضع منظومة شعرية في مدح أهل البيت وجاء بها إلى السيد البروجردي ليطلعه عليها، فلما قرأها سماحته وجد في بعض أبياتها توهيناً بالخلفاء، فأنكر السيد البروجردي على الناظم ذلك وطلب منه حذف هذه الأبيات

(١) الخراساني: محمد واعظ زاده، نداء الوحدة والتقريب بين المسلمين ومذاهبهم، ص٢٣٤، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية ١٩٩٧م.

فحذفها.[١]

• تشرف لدى وروده مشهد بزيارة الحرم الرضوي الشريف بمعية عدد من العلماء والمستقبلين، فشاهد أحد الزوار يقبل عتبة الروضة الرضوية المقدسة، فامتعض من هذا العمل احتجاجاً (بأنه يصبح ذريعة بيد الآخرين لاتهامنا بأننا نعبد الإمام ونسجد له، ونحن بالفعل متّهمون بذلك مع أنّا لا نقوم بهذه الأعمال، فكيف إذا قمنا بها وشاهدها الآخرون. إذن لا نستطيع أن نبرئ أنفسنا مهما أتينا بالدليل) فرحّب المتدينون الواعون المنفتحون بكلامه هذا في حين لم يستسغه المتنسكون التقليديون. بيد أنه ـ على كلّ حال ـ أصبح منطلقاً فكرياً للعلماء، وشاع خبره في كلّ مكان[٢]

• حدث مرة أن حضر سماحته في حفل مهيب أقيم في مشهد بمناسبة ذكرى ميلاد الإمام الحسين عليه السلام، فارتقى أحد الوعاظ المنبر، وتطرق إلى ذكر مناقب الإمام الحسين عليه السلام ومما قاله: «إن قماط الإمام رفع إلى العرش فوضع الله يده على رأس القماط» فلم يقبل السيد البروجردي ذلك الكلام ودار همس في أوساط الجالسين حوله، ثم قام أحد مرافقيه من العلماء ليطلب من الخطيب التصحيح[٣]

يقول الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني: «كان آية الله البروجردي ملتزماً بمعارضة البدع وأشكال الغلو التي تصدر أحياناً عن العوام، وبعض جهلة المدّاحين تؤدّي إلى أن يسيء الآخرون الظنّ بالشيعة»[٤].

• كان يرى أن لا داعي للانشغال بموضوع الخلافة وإنما التركيز على الإمامة والمرجعية العلمية لأهل البيت عليهم السلام. يقول تلميذه الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني: ما رأيت السيد الأستاذ يطرح مسألة (الخلافة) على الإطلاق في جلساته العامة والخاصة، في الدرس وفي خارج الدرس. بل سمعته في جلساته الخاصة يقول: «مسألة الخلافة

(١) آل نجف: عبدالكريم، من أعلام الفكر والقيادة المرجعية، ص٣٠٩.
(٢) الخراساني: محمد واعظ زاده، حياة الإمام البروجردي، ص٦٤.
(٣) المصدر السابق، ص٦٥.
(٤) الخراساني: محمد واعظ زاده، نداء الوحدة والتقريب بين المسلمين ومذاهبهم، ص٢٣٣، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية ١٩٩٧م.

لا جدوى فيها اليوم لحال المسلمين، ولا داعي لإثارتها وإثارة النزاع حولها. ما الفائدة للمسلمين اليوم أن نطرح مسألة من هو الخليفة الأول؟ إنما المفيد لحال المسلمين اليوم هو أن نعرف المصادر التي يجب أن نأخذ منها أحكام ديننا» من هنا كان السيد يؤكد على حديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا: كتاب الله وعترتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» ولا يكاد يمر شهر على دروسه دون أن يذكر في مناسبة هذا الحديث».[١]

٣.مبادرات التواصل والمأسسة

لا تخلو مجتمعات الأمة بمختلف مذاهبها من مصلحين واعين، في أوساط السنة والشيعة، فإذا ما تلاقوا وتحاوروا وتداولوا الرأي وتلمسوا الطريق، فإن الله تعالى سيوفقهم لخدمة تطلعاتهم الإصلاحية الوحدوية.

من هنا يأتي دور المبادرة والسبق إلى خير التواصل والتلاقي وكما في الحديث الشريف «وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[٢].

لقد شجع السيد البروجردي المبادرة الطيبة التي قام بها الشيخ محمد تقي القمي بذهابه إلى مصر والانفتاح على علماء الأزهر، وطرحه تأسيس دار للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

وكان يبعث معه رسائل وهدايا من كتب الشيعة لعلماء الأزهر كالشيخ عبدالمجيد سليم والشيخ محمود شلتوت كما تلقى رسائل منهم. وكان من نتائج ذلك التواصل والحوار العلمي صدور فتوى شيخ جامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت بجواز التعبد بمذهب أهل البيت وأنه أحد المذاهب الإسلامية.

وقدم السيد البروجردي أكبر دعم مالي لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية

---

(١) الخراساني: محمد واعظ زاده، حياة الإمام البروجردي، ص١٨٦، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، المجمع العلمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.
(٢) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج٤ ص١٠٤، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩م.

في القاهرة ولنشاط مؤسسها الشيخ محمد تقي القمي.

وبلغ من حرصه واهتمامه بهذا المشروع الوحدوي أنه عندما كان على فراش المرض الذي توفى بسببه قال لمن حوله: قولوا للشيخ القمي أن يوصل رسالتي للشيخ شلتوت، وأن يصلح ما بين إيران ومصر، لأني أخشى أن تذهب الجهود لعدة سنوات سدى، وفي اللحظات الأخيرة من حياته كان يسأل: هل ذهب الشيخ القمي إلى مصر أم لا؟ لماذا تأخر؟[١]

إن تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة نقل قضية الوحدة من إطار فردي إلى عمل جمعي ومن فكرة إلى مؤسسة، وهي بحق خطوة عظيمة على طريق التقارب بين أبناء الأمة.

رحم الله السيد البروجردي، وجعل تلك الجهود في ميزان أعماله وحسناته، ووفق الله المصلحين الواعين لمتابعة مسيرة الوحدة، ونهج التقارب بين المسلمين.■

(١) آل نجف: عبدالكريم، من أعلام الفكر والقيادة المرجعية، ص٣٠٩.

الإنسانية بين النص والخطاب الديني

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٠ شوال ١٤٢٥هـ

يحتل الخطاب الديني في مجتمعاتنا الإسلامية موقعية خطيرة من التأثير لا يضاهيه فيها أي خطاب آخر، فهو الذي يصوغ العقل الجمعي، ويوجه السلوك العام. نظراً لارتباط مجتمعاتنا بالدين، ولما يمثله هذا الخطاب في نظرها من تعبير عن أوامر الدين وأحكامه.

من ناحية أخرى فإن الخطاب الديني أصبح مرآة لصورتنا أمام الأمم والحضارات الأخرى، فمن خلاله تتشكل الانطباعات والتقويمات عن أمتنا وديننا وثقافتنا.

وحين نجد ظاهرة عجز في العقل الجمعي للأمة، وظاهرة خلل في السلوك العام لأبنائها، وحين تهتز صورة الأمة على شاشة الرأي العام العالمي، فذلك يجب أن يدعونا إلى مراجعة خطابنا الديني، فهو إما أن يكون مسؤولاً عن حصول هذا الواقع السيئ، أو مهاداً له مكرساً لوجوده.

بين الخطاب والنص الديني

علينا أن نفرق بين الخطاب الديني والنص الديني، فالنص الديني هو كل ما ثبت وروده عن الله سبحانه وتعالى وعن رسوله محمد ﷺ، أي الكتاب والسنة. فالقرآن الكريم قطعي الصدور بكل ما بين دفتي المصحف الشريف منزه عن أي زيادة ونقصان، أما السنة الشريفة فهي ما ثبتت صحة وروده بالضوابط العلمية المقررة عند فقهاء الأمة.

وهذا النص الديني (الكتاب والسنة) فوق المحاسبة والاتهام، إنه يحكي عن الله تعالى، وعن وحيه الأمين، وعن المصدر المعصوم، ولا يمكن أن يتسرب لقلب مسلم ذرة من الشك في صدقه وقداسته.

أما الخطاب الديني فهو ما يستنبطه ويفهمه الفقيه والعالم والمفكر من النص الديني، أو من مصادر الاجتهاد والاستنباط المعتمدة.

ويتمثل الخطاب الديني في فتاوى الفقهاء، وكتابات العلماء، وأحاديث الخطباء، وآراء ومواقف القيادات والجهات الدينية.

وهنا لا قداسة ولا عصمة، فالاجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، والمجتهد يعبّر عن مقدار فهمه وإدراكه، كما وقد يتأثر بمختلف العوامل النفسية والاجتماعية التي تنعكس على آرائه وتصوراته.

كما أن قسماً كبيراً من الخطاب الديني المعاصر لا يصدر عن فقهاء مجتهدين، بل عن وعاظ وخطباء محترفين، وجهات تمتهن التصدي للشأن الديني، بغض النظر عن الكفاءة والنزاهة.

وبذلك فالخطاب الديني قابل للنقد والتقويم، لأنه كسب بشري، ونتاج إنساني، أما النص الديني فهو وحي إلهي أو تعبير عنه.

صحيح أن الخطاب الديني يستند إلى النص الديني ويحتج به، لكن ذلك يتم عبر فهم وتفسير للنص، هذا الفهم والتفسير قابل للأخذ والرد، فهناك تفسيرات لبعض النصوص الدينية تفتقد الموضوعية والدقة، أو تجتزء النصوص من سياقاتها، وتقرؤها خارج منظومة قيم الرسالة ومقاصد الشريعة.

كما أن بعض ما يستند إليه من نصوص السنة يحتاج إلى التأكد والاطمئنان من ثبوت صدوره وصحة وروده.

النزعة الإنسانية

من أبرز مظاهر العجز والخلل في واقع مجتمعاتنا تدنيّ موقعية الإنسان،

وانخفاض مستوى الاهتمام بقيمته وحقوقه، وحماية كرامته، حتى أصبحت أمتنا تحتل الصدارة في تقارير انتهاكات حقوق الإنسان على مستوى العالم، ليس من جهة السلطات السياسية فقط، وإنما على الصعيد الاجتماعي العام أيضاً. فهناك إرهاب فكري يصادر حرية التعبير عن الرأي، وتمييز ضد المرأة يحولها إلى إنسان من درجة ثانية، وقسوة على الأبناء تسحق شخصياتهم، ونظرة دونية إلى الآخر المختلف ضمن أي دائرة من دوائر الاختلاف.

ومن هذه الأرضية انبثقت توجهات إرهابية متوحشة، تمارس العنف، وإزهاق النفوس، وقطع الرؤوس، واختطاف الأبرياء، واستهداف المدنيين، كل ذلك باسم الدين، وتحت شعار الإسلام، وبعنوان الدفاع عن مقدسات الأمة.

هذه الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان في المجتمعات الإسلامية، وهذا التجاهل والتنكر لكرامة الإنسان وقيمته، حينما يحدث كل ذلك بمقولات وتبريرات تنسب إلى الدين، فمن الطبيعي أن يكون الخطاب الديني في موضع المساءلة والاتهام.

إنه لا يساورنا شك في نزاهة الدين وبراءته من هذا الذي يحدث باسمه وينسب إليه، فالقراءة الصحيحة للنصوص الدينية تكشف عن اهتمام عميق بإنسانية الإنسان، واحترام شديد لكرامته وحقوقه، لا مثيل له في أي مبدأ أو حضارة.

وبالتالي فإنه يمكننا محاكمة الخطاب الإسلامي المعاصر وتقويمه على ضوء النصوص الدينية، لمعرفة مدى الخلل والقصور الذي يعانيه في مجال الاهتمام بإنسانية الإنسان واحترام كرامته وحقوقه.

صحيح أن استشهادنا بالنصوص الدينية سيكون هو الآخر تعبيراً عن اجتهاد في فهمها وتفسيرها، لكنه اجتهاد راجح بتوافقه مع أصول الرسالات الإلهية ومقاصد التشريع، وبانسجامه مع القيم الإنسانية ومنطق العقل.

وفيما يلي رصد لبعض ما نرى أنه مواقع خلل وقصور في الخطاب الإسلامي المعاصر، لجهة الاهتمام بكرامة الإنسان وحماية حقوقه.

مكانة الإنسان

عانت المجتمعات الأوربية إبان العصور الوسطى، من تنكر الكنيسة المسيحية لمكانة الإنسان وكرامته، وتركيزها في المقابل على تعظيم الجانب الإلهي، مما أسس لرد فعل مادي عنيف في تلك المجتمعات، يتنكر للخالق جلّ وعلا ويعلي مكانة الإنسان، من هنا جاءت بعض تعريفات المذهب الإنساني والنزعة الإنسانية معبرة عن هذا الاتجاه، كما جاء في عرض (والتر ليبمان) لما يقصده بالإنسانوية «حيث يعرض (والتر ليبمان ١٩٢٩م) أخلاقية يقدمها كأنها أخلاقية (الإنسانوية) المتعارضة مع الربوبية: إنه يقصد بذلك أن الناس ما عادوا يعتقدون بملك سماوي، فهم محتاجون إلى أن يجدوا في التجربة البشرية معايير الخير كافة، يجب أن يعيشوا في الاعتقاد أن واجب الإنسان هو أن يجعل إرادته مطابقة لا لإرادة الله، بل لأفضل معرفة لشروط السعادة البشرية»[١].

وقد أصيب الخطاب الإسلامي، في مساحة واسعة منه، بشيء من داء الكنيسة المسيحية، حيث الاستغراق في الحديث عن ذات الله تعالى وصفاته، مع الإهمال لمكانة الإنسان، والذي يمثل وجوده أروع آيات الله تعالى، وأفضل تجليات قدرته ومظاهر عظمته.

وقاد هذا الاتجاه إلى أبحاث موغلة عن ذات الله تعالى وصفاته، وانشغال بالاختلافات في هذا المجال، والتي أدّت في كثير من الأحيان إلى انقسامات وصراعات مؤسفة. كالصراع بين المعتزلة والشيعة من جهة، وبين الأشاعرة من جهة أخرى، حول الاتحاد بين الذات والصفات الذاتية، أو قول الأشاعرة بوجود صفات كمالية زائدة على الذات مفهوماً ومصداقاً، أو الخلاف حول رؤية الله تعالى في الآخرة، أو حول قدم القرآن وحدوثه.

مع أن منهجية القرآن الكريم هي التركيز على الحديث عن مخلوقات الله تعالى،

---

(١) لالاند: أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ج٢ ص٥٦٨، الطبعة الأولى ١٩٩٦، منشورات عويدات، بيروت، باريس.

والتفكير في عظمة الله من خلالها، والدعوة للتأمل في جمال الكون، ودقة أنظمته، واكتشاف الثروات الهائلة، والسنن الناظمة لحركة الوجود فيه.

يقول تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١]، ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢]، ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[٣].

أما التفكير في الله تعالى فلم يرد الأمر به، بل على العكس هناك أحاديث وروايات تنهي عن الانشغال بالتفكير في ذات الله تعالى.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا»[٤]، «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق»[٥]، «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله»[٦].

وجاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إياكم والتفكر في الله فإن التفكر لا يزيد إلا تيها»[٧]، «إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا»[٨].

وفي مقابل استغراق الخطاب الديني في الحديث عن الله، كان الحديث عن مكانة الإنسان وأهميته خافتاً ضئيلا، لا يتناسب مع المساحة الواسعة التي أفردها القرآن الكريم لإبراز قيمة الإنسان ومكانته والامتيازات التي منحها الله تعالى إياه، بوصفه أفضل وأكرم موجود.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩١.
(٢) سورة يونس آية ١٠١.
(٣) سورة الذاريات آية ٢٠-٢١.
(٤) المتقي الهندي: علي، كنز العمال حديث رقم ٥٧٠٥.
(٥) المصدر السابق حديث رقم ٥٧٠٦.
(٦) المصدر السابق حديث رقم ٥٧٠٧.
(٧) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٣ ص٢٥٩
(٨) المصدر السابق.

إن بداية القرآن الكريم هي باسم الله ونهايته بلفظ الناس، ووردت كلمة الناس فيه حوالي ٢٣٤ مرة، والإنسان ٩٠ مرة، وعباد أكثر من ١٠٠ مرة، وبشر ٣٧ مرة، وبني آدم ٨ مرات.

وتشيد آيات القرآن الكريم بمكانة الإنسان وخصائصه الفريدة كقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**(١). **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**(٢). **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾**(٣).

صحيح أن بعض الآيات تتحدث عن نقاط ضعف وجوانب سلبية في شخصية الإنسان، لكنها تأتي في سياق توجيهه إلى تجاوزها والسمو عليها عبر مدارج الكمال والرقي. فهي حالات يسف إليها الإنسان عند غفلته، ولا تسلبه الأهلية الذاتية للتفوق والامتياز.

وعادة ما يقف الخطاب الديني عند هذه الحالات مركزاً عليها، ليشكل من خلالها صورة الإنسان في لحظات ضعفه وغفلته، وكأنها الصورة التي أراد القرآن تقديمها عن الإنسان، وذلك هو مكمن خلل ترتبت عليه آثار سلبية في النظرة إلى الإنسان والتعامل معه من قبل بعض الأوساط الدينية.

إننا لو استقصينا النماذج البشرية التي قدمها القرآن الكريم في آياته المباركة، لوجدنا أن العدد الأكبر منها هو من الشخصيات العظيمة الصالحة، كالأنبياء والأولياء والمحسنين، بينما ينخفض عدد النماذج المنحرفة الفاسدة كالظلمة والطغاة والمعاندين، هذا على مستوى الحديث عن النماذج، ولعل ذلك يوحي لنا بتفضيل القرآن الكريم لتقديم الإنسان في صورته النبيلة المشرقة. مع الإلتفات إلى ما أشار إليه القرآن الكريم من انتشار حالات الغفلة والضعف في أوساط بني البشر.

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٠.
(٢) سورة التين آية ٤.
(٣) سورة غافر آية ٦٤.

المهرجان الإلهي لتكريم الإنسان

في حديث القرآن عن خلق الإنسان تبرز المكانة الفريدة التي اختصه الله تعالى بها. ومن تجلياتها الملاحظات التالية:

• ليس في القرآن حديث تفصيلي عن خلق سائر الكائنات كالسماء والأرض والملائكة أو الموجودات الأخرى، كما هو الحال في الحديث عن خلق الإنسان.

• لقد بدأ الوحي الإلهي بالحديث عن الخلق وخص الإنسان بالذكر من بين جميع المخلوقات ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾(١).

• إن الله تعالى قد خلَق كل الكائنات بقدرته، لكنه تعالى أحاط خلق الإنسان برعاية وتكريم استثنائي، حيث قال تعالى: ﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾(٢). فالعظيم الشأن لا يتولى بيديه إلا الأمر الكبير القدر الرفيع القيمة، ولأن اللَه تعالى منزه عن مشابهة الخلق بالتجسيم، فإن المقصود هو خلق الإنسان بعناية خاصة.

• كما نص تعالى أنه قد نفخ في الإنسان من روحه تعالى، ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾(٣)، وبالطبع لا يعني ذلك حلول جزء من الله تعالىَ في الإنسان كما زعم بعض الحلوليين، ولكنه يعني إظهار التشريف والتكريم للإنسان بإسناد النفخ، وإضافة عنصر الروح إليه تعالى.

• وقد أعلن الله تعالى لملائكته عن إرادته لخلق الإنسان، كما يعلن أي عظيم عن مشروع هام يريد إنجازه، يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾(٤)، ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ**﴾(٥).

---

(١) سورة العلق آية ١-٢.
(٢) سورة ص آية ٧٥.
(٣) سورة ص آية ٧٢.
(٤) سورة البقرة آية ٣٠.
(٥) سورة ص آية ٧١.

• وعندما خلق الله تعالى الإنسان أقام له مهرجاناً كونياً للاحتفاء بولادة الإنسان ووجوده، وأمر الملائكة بأداء مراسيم التحية والإكرام له بالسجود ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**﴾[١]، ولعلها إشارة إلى خضوع قوى الكون للإنسان بتسخيرها له من قبل الله تعالى ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾[٢].

وقد استكثر البعض على الإنسان نوعاً أن تسجد له الملائكة، فقال أن السجود هو لشخص آدم باعتبار نبوته، وليس لجنس البشر، لكن سياق الآيات القرآنية يدحض هذا القول، حيث يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾[٣]، والآية خطاب للبشر وامتنان عليهم بالخلق ثم التصوير ثم سجود الملائكة لهم ممثلين في شخص أبيهم الأول آدم. يقول العلامة الطباطبائي: «أن السجدة كانت من الملائكة لجميع بني آدم، أي للنشأة الإنسانية، وإن كان آدم عليه السلام هو القبلة المنصوبة السجدة، فهو في أمر السجدة كان مثالاً يمثل به الإنسانية، نائباً مناب أفراد الإنسان على كثرتهم لا مسجوداً له من جهة شخصه»[٤].

هكذا يتحدث النص القرآني عن مكانة الإنسان وموقعيته، بينما لا يواكب الخطاب الإسلامي هذه الدرجة من الاهتمام بإبراز قيمة الإنسان. لقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «ما شيء أكرم على الله من ابن آدم»[٥].■

(١) سورة ص آية ٧٢-٧٣.
(٢) سورة لقمان آية ٢٠.
(٣) سورة الأعراف آية ١١.
(٤) الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٨ ص٢١.
(٥) المتقي الهندي: علي، كنز العمال حديث رقم ٣٤٦٢١.

انتخابات المجالس البلدية
خطوة على الطريق

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٧ شوال ١٤٢٥هـ

تعد المشاركة الشعبية في صناعة القرار من أهم عوامل الاستقرار في المجتمعات المتقدمة، ذلك لأن الناس تدرك أنها جزء أساس في تشكيل الأوضاع السياسية، وصياغة القرارات العامة، ضمن أروقة صناعة القرار في تلك المجتمعات الديمقراطية، فالشعب يقرر و الحكومة باعتبارها السلطة التنفيذية تعكس تلك القرارات على أرض الواقع، تلك هي حقيقة الأمر ببساطة، و ذلك هو سر الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي في تلك المجتمعات.

فمتى ما شعر الناس أن لهم كلمة الفصل في اتخاذ القرارات، فسيكونون أول المندفعين نحو تطبيقها، ومتى ما حدث العكس و استبد آخرون بالرأي، فسوف لا يشعر الناس بطبيعة الحال بذات الحماس والاندفاع وستختلف تلقائياً درجة الاستجابة لديهم، هذا من ناحية، و من ناحية أخرى فإن القرار الذي تشترك فيه العقول لا شك ولا ريب يكون أكثر نضجاً، وأقرب إلى الصواب من الرأي الذي يتخذه فرد واحد، أو أفراد معدودون، أضف لذلك أن القرار إذا كان قراراً شعبياً فسيصنف كل من يقف في طريقه كمن يعمل ضد مصلحة الجمهور، فلابد حينها من أن يقف هذا الجمهور في وجهه، والعكس صحيح، إذ سيتنصل الجميع من مسؤولية مخالفة أي كان لأي قرار لا يد ولا دخل لهم في اتخاذه وتقريره.

وقد تابع العالم مؤخراً الخلاف والانقسام الذي نشب حول نتائج الانتخابات العامة في أوكرانيا، والذي هدد بأزمة كادت تعصف بالبلاد وتلقي بها في أتون حرب

أهلية، بيد أن احتكام الشعب إلى مرجعية مقبولة ساعد بشكل كبير في تحجيم حدة الانقسام، وتضييق شقة الخلاف، ووأد نوايا الانفصال التي برزت لدى بعض فئات الشعب، و كل ذلك لم يكن ليحصل لولا أن اتخذت الشرعية والقانون طريقها في سبيل إيجاد حلول مقبولة لجميع أطراف الأزمة.

الإسلام والمشاركة الشعبية

وقد شرع الإسلام أمر المشاركة الشعبية وفسح الطريق واسعاً أمامها، وقد جاء ذلك نصاً في الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إذ قال عز من قائل ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ فالشؤون العامة والهموم المشتركة هي من مواضع الشورى بين الناس، فهم يتشاورون ومن ثم يقررون، و بالتأكيد حينما تقول الآية ﴿**شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ فمعنى ذلك أن هذه الشورى هي مصدر القرار، و إلا فلا معنى حينها للشورى بينهم إذا كانت القرارات بيد جهة أخرى، فلا بد إذاً من أن تكون الشورى هي مصدر القرار .

وقد أمر الله تعالى نبيه الأعظم محمداً ﷺ مع عصمته واتصاله بالوحي ومكانته ورجاحة عقله وعظمة فكره واكتمال كل الصفات في شخصه الكريم، أن يستشير الناس إذ قال عز و جل ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[1]، ذلك لتكون بعده ﷺ نهجاً و سيرة تُقتدى، وقد ورد في السيرة النبوية أنه ما من أحد أكثر مشاورة من رسول الله ﷺ فقد كان يستشير الناس في كل شيء، حتى في موضوع بسيط كصنع منبر يخطب عليه في المسجد، لم يقرر ذلك إلا بعد عرضه على الناس وأخذ رأيهم. جاء في طبقات ابن سعد: كان رسول الله ﷺ، يوم الجمعة يخطب إلى جذع في المسجد قائماً، فقال: إن القيام قد شقّ عليّ، فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام؟ فشاور رسول الله ﷺ المسلمين في ذلك، فرأوا أن يتخذه[2].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ص٢٥٠، دار بيروت ١٩٦٠م.

بل حدث أكثر من ذلك حين كان للرسول ﷺ رأي وللناس رأي آخر مغاير، فيتنازل الرسول عن رأيه إلى رأي الناس، كما حصل في غزوة أحد، فقد كان رأي الرسول ﷺ وبعض أصحابه البقاء في المدينة كما حصل في غزوات أخرى، لكن بعض الأصحاب قالوا: أخرج بنا إلى عدونا! وقال رجالٌ من أهل السنّ وأهل النية، فيهم حمزة بن عبدالمطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، وغيرهم من الأوس والخرج: إنّا نخشى يا رسول الله أن يظن عدّونا أنا كرهنا الخروج إليهم جُبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا؛ ومالت مجموعة كثيرة تساند هذا الرأي، وبعد المشورة والمناقشات أتضح أن الأغلبية ترى الخروج إلى العدو وهو خلاف رأيه ﷺ، فاستجاب الرسول ﷺ لرأيهم(١)

وبالرغم من الانتكاسة التي حصلت للمسلمين في واقعة أحد، إلا أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بالالتزام بمبدأ الشورى مع أصحابه، كي لا تكون تلك الانتكاسة سبباً للعزوف عن الشورى، يقول تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾(٢).

وحقاً ما قاله أبوهريرة فيما روي عنه: «ما رأيت رجلاً أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»(٣).

ومثله ما رواه عروة عن أم المؤمنين عائشة قالت: «ما رأيت أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ»(٤).

إذاً فمسألة الشورى هي مبدأ، والديمقراطية الموجودة الآن في بعض المجتمعات هي صيغة وطريقة لتنفيذ هذا المبدأ.

---

(١) باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، ج٢ ص٦٦.
(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.
(٣) ابن حبان: محمد، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ج١١ ص٢١٧.
(٤) البغوي: الحسين بن مسعود، تفسير البغوي (معالم التنزيل) ج٢ ص١٢٤.

كيف نستشير الناس؟

كان المجتمع الإسلامي في بواكير الدعوة الإسلامية محدوداً، وبما يسمح بتواجد المسلمين في المسجد مجتمعين، وبما يتيح الفرصة ليقوم الرسول الأكرم ﷺ بطرح ما يشاء من قضايا أمام الجميع فيشاركونه الرأي والمشورة، لكن حينما اتسعت رقعة المجتمع وتعددت شؤونه وكثرت قضاياه، أضحى عندها مشروعاً: السؤال كيف نستشير الناس كلهم؟ وكيف نأخذ رأيهم؟ ففي بلاد يقطنها أكثر من ٢٥٠ مليون نسمة كالولايات المتحدة الأمريكية، أو ألف مليون مواطن و أكثر كما في الهند أو جمهورية الصين الشعبية، أنى لنا استشارة هؤلاء جميعاً، وهكذا في سائر البلدان، فلابد إذاً من سبيل، ومن خلال سلسلة تجارب المجتمع البشري توصل الناس إلى طريقة التمثيل الانتخابي، بمعنى أن يتمثل الناس في عدد معين من النواب يختارونهم وفق نظام انتخابي محدد، يكون بعدها هذا الممثل المنتخب معبراً عن إرادة الناخبين، فيجتمع هؤلاء الممثلون أو النواب باعتبارهم معبرين عن رأي من وكلهم عبر الانتخابات، فالممثل هنا أو النائب المنتخب هو في الحقيقة وكيل عن الناس يوصل رأيهم وصوتهم، من هنا تكون صيغة الانتخابات في النظام التمثيلي الانتخابي وسيلة وصيغة لتحصيل رأي الناس.

والإسلام الذي أمر بالشورى أمر بها كجوهر وكمبدأ، لكنه ترك أمر كيفية تحقيق هذا المبدأ لأهل كل عصر و كل جيل، ليحددوا هم الطريقة المناسبة، وحسبما يبدو الآن أن أفضل صيغة وصلت إليها البشرية فيما يتعلق بالشورى وفق الاصطلاح الشرعي هي صيغة النظام التمثيلي الانتخابي، أي من خلال إقامة الانتخابات العامة، لتكون بالتالي هي الصيغة التي يمكن عبرها أخذ رأي الناس، فالمجتمعات المتحضرة سائرة على هذا المنوال في مختلف أمورها السياسية و الخدمية، حيث تتخذ القرارات عبر الديمقراطية، ولنقل عبر مبدأ الشورى باختلاف التفاصيل من بلد إلى آخر.

وحيث تتطلع الآن مجتمعاتنا العربية والإسلامية للنهوض و التغيير، فقد أدركت أن لا سبيل لها إلا انتهاج طريق الديمقراطية، وانه ما لم يكن هناك نظام انتخابي تتخذ من خلاله القرارات وفق رأي أغلبية الناس فستبقى مجتمعاتنا تعيش التخلف والانقسامات

والصراعات والاضطرابات، وستتكرس حينها المشاكل القائمة بصورة أكبر، فهاهنا يكمن الحل و هذا هو الطريق، لكن ذلك بحاجة إلى تدريب وإلى ثقافة انتخابية ووعي وإلمام بالنظم الانتخابية والتنافس الديمقراطي ليدركه الناس ويتعودوا عليه.

من هذا المنطلق تأتي نظرتنا الإيجابية لانتخابات المجالس البلدية، التي بدأ الآن الاستعداد لها في بلدنا المملكة العربية السعودية، والتي تكمن أهميتها في كونها خطوة على الطريق الصحيح في مجال معالجة الشؤون العامة للناس، وفق رأيهم واختيارهم، فالشئون البلدية و الصحية والبيئية والعمرانية لابد و أن يكون للناس فيها رأي، أما أن يأتي موظف هنا أو جهة معينة هناك لتقرر للناس كل أمورهم فليس هذا هو الطريق السليم، بل أن الطريق الصحيح هو أن يكون للناس رأيهم، فكيف إذاً السبيل لذلك؟ الجواب باختصار وكما أسلفنا عبر التمثيل الانتخابي، فالممثلون المنتخبون من قبل الشعب في كل منطقة، هم الناس المُناط بهم مهمة الاجتماع وتداول الرأي وتقرير ما فيه مصلحة الناخبين، ولا نخفي هنا تطلعنا إلى أن يكون جميع أعضاء المجالس البلدية منتخبين وفق اقتراع عام، لكن ارتأت القيادة السياسية في البلد انتهاج أسلوب التدرج في العملية الانتخابية، لتبدأ بانتخابات نصفية للمجالس البلدية، و ليكون بذلك نصف أعضاء المجلس البلدي منتخبين والنصف الآخر معينون، ومعلوم أن وجهة النظر الأخرى والتي تقف بصفها أغلب النخب السياسية والمثقفة هي أنه كان من الأفضل أن يكون كل المجلس البلدي منتخباً وهو ما نأمل أن يتحقق في القريب إن شاء الله.

من جهتنا نعتقد أنه يجب أن نستفيد من العملية الانتخابية حتى مع محدوديتها في سبيل تكريس و تثبيت هذا المبدأ، نعني مبدأ مساهمة الناس في إدارة شؤونهم عبر المشاركة الانتخابية الفاعلة لاختيار ممثليهم، و أن يتطلعوا في ذات الوقت للأمام عبر المطالبة بالخطوات الإصلاحية الأخرى الأبعد مدى، فلا يصح الاكتفاء بهذا الحد، وبالخصوص في ظل التصريحات الرسمية القائلة بتطوير وتوسيع المشاركة في المستقبل، لذلك على عاتقنا جميعا تقع مسؤولية السعي نحو توسيع المشاركة الشعبية.

مواقف متنوعة

من الواضح أن قسماً من الناس يقفون موقفاً سلبياً تجاه مسألة المشاركة الانتخابية، ربما نتيجة لاعتقادهم بأن هذه عملية ناقصة و لا ترقى للتطلعات، و أن ما يريده الناس أكبر من ذلك، ونحن لا ننكر ذلك ولكنا نرى أن علينا أن نستثمر هذه الفرصة، وأن نتفاعل معها، ونطالب من ثم بالخطوات الأخرى، وهذا أفضل بكثير من الموقف السلبي الذي يبدو منطلقاً من مبدأ إما كل شيء أو لا شيء، وهو ما يجر إلى تفويت الفرص المتاحة، وبهذا الصدد تحضرني رواية جميلة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام حين قال: «من انتظر بمعاجلة الفرصة مؤاجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصته»[١].

فمتى ما أتيحت لنا الفرصة فلنقتنصها ولنستفد منها أقصى استفادة، أما اتخاذ موقف التقصي بمعنى الرغبة في استكمال الشيء أكثر فأكثر، فليس معلوماً حينها ما إذا كان سيحصل على مراده، فمن الحكمة إذاً العمل وفق مبدأ الأخذ والمطالبة، أن نأخذ ما هو متاح وأن نطالب بالمزيد، من خلال تسخير ما نحصل عليه والاستفادة منه في الحصول على موقعية أفضل في المستقبل.

ولذلك نقول مع احترامنا لأصحاب الموقف السلبي من الانتخابات نتيجة قناعتهم بأنها خطوة ليست بمستوى التطلع والطموح، نرى أنه من الناحية العملية ينبغي الاستفادة من هذه الفرصة إلى أقصى مدى، خاصة وأن لها أبعاداً أخرى و تأثيرات مستقبلية، دون أن نغفل ضرورة الالتزام بالمطالبة بالمزيد من الفرص و المزيد من التقدم على هذا الطريق.

هناك قسم آخر من الناس ممن لديهم موقف نفسي يتمثل في حالة اللامبالاة، فهم غالباً لا يتفاعلون مع القضايا العامة، وقد تكون سلبيتهم تلك نابعة من سبب أو آخر، من هنا نقول ينبغي للإنسان أن يعود نفسه دائماً على التفاعل الايجابي، هنا ينبغي الاستفادة من ما هو متاح والتطلع إلى الخطوات المستقبلية، ورأينا أن من المصلحة

---

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٥ ص٢٦٨.

العامة أن يتفاعل الناس مع هذه الخطوة وأن يكون هناك تجاوب مع انتخابات المجالس البلدية.

تشجيع الجمهور على المشاركة

علينا تشجيع الناس والدعوة إلى المشاركة وألا نسمح بإشاعة أجواء سلبية حول الموضوع الانتخابي، لأن ما يحدث أحياناً أن الكلام السلبي هو الذي يأخذ طريقه في الانتشار.

هنا لابد من الإشارة إلى أننا لابد وأن نتحلى بالايجابية بصورة أكبر في التعامل مع ما يهمنا ويؤثر علينا ضمن الشأن العام، وعلينا من ثم أن ندعو للمشاركة وأن ننشر الأجواء الايجابية، وعندما نشير إلى الأجواء الايجابية فلا نعني أننا نؤمن بأن هذا هو غاية المراد وأن هذا أقصى ما نبحث عنه، بل لأنا نعتبر كل ذلك خطوة على الطريق الصحيح.

وكما نعلم فقد بدأت عملية تسجيل الناخبين في المنطقة الشرقية يوم الثلاثاء الثاني من ذي القعدة ١٤٢٥هـ فماذا تعني عملية تسجيل الناخبين؟

هنا لابد من توضيح بسيط وهو أن على الناخب كي يكون مؤهلاً للمشاركة في العملية الانتخابية تصويتاً وترشيحاً أن يبادر لتسجيل اسمه ضمن ما يسمى بالقيد الانتخابي وبعدها يستطيع الحصول على بطاقة ناخب، أي أنك بهذا تكون مستكملا للشروط النظامية التي تؤهلك للمشاركة في الانتخابات، وليس ثمة من شروط سوى أن يكون الناخب في سن الواحد وعشرين من عمره وأن يكون ذكراً، وإن كنا نطمح إلى أن يكون الاقتراع عاماً وشاملاً كل المواطنين ذكوراً وإناثا، لكن هذا ما حدث الآن ضمن الحالة الجزئية للعملية الانتخابية، وأن لا يكون من العسكريين العاملين.

فكما هو معلوم المطلوب إذاً أن يصطحب الواحد منا البطاقة المدنية، إضافة لإثبات السكن، ومن ثم التوجه لأحد المراكز الانتخابية المنتشرة والمعلن عنها إعلامياً، لتسجيل الاسم واستلام بطاقة الانتخاب، هذه العملية مهمة حتى يعرف حجم القاعدة الانتخابية، وعدد الأصوات الموجودة في كل منطقة من المناطق، وفي رأيي

حتى أولئك غير المتحمسين للمشاركة الانتخابية من الحكمة أن يبادروا لتسجيل أسمائهم في القيد الانتخابي فهم بالنهاية لن يجبروا على المشاركة و الإدلاء بأصواتهم ؟ أقول هذا حتى يحفظ لهم حق المشاركة فلربما تغير رأيهم وارتأوا المشاركة في مستقبل الأيام.

ماذا نريد نحن من المجلس البلدي ؟

علينا أن نتعرف على هدفنا من انتخاب المجلس البلدي، من خلال مناقشة وبلورة النواقص والحاجات التي تهم البلد، وتخدم المجتمع في كافة المجالات البيئية والعمرانية وكل ما هو ضمن الاختصاصات البلدية، هذه الأمور ينبغي أن تتوضح في أذهان الناس من المنتخبين والمرشحين، فهي مسألة مهمة والواجب أن تشكل من أجلها البرامج الانتخابية عبر الاجتماعات والندوات والمناقشات بالاستفادة من المتخصصين والعارفين.

وضمن ذات السياق من المهم هنا التذكير بضرورة تفعيل الأنشطة الاجتماعية المختلفة، من قبيل الجلسات المفتوحة، والندوات العامة، والحوارات واللقاءات المباشرة مع الجمهور، إضافة إلى ضرورة إجراء رصد للنواقص التي تعاني منها المنطقة، وهذه واحدة من أكبر فوائد العملية الانتخابية حين تتفتح أعين الناس فتبدأ في المراقبة و البحث في هموم وتطلعات وحاجات البلد، للمطالبة المنظمة بالتحسين والتطوير لمختلف الخدمات العامة.

المرشحون

وفيما يتعلق بالمرشحين فينبغي لكل مواطن يجد في نفسه القدرة والكفاءة، وكانت لديه فرصة أن يترشح ويخدم المنطقة، عليه أن لا يبخل بذلك، فالمسألة ليست سعياً خلف منصب أو شهرة، بل هي خدمة عامة للمجتمع، فإذا كانت لدي القدرة على أن أخدم مجتمعي عن هذا الطريق فعلي ألا أبخل ولا أتردد، هذا هو ما يجب أن يكون منطلق كل واحد منا.

من ننتخب؟

مع تعدد المرشحين يطفو للسطح هنا السؤال التالي، من ننتخب؟

الجواب أن على الناس أن ينتخبوا من يرون أنه يخدمهم، ويعكس رغباتهم، ويدافع عن مصالحهم وحقوقهم وقضاياهم ضمن إطار المجلس البلدي، ولا يصح بأي حال أن تصبح الانتخابات بالمحسوبيات، فتقاس عملية التصويت لهذا المرشح أو ذاك وفق الأسس والمقاييس القبيلية أو المذهبية أو المناطقية، فذلك كله مما لا يصح وهو خطأ فادح، إذ ينبغي أن يصوت الناخب لمن يطمئن إلى كفاءته و قدراته على ممارسة المسؤولية وخدمة البلد.

فمسألة المذهب على سبيل المثال ليست قضية ذاتية، فمن الممكن أن يكون مرشحك للانتخابات من غير مذهبك متى ما امتاز بالجدارة والكفاءة والقدرة على خدمة المجتمع، هنا في محافظة القطيف لدينا أخوة من أهل السنة موجودون في عنك ودارين وأم الساهك والنابية، هؤلاء جزء من منطقتنا، والانتخابات ينبغي أن تكون الفرصة المناسبة للاندماج بين مختلف أبناء و نواحي منطقتنا، فلا نريد أن يكون هناك تصنيف أو تقسيم فيما بيننا، وكذلك الحال في محافظة الأحساء، إنهم جزء من هذه المنطقة كما نحن جزء منها، فينبغي أن تكون الانتخابات وسيلة للتداخل والتنسيق والتعاطي، بحيث لا تصبح الانتخابات وسيلة للفرز المذهبي بأي حال فهذا ليس أمراً مناسباً، وذلك لا يتأتى إلا عبر التعارف والحوار والتعاون والتنسيق بين أبناء المنطقة كلهم، في القطيف والأحساء والدمام والخبر، فكل هذه المناطق بها مواطنون من مذاهب مختلفة ينبغي أن يجعلوا العملية الانتخابية فرصة للاندماج والتعاون، وليس مجالاً للفرز والمفاصلة، ينبغي أن نفكر في تجاوز هذا الأمر بالطريقة المناسبة التي تفيد الجميع وتخدم البلد.

كما أن من الخطأ في ذات السياق أن تسيطر على الناخب الحسابات الفئوية أو المرجعية، فالمسألة الانتخابية برمتها ليست إلا خدمة للوطن وتطويراً للخدمات البلدية وخدمة لقضايا الناس، هنا ينبغي للناس انتخاب الشخص المناسب ليكون في الموقع المناسب، بمعنى أن نمارس الحياة الانتخابية بمعزل عن بعض الحساسيات

التاريخية التي تقلصت بحمد الله ولم يعد ذات معنى الكلام عن شمال وجنوب و نحن أبناء منطقة واحدة فالمعيار هو الكفاءة، فلا ينبغي أن تكون الانتخابات مجالاً لتنمية الحساسيات الجاهلية وهذا مظهر من مظاهرها وإنما ينبغي أن نختار الأنسب.

فيما يتعلق بالمرشحين أحببنا الإشارة هنا إلى نقطة قد تكون الآن سابقة لأوانها لكن نذكرها من باب أعطاء فكرة سريعة، وهي ضرورة أن تسود المنافسة الشريفة فيما بين المرشحين، و أن تتحلى إدارة الحملات الانتخابية بالتنافس الايجابي الخلاق، فليس من الصحيح إشاعة أجواء الإساءة والطعن والتسقيط من فريق تجاه فريق آخر، فالمطلوب أن يعمد كلٌ إلى طرح برنامجه الانتخابي وكفاءته و على الناس أن تختار.

أملنا إن شاء الله أن تكون هذه المناسبة فرصة طيبة من أجل تنظيم علاقاتنا الداخلية، لأن العملية الانتخابية تحتاج إلى قدر كبير من التعاون بين المرشحين والناخبين وفرق العمل المساندة والمؤيدين، بمعنى أن العملية برمتها حالة جمعية، فكيف تنظم هذه الحالة بين الناس؟ كيف نتلافى السلبيات ونعمل على ترشيدها؟ فمن الطبيعي أن تكون هناك بعض السلبيات والأخطاء فكيف نتلافاها ونتجاوزها؟ ذلك ما يجب علينا جميعا المساهمة فيه والتعاون عليه.

من فوائد الانتخابات

تكمن أهم فوائد عملية الانتخابات البلدية في أننا سنتمكن نحن المواطنين من خلالها على التمرين والتجربة في المساهمة في صناعة القرار، فكل شؤون حياتنا كانت مقررة لنا سلفاً، و للتو أتيحت لنا الفرصة نحن أبناء هذا الجيل فعلينا أن نستفيد منها و نحسن استثمارها.

أكرر الدعوة إلى تسجيل الأسماء في مراكز تسجيل قيد الناخبين والتي بدأت عملياً، وأطمح وأتطلع إلى أن يصبح مجتمعنا نموذجاً على هذا الصعيد، نأمل أن نرى أن محافظة القطيف أدارت العملية الانتخابية بشكل نموذجي، ليس زهواً ولا تفاخراً على الآخرين، وإنما هو تنافس إيجابي، فكل منطقة تسعى للتنافس على موقع الأفضلية بين المناطق الأخرى، نحن نريد لمنطقتنا أن تكون نموذجية، ونريد لمجتمعنا أن يكون

نموذجاً في تفاعله و تعاطيه و تعامله مع هذا الأمر، كما نأمل أن تكون الانتخابات البلدية فاتحة خير إن شاء الله، تعقبها انتخابات أخرى في مختلف المجالات كمجلس الشورى، بل نتمنى إن شاء الله أن تنظم جميع أمورنا الاجتماعية بالانتخاب بدءاً من ولي المسجد والحسينية وولي الوقف، إلى أن تتطور الأمور بحيث يكون هنالك شورى في مختلف الأبعاد الاجتماعية كما يقول القرآن ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾.

هذا ما نأمل أن يصل إليه مجتمعنا في المستقبل إن شاء الله كما تحقق في المجتمعات الأخرى.■

كرامة الإنسان والخطاب الديني

كلمة الجمعة بتاريخ ٥ ذوالقعدة ١٤٢٥هـ

انتماء أي جمع من الناس لإطار مادي أو معنوي مشترك، تترتب عليه درجة من الخصوصية للعلاقة فيما بينهم، فإذا كانوا أبناء عشيرة واحدة مثلاً، فإنهم يشعرون بالتزام خاص تجاه بعضهم بعضا، وإذا كانوا أهل دين واحد، كانت العلاقة فيما بينهم أوثق واحترامهم لبعضهم أكثر، هذا أمر طبيعي معروف، ولكن هل تعني خصوصية العلاقة فيما بينهم الازدراء والتحقير لمن هم خارج إطارهم من بني البشر؟ وهل يعني ذلك أن الإكرام والاحترام يقتصر على الناس المشاركين لهم في انتمائهم فقط، أما غيرهم فهم بشر من الدرجة الثانية؟

إننا نجد في النصوص الإسلامية تأكيداً على فضل الإسلام والإيمان، ومدخليته في كمال شخصية الإنسان، وإشادة بمكانة الإنسان المسلم ـ المؤمن، وتوجيهاً لاحترامه ورعاية حقوقه، كل ذلك مفهوم في إطار الاعتقاد بأحقية الدين وصوابيته، وضمن توثيق عرى التلاحم بين أبنائه ومعتنقيه.

ولكن هل يستبطن ذلك التنكر لكرامة الإنسان خارج دائرة الإسلام؟

وهل يسوّغ النظر بازدراء واحتقار لجميع أبناء البشر غير المسلمين ـ المؤمنين؟

أم هل يبرر انتهاك شيء من حرماتهم وحقوقهم المادية والمعنوية؟

لقد عانت البشرية طوال عهودها من انتشار مثل هذه التصورات، التي تحصر الكرامة الإنسانية في فئة من الناس، وتحط من شأن وقدر من سواهم، مما يؤسس

لتبرير العدوان وانتهاك الحقوق والحرمات.

فالنازية التي أطلق حركتها هتلر، كانت تبشر بتفوق العرق الآري، وأن اليهود والسلافيين والأقليات الأخرى هي في مرتبة دنيا، ويقضي ذلك بإبعاد غير الآريين عن وظائف الدولة، وبمنع الزيجات المختلطة، وبتعقيم المعاقين والمتخلفين عقلياً، وبمحاربة كل عرق غير آري[١]

واليهود والنصارى كانت تسود في أوساطهم نظرية الشعب المختار، التي تبرر ازدراء بقية الشعوب، والتجاوز على حقوقها، كما تحدث عن ذلك القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾[٢].

هذا هو المنطق الإلهي الذي يقرر التساوي بين أبناء البشر في ذاتيتهم الإنسانية ﴿**بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾.

ولا يعني الإنتماء لعرق أو دين تبرير الازدراء للآخرين أو التجاوز على حقوقهم، كما كان يرى أولئك اليهود الذين لا يحترمون أموال غير اليهود باعتبارهم أميين لا إثم في مصادرة حقوقهم، كما يقول عنهم تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[٣].

إنهم ينسبون إلى شريعتهم المنزلة في الأصل من الله تعالى: أنها تجيز لهم مصادرة أموال غير المنتمين إلى دينهم، ﴿**لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾ ويأتي الرد القاطع من الله تعالى أن ذلك القول كذب وافتراء، حيث لا يمكن أن يشرع الله تعالى للعدوان على حقوق الآخرين: ﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.

ويبدو أن تنديد القرآن الكريم بمثل هذه الآراء والتصورات ورده عليها لم يكن

---

(١) كيالي: عبدالوهاب، موسوعة السياسة، ج٦ ص٥٤٦، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
(٢) سورة المائدة آية ١٨.
(٣) سورة آل عمران آية ٧٥.

لمجرد الإدانة والتشهير بأولئك اليهود والنصارى، وإنما الأهم من ذلك تحذير الأمة الإسلامية من الوقوع في نفس المنزلق، بأن تشيع في وسط المسلمين نظرات ازدراء وتحقير تجاه الآخرين، تبرر لتجاوز حرماتهم والاعتداء على حقوقهم.

إن هدف القرآن الكريم تأصيل مبدأ كرامة الإنسان لإنسانيته أولاً وقبل كل شيء، فمن أي عرق انحدر، وإلى أي دين وعقيدة انتمى، فهو إنسان له كرامته الذاتية.

تأصيل الكرامة الذاتية

وقد تنبه العلامة السيد محمد حسين فضل الله لهذه الحقيقة، وأكدّ عليها عند تفسيره للآية الخامسة والسبعين من سورة آل عمران. حيث قال:

«ربما نستوحي من تنديد الله باليهود في نظرتهم إلى الآخرين وعدم مسؤوليتهم عن أموال الآخرين، فلهم أخذها من دون مقابل، أنَّ الله سبحانه لا يريد للمسلمين أن يأخذوا بهذه النظرة في تعاملهم مع غير المسلمين، فيحللوا لأنفسهم مصادرة أموالهم وسرقتها بحجة عدم احترام الكافر، من حيث المبدأ، في نفسه وماله، إلا أن يكون ذمياً أو معاهداً، بلحاظ قانون الذمة والعهد، وهذا ما درج عليه بعض الفقهاء الذين لا يرون العنوان الحربي أساساً لحلية أموال الكافرين للمسلمين، بل يرون الأصل عدم الاحترام إلا في صورة الذمة والعهد، أخذاً ببعض الإطلاقات المتضمنة قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، حقن بها ماله ودمه وعرضه»، وأمثال ذلك من الأحاديث التي تربط الاحترام بالإسلام، مما يجعل الكافر ممن لا حرمة له لكفره، ولكننا ذكرنا في أبحاثنا أن هذه الإطلاقات ليست واردة في مقام البيان من هذه الجهة ليؤخذ بمضمونها الإطلاقي، بل هي واردة في مقام إهدار الإسلام مال الكافر ونفسه وعرضه بالحرب، وربما يتأيد هذا الرأي في قوله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[1]؛ فإن الظاهر

(١) سورة الممتحنة آية ٨-٩.

من هاتين الآيتين أن الكافر الذي لم يعلن القتال على المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم، بل كان موقفه موقف اللاحرب في خط السلام الطبيعي الذي يعيشه الناس مع بعضهم البعض ـ من دون معاهدة أو ذمة بالمعنى المصطلح العقدي للمسألة ـ يستحق التعامل معه بالبرّ في تقديم الخير له بكل ألوانه، وبالعدل ـ بمفهومه العام ـ الذي يقتضي أن له الحق في ذلك، باحترام ماله ونفسه وعرضه وعدم الاعتداء عليه إلا بالحق، ومقتضى ذلك أن الكفر لا يساوي عدم الاحترام، بل الحرب بمضمونها المباشر وغير المباشر هي التي تقتضي ذلك ـ.

وهذه الآية تحمل الكثير من الإيحاء بأن الخلاف في الدين لا يبرر ـ بمجرده ـ إهدار حرمة الآخرين، فإن الله ذمّ اليهود على ذلك، وربما يرى بعض الفقهاء أن الآية لا تدل على أكثر من وجوب أداء الأمانة لا وجوب احترام المال، ونحن نرى للأمانة خصوصية في المسألة لأنها تتضمن التزاماً عقدياً من الشخص المؤتمن بأن يؤدي الأمانة إلى من ائتمنه عليه من خلال مبدأ الوفاء بالالتزام العقدي مع الآخر، ولهذا فإنا لا نجد علاقة بين موضوع الآية وإهدار احترام مال الكافر.

والجواب عن ذلك أن الأمانة لم تذكر موضوعاً في الآية بلحاظ خصوصيتها العقدية، وإنما لوحظت ـ في سلوك اليهود ـ من حيث أنهم لا يحترمون أموال غير اليهود بقرينة قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾ فهم يخونون الأمانة على أساس عدم احترامهم أموال الآخرين، لا على أساس أنهم لا يقومون بالوفاء بالتزاماتهم العقدية، فإذا قام المسلمون بمثل ذلك في سلوكهم استحقوا الذم على ذلك. وربما نلاحظ ـ في هذا المجال ـ أن هناك عقداً إنسانياً بين العقلاء يلتزمونه في سلوكهم الاجتماعي وسيرتهم العملية أن لا يأخذ الإنسان مال غيره بدون حق، لأن مبدأ احترام الأموال لديهم من أكثر الالتزامات قوّة وقداسةً وتأثيراً في العلاقات العامة، ولذلك نراهم يذمون الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويعاقبون اللصوص، ولا يخرجون عن ذلك إلا في حالة الحرب من دون فرق بين الناس الذين يدينون بدين واحد أو بأكثر من دين»[1].

(١) فضل الله: محمد حسين، تفسير من وحي القرآن، ج٦ ص١١٠، الطبعة الثانية ١٩٩٨م،

الكرامة الإنسانية هل تتبعض؟

من مناطق الخلل الرئيسية في مساحة واسعة من الخطاب الإسلامي، القول بتجزئة الكرامة الإنسانية، وأنها خاصة بالمسلمين، فغير المسلم لا يشمله التكريم، وتضيق الدائرة أكثر بتخصيصها بالمؤمنين أي أتباع المذهب فقط، وما عداهم من المخالفين والمبتدعة، لا ينطبق عليهم عنوان التكريم، وتستباح بعض حقوقهم المادية والمعنوية.

مع أن القرآن نصّ على منح الكرامة من الله تعالى لعموم بني آدم يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١].

والآية الكريمة صريحة واضحة في شمولية تكريم الله لبني البشر جميعا، وهذا ما أكده بعض المفسرين للآية الكريمة.

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي: «يظهر أن المراد بالآية بيان حال لعامة البشر مع الغض عما يختص به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهية، والقرب والفضيلة الروحية المحضة، فالكلام يعم المشركين والكفار والفساق»[٢].

وقال الألوسي البغدادي: «ولقد كرمنا بني آدم: أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم، أي شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطاق الحصر»[٣].

هذا البيان الواضح الصريح كان ينبغي أن يكون أصلاً يرجع إليه في فهم بعض النصوص، واستنباط بعض التشريعات المتعلقة بالموقف تجاه الآخر المخالف في الدين أو المذهب، وأسلوب التعامل معه.

دار الملاك، بيروت.
(١) سورة الإسراء آية ٧٠.
(٢) الطباطبائي: محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٣ ص١٥٢.
(٣) الألوسي البغدادي: السيد محمد شكري، روح المعاني في تفسير القرآن، ج١٥ ص١١٧، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

إن القول بالجهاد الإبتدائي وهو رأي مشهور الفقهاء، والذي يعني قتال الكفار لا لعدوان حصل منهم على المسلمين، وإنما لمجرد كونهم كفاراً، وتخييرهم بين الإسلام أو القتل، إلا أن يكونوا كتابيين فأمامهم خيار ثالث هو الجزية، هذا القول يحتاج إلى إعادة بحث ودراسة.

وقد أنجز بعض العلماء المعاصرين أبحاثاً قيمة على هذا الصعيد، ومنهم الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتابه (جهاد الأمة) والذي انتهى به البحث فيه إلى نفي مشروعية الجهاد الإبتدائي، بعد محاكمته للأدلة التي اعتمدها مشهور العلماء.[١]

وكذلك القول بنجاسة الكافر ذاتاً وهو ما يذهب إليه فقهاء الشيعة وبعضهم يستثني أهل الكتاب، أما فقهاء السنة فالمشهور عندهم «أن الكافر الحي طاهر لأنه آدمي، والآدمي طاهر سواء أكان مسلماً أم كافرا، لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ وليس المراد من قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ نجاسة الأبدان، وإنما المراد نجاسة ما يعتقدونه، وقد ربط النبيَ ﷺ الأسيَر في المسجد»[٢].

وبعض فقهاء الشيعة المعاصرين ذهب إلى هذا الرأي بالقول بعدم نجاسة الكافر ذاتاً كتابياً وغير كتابي، كالسيد فضل الله والشيخ ناصر مكارم الشيرازي، حيث قال في تعليقته على العروة الوثقى: «لا دليل على نجاسة الكفار، أما الكتابي فظاهر كثير من الروايات المعتبرة طهارتهم ذاتاً، وأن نجاستهم عرضية، وظاهر بعض آيات الكتاب العزيز أيضاً ذلك، ويظهر من غير واحد من الروايات استحباب التنزه مما في أيديهم اجتناباً عما يكون فيهم غالباً من النجاسات العرضية، وبها يجمع بين ما دل على الطهارة وما يظهر منه النجاسة ووجوب الاجتناب، وأما غير الكتابي فهو أيضاً لا دليل على نجاسته من غير فرق بين أقسامه وإن لم يدل دليل على طهارته لخروجه من سياق الأخبار جميعاً فيؤخذ فيه بأصالة الطهارة فيهم»[٣].

ومن الموارد التي تحتاج إلى تجديد بحث ما ذهب إليه مشهور الفقهاء من جواز

(١) شمس الدين: محمد مهدي، جهاد الأمة.
(٢) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: الموسوعة الفقهية ج٣٥ ص٢٣.
(٣) الشيرازي: ناصر مكارم، تعليقات على العروة الوثقى، ص٢٧.

غيبة المسلم المخالف في المذهب، وذلك يعني انتهاك حرمته المعنوية، وقد ردّ هذا الرأي بعض الفقهاء، وقرروا حرمة الغيبة لكل مسلم وإن كان مخالفاً في المذهب، ومن هؤلاء الفقهاء المحقق الأردبيلي والشيخ الآخوند الخراساني في كفاية الأصول، ويقول الفقيه الشيخ محمد آصف المحسني: «ثم إن ظاهر الأخبار اختصاص حرمة الغيبة بالمؤمن فيجوز اغتياب المخالف.

أقول: ظاهر الآية ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[1] هو العموم فإن المؤمن في عصر نزول القرآن أعم من المصطلح عليه اليوم، والأخوة في ذيل الآية غير مخصصة، لصدق الأخ الديني على المخالف أيضاً، وإنما وجب التبري من أهل البدع في بدعهم، وفي الجواهر وغيرها الإستدلال على الجواز من جهة جواز غيبة المتجاهر، إذا المخالف قد تجاهر بأعظم الفسق. وهو إستدلال عجيب فإن المخالفين لا يرون اعتقادهم وأعمالهم باطلة ومعصية وفسقاً حتى يكونوا متجاهرين بها، فهل يفتي هؤلاء الأجلة بجواز غيبة المؤمن المخطئ في بعض عقائده أو أعماله اجتهاداً أو تقليداً؟ والمتجاهر من تجاهر بالمعصية مع العلم بعصيانها. وعلى الجملة لا دليل لفظي يدل على جواز غيبة المخالف»[2].

ومثل ذلك ما يتناقله الفقهاء من استحباب التضييق على الذميين والكتابيين في ظل الدولة الإسلامية في الطريق، واضطرارهم إلى أضيق الطرق، وسائر ما ذكروه في أحكام التعامل مع أهل الذمة من هذا القبيل.

فتاوى أين موقعها من الإنسانية

سئل أحد العلماء المعاصرين عن مشروعية إغاثة غير المسلمين، وغير المتمذهبين بمذهبه من المسلمين عند الكوارث، فكان جوابه بالرفض القاطع، بعبارات تنضح بالكراهية والازدراء للمخالفين في الدين والمذهب. وفيما يلي نص السؤال والجواب:

---

(١) سورة الحجرات آية ١٢.
(٢) المحسني: محمد آصف، حدود الشريعة ـ المحرمات، ج٢ ص٧٧.

س: غالباً ما تحدث الكوارث ومن الصعب التفرقة بين الناس أو التعرف عليهم هل هذا مسلم أو غير مسلم فهل يصح للمؤسسات الخيرية مساعدتهم بغض النظر عن هويته؟

الجواب: نرى أن على المؤسسة الحرص على تخصيص المسلمين بالإغاثة وسد الحاجة وعدم دفع المساعدات لغير المسلمين الذين هم من أعداء الدين ولو ماتوا جوعاً، ولو قتلهم البرد أو الحر أو الغرق أو الهدم لاعتبار ذلك عقوبة من الله لهم على كفرهم وبدعهم، وكما أن الكفار من الدول الكبرى يتبرعون لمن هم على دينهم، ويخصون من هو على نحلتهم وطريقتهم، ولا يعطون المسلمين إلا إذا طمعوا في ردهم عن دينهم كما تفعل الرافضة والنصارى، أما إذا شق التمييز بين المسلم وغيره كما لو كان هناك مجاعة شديدة، جاز أن يأكل غير المسلم مع المسلمين، أو يعطى معهم من الأطعمة ونحوها إذا جهل حاله.

س: إذا كان الأغلب غير المسلمين فهل يجوز مساعدتهم لتواجد الأقلية المسلمة؟

الجواب: لا يجوز مساعدة غير المسلمين لا في مجاعة ولا في غرق أو هدم، ولا في علاج مرض أو نحوه، بل تخص المساعدة بالمسلمين إذا تميزوا وعرفوا، فإن حصل اشتباه جاز إعطاء غير المسلمين إذا جهلت حالتهم واختلطوا بالمسلمين وشق التمييز بينهم.

س: إذا كان المتضررون أغلبهم مبتدعة فهل يجوز للمؤسسات الخيرية الإسلامية مساعدتهم؟

الجواب: لا يجوز للمسلمين مساعدة المبتدعة كالرافضة والقبوريين وأهل الديانات المبتدعة كالنصيرية والدروز والقاديانية والسيخ والبريلوية والبعثية ونحوهم، وذلك أنهم يحاربون أهل السنة ويحرصون على ما يضر بالمتمسكين، وإذا كانوا كذلك فليسوا أهلاً للمساعدة، ويعتبر ما أصابهم من غرق أو خسف أو قحط أو مرض كعقوبة من الله فلا تجوز إغاثتهم، بل تختص الإغاثة بأهل السنة والجماعة.

س: هل يجوز دفع الزكاة لأهل البدع؟ دفعاً لشرهم أو تأليفاً لقلوبهم؟

الجواب: يجب على المسلمين من أهل السنة بغض أهل البدع ومقتهم وتحقيرهم كالرافضة والمعطلة والقبوريين والأباضيين، كما يجب على المسلم عند كثرتهم وتمكنهم في البلاد البعد عنهم للتخلص من شرهم، فإن لم يقدر أو لم يكن له حيلة في الهجرة جاز له تأليفهم ودفع شرهم بما يندفعون به ولو بجزء من الزكاة، واعتبروا من المؤلفة قلوبهم.

س: إذا لم يوجد غير المبتدعة في منطقة ما فهل يتم مساعدتهم؟

الجواب: لا يجوز مساعدتهم لما فيه تقوية لمعنوياتهم وإظهار لبدعتهم، فإن تمكنهم يكون فيه إذلال وإهانة لأهل السنة، فعلى المسلم من أهل السنة أن يسعى في كل ما فيه إهانة للمبتدعة، فلا يتخذهم عمالاً وخداماً، كذا لا يخدمهم ولا يتعامل معهم بما يقوي معنوياتهم أو يروج منتجاتهم، ولا يشتري من بضائعهم، لكن إذا لم يستطع التخلص من شرهم جاز له دفعهم بقدر ما يخلصه من أذاهم [1]

إن مثل هذا الخطاب وهو كثير في الساحة الإسلامية، ومنه ما يأتي في صيغة الدعاء في خطبة الجمعة بالهلاك لجميع اليهود والنصارى والكفار والمخالفين في المذهب من المسلمين، وترميل نسائهم وتيتيم أطفالهم، نعم إن مثل هذا الخطاب هو الذي خلق أرضية توجهات العنف والإرهاب التي تعاني منها الآن بلاد المسلمين وبلاد العالم، مما شوه سمعة الإسلام والمسلمين وأوصلها إلى الحضيض.

إن استباحة دماء غير المسلمين، والتمثيل بجثثهم، وقطع رؤوسهم، ثم التفاخر بتصوير تلك المشاهد القاسية تحت لافتات وشعارات إسلامية، وبثها للرأي العام العالمي، هو ثمرة مرّة لمثل هذه الطروحات والخطابات، وفي أكثر من حادث إرهابي، كان الإرهابيون يسألون من يقعون في قبضتهم عن أديانهم فمن كان مسلماً قد يطلقون

(١) هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، مكتب الأحساء، ١٠٠ سؤال وجواب في العمل الخيري، ص٧-١٢، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

سراحه ومن كان غير مسلم يعاجلونه بالقتل.

ومن أواخر النماذج ما نقلته جريدة الحياة عن حادث اقتحام القنصلية الأمريكية في جدة بتاريخ ٧/ ١٢/ ٢٠٠٤م: حيث وصف نائب رئيس قسم الحركة المناوب في القنصلية الأمريكية في جدة صلاح عبدالقوي عبدالمحسن للحياة لحظات رعب عاشها عندما سأله المهاجمون عن ديانته فقال لهم: «مسلم.. مسلم» فطلبوا منه أن يتلو سورة الفاتحة فوراً «قرأتها متلعثماً ولم أصدق أنهم توجهوا بالسؤال للذي بعدي في الصف ونحن وقوف رافعين أيدينا في وضعية استسلام» وأضاف: «بعد ما قرأ الفاتحة اثنان ممن استخدموا كدروع بشرية، جاء دور فلبيني غير مسلم ولم يتل الفاتحة واعترف بأنه غير مسلم فقتلوه مباشرة برصاصة في رأسه»[1].

كرامة الإنسان أصل وقاعدة

إن التأمل في الآية الكريم ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ ينبغي أن يؤدي إلى تقرير أصل التكريم للإنسان كمبدأ فكري، وقاعدة فقهية، لا يصح تجاوزها إلا بمبرر مشروع ودليل واضح صحيح.

وانطلاقاً من هذا الأصل تحدث الفقيه الشيخ المنتظري في دروسه الفقهية العالية (البحث الخارج) حول حرمة الإنسان، ناقداً تخصيص هذه الحرمة بالمؤمن فقط، ومما جاء في بعض تلك الدروس ما يلي: «إن ظلم الناس غير جائز بحكم العقل، وبحكم الكتاب والسنة أيضاً. نحن نعتقد أن القرآن إذ يقول: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ فهو يقصد أن بني آدم مكرمون لأنهم بنو آدم. فحينما يقال حقوق الإنسان، معنى ذلك أن للإنسان شرفه وكرامته بما هو إنسان حتى لو كان كافرا، لأن الإنسان محترم بذاته عند الله، وهذا صريح معنى الآية. ويقول علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» وبالتالي فإن للإنسان حرمته بما هو إنسان.

---

(١) الحياة: صحيفة يومية تصدر من لندن، الأربعاء ٢٠٠٤،١٢،٨م.

وفي حرمة السبّ يمكن كذلك اعتماد الآية ﴿**وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ**﴾ وليس فيها قيد المؤمن والمسلم. يقول الله أنه يكره اختلاق الألقاب السيئة. ويقول أيضاً ﴿**لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ**﴾ ولا يقيد ذلك باعتناقهم الإسلام، لأن الله أراد أساساً أن تكون العلاقات الاجتماعيةً سليمة، ولا يخاطب الناس بعضهم بعضا بالسوء. إنه حكم يشمل غير المسلمين أيضاً. وعلى الأقل فإنه يشمل المسلمين سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين. إذا آمنتم فلا يحق لكم إهانة مؤمن آخر أو إهانة شخص غير مؤمن، مقتضى الإيمان أن يكون الإنسان رصيناً ولا يتكلم بالترهات.

السب مذموم عند الله في نفسه، سواء كان ضد مؤمن أو ضد غير مؤمن، ثمة رواية عن أبي بصير تقول: »لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة» وليس في هذه الرواية أيضاً قيد المؤمن أو المسلم، فهي مطلقة تشجب سبّ الإنسان على نحو العموم. غاية ما يمكن أن يقال هو أن سبّ المؤمن أسوء من سبّ غير المؤمن.

من الناحية العرفية والارتكازية يُعد القول بأن سبّ المؤمنين وذوي الشخصيات المحترمة أسوء من سب الأشخاص المستهترين المتميعين قولاً صائباً. أي أن كل شخص عادي في المجتمع مهما كانت عقيدته وميوله يحكم بأن سب الشخصيات المحترمة أقبح من سب المنحطين أخلاقياً وأشد وطأة على الوجدان العام»[١].

نشير هنا إلى ما ذكره الفقهاء من تأديب أي مسلم بتعزيره إذا قذف إنساناً ولو كان مشركاً[٢]، وجاء في الوسائل عن الإمام الصادق عليه السلام تعزير من افترى على أحد من أهل الذمة[٣].■

(١) باقي: عماد الدين، تقريرات درس آية الله منتظري، بعنوان حقوق الإنسان أم حقوق الإنسان المؤمن؟ النزعة الإنسانية والإسلام، قم ١٤٢٤هـ، www.montazeri.ws.
(٢) ابن قدامة، المغني ج١٢ ص٣٩٩.
(٣) الوسائل حديث رقم ٣٤٥٦٠.

الخطاب الديني والاهتمام بالإنسان

كلمة الجمعة بتاريخ ١٢ ذوالقعدة ١٤٢٥هـ

لتوثيق صلة الإنسان بربه وتأكيد عبوديته له، ولتفعيل وإثراء البعد الروحي في شخصية الإنسان، شرّع الإسلام برامج عبادية كالصلاة والصيام والحج والعمرة، وسائر الشعائر الدينية، كتلاوة القرآن، والدعاء والذكر والتسبيح.

في ذات الوقت وجهت تعاليم الإسلام إلى الاهتمام بخدمة الإنسان، ونفع الناس، بإطعام الجائعين، وكفالة الأيتام، وعون الفقراء ومساعدة الضعفاء، وقضاء حوائج المحتاجين، وعيادة المرضى، وإغاثة الملهوفين، وكل ألوان الإحسان إلى الآخرين، وتقديم الخدمات لهم.

وحين نقرأ النصوص الدينية نجد اهتماماً متوازياً بالجانبين معاً، بل نجد إشارات في الكثير من النصوص إلى أن البرامج العبادية كالصلاة والصيام وأمثالها، تستبطن وتستهدف تنمية دوافع الخير تجاه الناس في نفس الإنسان.

كما أن قسماً من فرائض العبادات هي عطاء للآخرين كالزكاة والخمس والكفارات والأضحية.

إن القرآن الكريم يجعل الحدّ الفاصل بين التدين الصادق والتدين الزائف، هو مدى اهتمام الإنسان بمساعدة الناس الضعفاء كاليتامى والمساكين، ويعتبر أداء عبادة الصلاة دون عون الأيتام والفقراء تديناً كاذباً ورياء مفضوحا. يقول تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ***

فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾(١).

وفي الحديث عن فريضة الحج يشير القرآن الكريم إلى أن مناسك هذه الفريضة تتضمن منافع فعلية للناس يقول تعالى: **﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾**(٢).

وهناك روايات تشير إلى البعد الإنساني في فريضة الصيام، وأنه للتذكير بمعاناة الجائعين والمحتاجين.

سئل الإمام الحسين عليه السلام: لم افترض الله عز وجل على عبده الصوم؟ فأجاب عليه السلام: «ليجد الغني مس الجوع فيعود بالفضل على المساكين»(٣).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «أما العلة في الصيام ليستوي به الغني والفقير، وذلك لأن الغني لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير، لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد الله عز وجل أن يسوّي بين خلقه وأن يذيق الغني مسّ الجوع والألم ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع»(٤).

ويرفض القرآن الكريم أن يكون مقياس البر والصلاح هو الممارسات الشعائرية العبادية فقط، مؤكداً على أن البر يتجلى في الإيمان والعطاء للآخرين إضافة إلى البرامج العبادية. يقول تعالى: **﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ﴾**(٥).

إن الصلاة يجب قطعها لإنقاذ حياة إنسان من الخطر، وإن الصوم يجب قطعه إذا كان يسبب ضرراً لجنين المرأة الحامل، أو ضرراً للطفل الرضيع بتأثيره على لبن

(١) سورة الماعون.
(٢) سورة الحج آية ٢٨.
(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٧٥.
(٤) المصدر السابق ص٣٧١.
(٥) سورة البقرة آية ١٧٧.

من ترضعه. ولا يجب الحج إذا كان في ذمة الإنسان حقوق مالية للآخرين، بل لا يعتبر مجزياً عن حجة الإسلام لو قدم الحج على أداء الدين.

ويشير عدد من الأحاديث والروايات إلى أهمية وأولوية خدمة الناس ونفعهم، كما ورد عنه ﷺ: «الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله»(١).

وقال له رجل: أحب أن أكون خير الناس. فقال ﷺ: «خير الناس من ينفع الناس فكن نافعاً لهم»(٢).

وعنه ﷺ: «خصلتان ليس فوقهما من البر شيء الإيمان بالله والنفع لعباد الله»(٣).

وروي عن الإمام محمد الباقر ﷺ: «لأن أعول أهل بيت من المسلمين: أسد جوعتهم، وأكسو عورتهم، وأكف وجوههم عن الناس أحب إليّ من أن أحج حجة وحجة وحجة ومثلها ومثلها حتى بلغ عشراً ومثلها ومثلها حتى بلغ السبعين»(٤).

وعن الإمام جعفر الصادق ﷺ: «والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيرا، لقضاء حاجة امرء مسلم وتنفيس كربته أفضل من حجة وطواف وحجة وطواف حتى عقد عشراً ثم خلا يده وقال: اتقوا الله ولا تملّوا من الخير ولا تكسلوا، فإن الله عز وجل ورسوله ﷺ غنيّان عنكم وعن أعمالكم وأنتم الفقراء إلى الله عز وجل وإنّما أراد الله عز وجل بلطفه سبباً يدخلكم به الجنة»(٥).

هذا الدفع والاهتمام الذي نجده في النصوص الدينية بخدمة الناس ونفعهم لا نراه منعكساً بنفس المستوى على الخطاب الديني، الذي غالباً ما يركز على الجانب العبادي، ولعل من نتائج ذلك ضعف التفاعل والإقبال على العمل الخيري الإنساني في مجتمعاتنا الإسلامية لدى المقارنة بتقدم هذا الجانب عند المجتمعات الأخرى،

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ١٦١٧١.
(٢) المصدر السابق، حديث رقم ٤٤١٥٤.
(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٤ ص١٣٧.
(٤) المصدر السابق، ج٧١ ص٣٢٩.
(٥) المصدر السابق ص٣١٨.

وكذلك بالنظر لعمق الحاجات الملحة في مجتمعاتنا.

ففي المجتمعات الأخرى تتكون مؤسسات للعمل التطوعي الإنساني تتحرك على مستوى العالم، كمنظمات حقوق الإنسان، وحماية البيئة، وأطباء بلا حدود، وحملات الإغاثة للبلدان المنكوبة، ومؤسسات رعاية المعوقين، والاهتمام بالأمراض الخطيرة كالإيدز والسرطان..

إن خطابنا الديني يحتاج إلى اهتمام أكبر بالقضايا الإنسانية، لحشد الجهود لمعالجة كثير من الحاجات ومتطلبات الحياة في مجتمعاتنا التي تعاني من انتشار الأمية والفقر ونقص الخدمات.

إن إقبال الناس في مجتمعاتنا على بناء المساجد لا يوازيه إقبال على بناء الجامعات والمكتبات، ومواظبة البعض على تكرار الحج والعمرة لا يزاحمه توجه لكفالة الأيتام ومساعدة المعاقين. وحرص البعض على السعي لصلاة الجماعة لا يماثله حرص على السعي للاهتمام بالشأن العام.

وقد رأينا كيف تفاعلت المجتمعات الغربية مع كارثة (السونامي) التي أصابت دول جنوب آسيا مطلع هذا العام الميلادي ٢٠٠٥ وذهب ضحيتها مئات الألوف من البشر، وملايين المشردين، ودمرت آلاف القرى والمدن، فهرع أبناء المجتمعات الغربية لتقديم العون والمساعدة، مبادرين للاتصال بالمنظمات الخيرية والإغاثية، وكان معدل التبرعات في بريطانيا مثلاً وصل إلى ١٥ ألف جنيه إسترليني في الدقيقة الواحدة، حسب نقل (البي بي سي)، وحسب تقرير صحفي كان معدل التبرعات بواقع مليون جنيه في الساعة، عدا التبرعات العينية كالملابس والأغذية والأدوية، وجميع قنوات التلفزة خصصت خطوطاً وحسابات للتبرعات، وظهرت مئات المواقع على الإنترنت للتبرع بالمعلومات عن المفقودين من كل الجنسيات.

بينما كان التفاعل في مجتمعاتنا الإسلامية بطيئاً خافتاً، والأسوأ من ذلك صدور تصريحات وخطابات من بعض الجهات الإسلامية، جارحة لمشاعر تلك الشعوب المنكوبة، بالقول أن ما حصل هو عقوبة من الله تعالى لانحراف تلك المجتمعات وفسادها.

وذلك يكشف عن تبلّد في المشاعر والأحاسيس الإنسانية لابد من مواجهته بتعاليم الإسلام الأصيلة التي توقظ الوجدان وتبعث دوافع الخير والحب في نفس المسلم تجاه كل إنسان بل كل كائن حي كما ورد في الحديث: «في كل ذات كبد حرّى أجر».(١)

حق الله وحقوق الإنسان

جاءت الرسالات الإلهية لترشد الإنسان إلى أداء حق خالقه عليه، بمعرفته والإيمان به وتوحيده وعبادته وطاعته، هذا أولاً، وثانياً لتوجيهه لأداء حقوق الناس لتنتظم الحياة الاجتماعية بين بني البشر.

إن بعض آيات القرآن الكريم تشير إلى هذا الهدف كمحور أساس لرسالات الأنبياء، يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾(٢).

كما تشير بعض الأحاديث والروايات إلى أن الله تعالى يسخطه الاعتداء على حقوق الناس أشد مما يسخطه الاعتداء على شيء من حقوق عبادته وطاعته، عدا الشرك بالله تعالى.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه، فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾، وأما الظلم الذي يغفره الله تعالى فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين بعضهم من بعض»(٣).

ومثله جاء عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة: «ألا وأن الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب فأما الظلم الذي لا يغفر

(١) ابن حنبل: الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ١٧٧٢٤.
(٢) سورة الحديد آية ٢٥.
(٣) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٧٥٨٨.

فالشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾. وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنَات. وأما الظَلم الذي لاَ يترك فظلم العباد بعضهم بعضا. القصاص هناك شديد، ليس هو جرحاً بالمدى، ولا ضرباً بالسياط، ولكنه ما يستصغر ذلك معه»(١).

والنصوص الدينية التي تحذر من الظلم والعدوان على حقوق الآخرين كثيرة، كقوله تعالى: ﴿**وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾(٢)، ﴿**وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**﴾(٣)، وما روي عنه ﷺ: «اتقوا الظَلَم فإنه ظلمات يوم القيامةَ»(٤).

لكن ما يلاحظ على الخطاب الديني تركيزه على الدفاع عن حقوق الله تعالى، وضعف اهتمامه بالدفاع عن حقوق الإنسان.

تجد ذلك على مستوى البحث الفكري والفقهي، حيث تمتلئ المكتبة الإسلامية من البحوث العقدية والفقهية العبادية، كأحكام الصلاة والصيام والحج، والتي تستغرق مجلدات كثيرة، وتتفرع مسائلها إلى مختلف الصور والاحتمالات، حتى الخيالية منها، لكن قضايا حقوق الإنسان، لم يتبلور لها عنوان جامع في الفكر ولا في الفقه، ولا تطرح إلا بشكل عابر ضمن أبواب فقهية مختلفة.

وعلى مستوى الإعلام والتثقيف الجماهيري غالباً ما يتحدث الخطباء بالحث على أداء الواجبات الشرعية العبادية، والتحذير من الذنوب والمعاصي المرتبطة بالجوانب الشخصية كالزنا وشرب الخمر وعدم التزام النساء بالحجاب، لكن الحديث عن حقوق الإنسان السياسية والاجتماعية والفكرية، والتحذير من انتهاكها قليل نادر.

وإذا لاحظ الدعاة الإسلاميون تجاوزاً من سلطة تجاه قضية دينية كالصلاة أو الصوم، أو تهاوناً تجاه بعض المعاصي كالخمور والسفور وما أشبه، تقوم قيامتهم ولا تقعد، لكنهم لا يبدون اهتماماً في الغالب للتجاوز على حقوق المواطنين، أو اختلال

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.
(٢) سورة آل عمران آية ٥٧.
(٣) سورة البقرة آية ١٩٠.
(٤) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٧٥٩٨.

ميزان العدالة، أو إهمال مصالح الناس ومطالبهم.

إنهم يغضبون لمشهد امرأة سافرة، لكنهم يغضون الطرف عن مشاهد الفقر والحرمان، ويحتجون على التجاهر بالإفطار نهار شهر رمضان، لكنهم يسكتون على التجاهر بالفساد السياسي والاقتصادي.

وحين تتكون هيئات أو لجان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن حدود المعروف والمنكر عندهم لا تشمل الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وإنما تبقى في إطار الجوانب العبادية والمخالفات الشرعية الشخصية.

هذا الخلل في الخطاب الديني هو أحد تجليات ضعف التوجه الإنساني، عند الجهات المتصدية لإنتاج هذا الخطاب.

الانتصار للضعيف أم إخضاعه

في العلاقات الاجتماعية هناك من يكون في الموقع الأقوى، ومن هو في موقع الأضعف، وغالباً ما يحصل الحيف والجور من الطرف الأول تجاه الثاني.

لذلك تركز التوجيهات والتعاليم الدينية على تحذير من يكون في موقع أقوى أن لا يدفعه ذلك لإساءة استخدام موقعه تجاه الآخرين. كالحاكم تجاه رعيته، والزوج تجاه زوجته، والأب تجاه أبنائه، والغني تجاه الفقير، ورب الثروة والعمل تجاه العمال والموظفين.

صحيح أن هناك توجيهات للطرف الآخر بالصبر والاستيعاب لكن ليس إلى حد التنازل عن الكرامة وسحق الشخصية. كما أن هناك تعليمات وتشريعات تدعو إلى الدفاع عن الحقوق، وحماية المصالح المشروعة.

ونلاحظ هنا على الخطاب الديني أنه غالباً ما يتوجه إلى الأضعف لتهدئته وإخضاعه للأقوى، عبر التأكيد على حقوق الحاكم على رعيته، والزوج على زوجته، والأب على أبنائه، ورب العمل على الموظفين، كما يؤكد هذا الخطاب على الرعية والزوجة والأبناء والعمال أن لا يقصروا في واجباتهم تجاه الطرف الآخر.

أما تحذير الحاكم من الجور على الرعية، والزوج من الظلم لزوجته، والأب من التقصير في حق أبنائه، ورب العمل من الإساءة لموظفيه.. وأما توعية الناس بحقوقهم، وإرشادهم لأفضل طرق تحصيلها والدفاع عنها، فهو ما يقل التعرض له وتناوله في ساحة الخطاب الديني.

تطوير الخطاب إنسانياً

إن تطوير خطابنا الديني إنسانياً ليس مطلباً كمالياً، وليس قضية هامشية، بل هو ضرورة ملحة تقع في الصميم من قضايا الأمة واحتياجاتها.

إنه سبيل إلى تحقيق مهام أساسية تأخرت الأمة كثيراً عن إنجازها وتحقيقها، وأبرزها ما يلي:

أولاً:

إنجاز تقدم على مستوى التنمية الإنسانية في مجتمعاتنا، حيث يعيش الإنسان واقعاً متخلفاً يفتقد فيه مقومات بناء الحياة الفاضلة، والتمتع بحقوقه الإنسانية المشروعة.

ثانياً:

النجاح في صنع العلاقة السليمة مع الآخر داخل الأمة والوطن، وفي الخارج مع سائر الأمم والحضارات، حيث تعاني مجتمعاتنا من اضطراب العلاقة بين فئاتها وشرائحها، وحيث أقحمت الأمة في معركة صدام مع الحضارات والشعوب الأخرى بسبب توجهات التطرف والإرهاب.

ثالثاً:

الإسهام في خدمة القضايا الإنسانية على الصعيد العالمي، لتكون الأمة بمستوى ما تتبناه من قيم الإسلام ومفاهيمه وشعاراته الرسالية العظيمة.

إن القرآن يقدم الإسلام مشروعاً للإنسانية جمعاء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[١] ورسالة ورحمة وسلام لكل شعوب العالم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢] وأن أمة الإسلام يجب أن تكون رائدة الخير في المجتمع البشري ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٣].

فلا بد من خطاب يؤهل الأمة لهذا الدور، ويقدم الإسلام للعالم على هذا المستوى.■

(١) سورة سبأ آية ٢٨.
(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧.
(٣) سورة آل عمران آية ١١٠.

عاشوراء وثقافة المجتمعات الشيعية

كلمة الجمعة ٢٤ ذي الحجة ١٤٢٥هـ

الثقافة السائدة في أي مجتمع لها تأثير على صياغة نفسيات أبناء ذلك المجتمع، وعلى توجيه سلوكياتهم، وحينما نتحدث عن الثقافة فإننا نقصد بها ذلك الكل المركب من المعلومات والمعتقدات والفنون والأخلاق والعادات والتقاليد وفقاً لتعريف (تايلر) عالم الانتروبولوجيا البريطاني.

من هنا فإن الباحثين في علم الاجتماع عند دراسة الظواهر الاجتماعية يدرسون ثقافة المجتمع، لتفسير سلوكيات أبنائه، ولتفسير الظواهر التي تحصل في حياة ذلك المجتمع، ومن خلال دراسة الثقافة السائدة يتوصلون إلى الربط بين تلك الثقافة وبين السلوكيات والأوضاع المعاشة في المجتمع، هذا هو الأمر الطبيعي، لأن الإنسان كجسم إنما تحركه إرادة داخلية تتأثر بفكره وبالثقافة المجملة التي يمتلكها والبيئة الثقافية التي ينتمي إليها، وعلى هذا الصعيد فإننا إذا ما تأملنا واقع المجتمعات الشيعية، وأردنا دراسة الظواهر الاجتماعية، فلا بد أن ندرسها على ضوء الثقافة السائدة في هذه المجتمعات، وهذا ما يقوم به الآن كثير من الباحثين الغربيين، خاصة وهم يلاحظون ظواهر في المجتمعات الشيعية، وتميزاً في بعض الخصائص والسلوكيات، بالطبع فإن المجتمعات الشيعية هي جزء من الأمة الإسلامية، ولكن لارتباط هذه المجتمعات بمنظومة ثقافية معينة، فإن هذه المنظومة أنتجت أثراً خاصاً ومميزاً في أجواء هذه المجتمعات.

إنهم يدرسون وضع المجتمع الشيعي في إيران، وكيف استطاع أن ينتج ثورة

من أضخم وأهم الثورات الشعبية في هذا العصر، تحرك جماهيري سلمي ليس فيه عنف، والتفاف حول قيادة دينية ارتبط بها الناس بقناعة ذاتية، لم تكن تنحدر من حالة وراثية، ولا من أسرة ثرية، ولا من حالة قوة أو حكم سابق. رجل جاء من قرية يقال لها خمين، ودرس وتعلم، وأصبح في مستوى علمي وأخلاقي متقدم شيئاً فشيئاً اكتشفه الشعب وتعرف عليه، والتفوا حوله، وخضعوا له، وقاد بهم تلك الحركة الجماهيرية الضخمة التي انتهت إلى إسقاط أقوى نظام في الشرق الأوسط وإقامة نظام الجمهورية الإسلامية في إيران.

هذه الظاهرة كتب الغربيون والباحثون حولها كثيراً كيف حصلت؟ وكيف تحققت؟ وما هي إلا سنوات وإذا بظاهرة أخرى تبرز في المجتمع الشيعي في لبنان وهو جزء من المجتمع العربي، المجتمع العربي الذي يواجه التحدي الصهيوني المتمثل في زرع الكيان الإسرائيلي وسط هذه المنطقة، وممارسة هذا الكيان للغطرسة وللعنجهية وللعدوان على مختلف بلدان وشعوب المنطقة، وكان من جملتها لبنان حيث احتل جنوب لبنان، وإذا بهذا المجتمع الشيعي الموجود في لبنان على صغر حجمه قياسا للمنطقة العربية الكبيرة، وعلى أنه جزء من المجتمع اللبناني، هذا المجتمع الصغير. يقود مقاومة للاحتلال الصهيوني، وبعد فترة يتمكن من إحراز انتصار مذهل عظيم، فينسحب الاحتلال الصهيوني من جنوب لبنان يجر أذيال الخيبة والهزيمة، و يتعاطى ذلك المجتمع الشيعي مع الانتصار ومع محيطه الذي يعيش فيه معاملة حضارية راقية أذهلت حتى الأعداء وأثارت دهشة لا تقل عن دهشة الانتصار، وبدءوا يسلطون الأضواء على هذه الحالة.

وأخيراً ما حصل في العراق فقد عاش الشعب العراقي وأغلبيته من الشيعة حوالي ثلاثة عقود تحت الظلم والاضطهاد الشديد، وقبل ذلك أيضاً كان الشيعة مهمشين طوال الدولة القومية التي نشأت بعد الاحتلال البريطاني رغم أن مقاومة الاحتلال تمت على أيديهم بدرجة أساسية، إلى جانب سائر فئات وشرائح الشعب العراقي، ثم أصبحوا على الهامش في بناء الدولة وتكوين أجهزتها، ووصل الأمر إلى القمع الشديد الذي حصل لهم في عهد صدام، وما تكشف عنه من مقابر جماعية، ومن

تشريد وتعذيب وتصفيات مما هو معروف وواضح هذا المجتمع بعد سقوط النظام مارس سلوكاً حضارياً رائعاً، لم تكن فيه حالة انتقام وتصفية للحسابات ولا حالة تمزق وتشتت شديد بل حالة مميزة حيث قيادة هذا المجتمع قيادة دينية وفق الضوابط الدينية المسألة لم تكن قومية فتكون القيادة لشخص عربي ولم تكن قضية إقليمية فتكون القيادة لشخص عراقي ولم تكن قبلية فيخضعون إلى رؤساء العشائر، ولم تكن قيادة سياسية بالمعنى المصطلح تنبثق من نضال سياسي وحركة معارضة. بعيداً عن كل ذلك التف هؤلاء الناس حول قيادة تنحدر من قومية أخرى، وهي من الناحية القانونية لها جنسية أخرى، وقد سمعتم أن المرجع الأعلى السيد السيستاني اعتذر أنه لم يذهب إلى صناديق الاقتراع في الانتخابات لأنه يحمل الجنسية الإيرانية هذا الشعب يلتف حول رجل لا ينحدر من أصل عراقي أو من أصل عربي إلا بناءً على أن السادة وأهل البيت كلهم ينحدرون من أصل عربي، ولم يكن متزعماً لإحدى حركات وأحزاب المعارضة، ولكن وفقاً للضوابط الدينية، فإن هذا المجتمع من أقصاه إلى أقصاه يعلن الخضوع لهذا الرجل والعالم ذهل من ذلك ويتساءل عن السبب كيف؟ وبأي مبرر؟

هذا الرجل ـ السيد السيستاني ـ مع انه كان يعيش في بيئة محاصرة في عهد صدام، وإذا به يتفتق عن فكر ووعي و ممارسة سياسية ناضجة تذهل كبار السياسيين في مختلف أنحاء العالم ويتخذ المواقف المتزنة المنضبطة، ويصر على الانتخابات من أول يوم، مؤكداً على مرجعية الإرادة الشعبية ومشاركة جميع العراقيين في تقرير مصيرهم، ورسم مستقبلهم، وتأتي التهديدات من الإرهابيين بتفجير كل صناديق الاقتراع. ولكن هؤلاء الناس يخرجون يتحدون كل تلك الأخطار والتهديدات رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً، ويصرون على ممارسة حقهم في الانتخاب، وتمر القضية ضمن ذلك العرس الشعبي الانتخابي الهائل المذهل.

هذه الظواهر وظواهر أخرى تلفت نظر الباحثين نحو هذه المجتمعات الشيعية لماذا لديها بعض هذه الخصائص التي تتميز بها عن سائر المجتمعات المشاركة لها في الانتماء الديني والقومي والوطني؟

استحضار سيرة أهل البيت:

نحن هنا لسنا بصدد المزايدة، ولسنا في مجال التباهي والتفاخر، فهناك خصائص أخرى تتمتع بها سائر الأطراف، ولكننا نريد أن نذكر أنفسنا وأن نؤكد للباحثين الذين يريدون دراسة هذه الظواهر، بضرورة الالتفات إلى الثقافة السائدة في هذه المجتمعات، وهي بمجملها ثقافة حضور سيرة أهل البيت ﷺ. فالمجتمع الشيعي يرتبط بأئمة أهل البيت، لكن هذا الارتباط ليس مجرد ارتباط نظري تاريخي، وإنما هناك حضور دائم لسيرة أهل البيت في وعي هذه المجتمعات، حضور على كل المستويات: فعلى الصعيد العلمي، هناك تراث كبير من النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت ﷺ في مختلف ميادين المعرفة وهو يشكل منهلاً لعلماء الشيعة ومفكريهم.

وعلى المستوى الروحي هناك ثروة ضخمة من نصوص الدعاء والمناجاة، لجميع الأوقات والمناسبات، وهي تشكل ينبوعاً يرتوي منه الجمهور الشيعي لإنعاش الحالة الوجدانية والروحية.

وفي الجانب العاطفي، نجد هذا الاحتفاء بالمناسبات لأئمة أهل البيت ﷺ كموسم عاشوراء. حيث الشيعة في كل مكان وكل بقعة، يحتفون بهذه المناسبة، ولو كانوا بضعة أفراد في مكان ما يجدون أنفسهم معنيين بإحياء هذه المناسبة.

وماذا يعني إحياء هذه المناسبة؟

إنه يعني استحضار سيرة أهل البيت ﷺ، وسيرتهم سيرة عطرة، لأنها التزام بالقيم والمبادئ، وتجسيد للأخلاق، ولا أحد يستطيع أن يجد في سيرة إمام من أئمة أهل البيت ﷺ ثغرة أو عثرة أو نقطة ضعف. المجتمعات الشيعية تعودت أن تحيي هذه المواسم بذكر سيرة أهل البيت وحياتهم، قد تكون هناك ملاحظات على بعض الأساليب في عرض هذه السيرة، لكن من حيث المجمل، يمكننا أن نقول: إن استحضار سيرة أهل البيت ﷺ كرّس منظومة ثقافية ذات خصائص إيجابية في واقع حياة هذه المجتمعات، ونشير هنا إلى بعض تلك الآثار والانعكاسات لاستحضار سيرة أهل البيت في ثقافة المجتمعات الشيعة.

القيادة الدينية ومقاييس الاختيار:

أولاً: الارتباط بالقيادة الدينية وفق الضوابط والقيم:

ذلك أن أئمة أهل البيت ﷺ لم يكونوا في موقع السلطة والقوة، بل كانوا غالباً في حال حصار واضطهاد، وكان الارتباط بهم يعني نوعاً من المخالفة للتيار السائد الرسمي، ويؤدي إلى فقدان بعض المصالح والتعرض إلى بعض الضغوط، وأحياناً تشتد الضغوط والمضايقات على التابعين لأئمة أهل البيت إلى حد التصفيات والتشريد والتنكيل، كما حصل في فترات قاسية من الحكم الأموي والعباسي.

استحضار هذه الحالة في الوعي والوجدان الشيعي، رسخّ هذا المبدأ عند الجمهور الشيعي، بأن يختار قيادته الدينية في كل عصر وزمن وفق القيم والمقاييس الشرعية، وليس من خلال المناصب والمواقع والتعيينات السياسية، ولا المعادلات الاجتماعية المادية.

لهذا يتم اختيار المرجع الديني عند الشيعة عبر توفر مواصفات أبرزها العدالة والمستوى العلمي المتقدم، بأن يكون الأعلم، حسب تشخيص أهل الخبرة، وأهل الخبرة هنا ليسوا جماعة محددة مشخصة يجمعها إطار معين، وإنما هم أشخاص متعددون في مواقعهم وتوجهاتهم، ينالون الثقة في الوسط العلمي من خلال سيرتهم العلمية كمدرسين في الحوزات، أو من خلال دورهم الديني كعلماء متصدين في المجتمعات.

إن ما يسمعه الإنسان الشيعي من خلال سيرة أهل البيت ﷺ، وتفاني أصحابهم في محبتهم وولائهم، وتحملهم الآلام والشدائد للارتباط بهم، كما في أحداث كربلاء، وقصص أبطالها التي تتكرر على مسامع الجمهور كل عام بأسلوب عاطفي مؤثر، كل ذلك يصوغ ذهنية الشيعي ونفسيته، باتجاه البحث عن من يمثل الامتداد لائمة أهل البيت ﷺ، لإتباعه وأخذ أحكام الشريعة منه، مهما كلف من ثمن وتضحيات، أسوة بأبطال كربلاء الصديقين.

وهنا يأتي الارتباط بمراجع الدين حيث أمر الأئمة شيعتهم بالرجوع إليهم،

والالتفاف حولهم كتطبيق وتجسيد لتلك الإيحاءات والتأثيرات من سيرة أهل البيت ﷺ الحاضرة في الوعي والوجدان الشيعي.

ثانياً: الحساسية تجاه الظلم والعدوان.

الحديث عن ظلامة أهل البيت والعدوان الذي وقع على حقوقهم، يعتبر مادة رئيسية في مجالس إحياء ذكرى عاشوراء ومناسبات أهل البيت ﷺ، وعادة ما يتفنن الشعراء والخطباء في أساليب عرضها، ورسم صورها بشكل عاطفي مؤثر، يستثير المشاعر، ويستدر العواطف والدموع، ولاشك أن ما أصاب العترة النبوية الطاهرة من المصائب و الآلام، كان شيئاً فظيعاً مأساوياً، وخاصة مع أخذ مقامهم الرفيع بعين الاعتبار، إن هذا التذكير والاستذكار الدائم لآلام أهل البيت وظلاماتهم يعمق في النفوس حالة التعاطف والتأييد لأهل البيت، اتكالاً على نزوع الإنسان فطرياً للتعاطف مع المظلوم، كما يخلق تعبئة واستفزازاً دائماً في نفس الإنسان ضد ممارسات الظلم والعدوان في كل زمان ومكان، ومن أي جهة وعلى أي جهة وقعت.

ومن المفترض أن يساعد ذلك على تحصين الإنسان من اقتراف الظلم والعدوان على الآخرين.

إن من تتفجر عاطفته ويهتز كيانه لذكر مقتل الإمام الحسين وأصحابه، ويمتلئ غضباً ضد قتلته، فإن ذلك يخلق في نفسه نفوراً وابتعاداً عن أي ممارسة تؤدي إلى إزهاق نفس أو إراقة دم حرام.

وإن من يتكرر بكاؤه ونحيبه لسبي عيالات أهل البيت وسلب خيامهم، فإن مناعته الذاتية ضد أي دور عدواني على حرمات الآخرين ستكون أقوى وأصلب.

و الحديث هنا عن حالة الافتراض كما هو المفترض في أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما ورد في القرآن الكريم، لكن ذلك لا يعني حتمية هذا التأثير للصلاة على نفس كل مصل. إلا بمقدار وعيه لأهداف الصلاة، وتفاعله مع معطياتها. وكذلك فإن التأثير الذي تحدّثنا عنه لاستحضار سيرة أهل البيت ﷺ يعتمد على مدى الفهم والتجاوب مع القيم والمبادئ التي تحملها تلك السيرة العطرة.

وواقع المجتمعات الشيعية يشير إلى درجة عالية من المناعة ضد الظلم والعدوان، فهم كأي مجتمع بشري فيهم من ينزع إلى العدوان والظلم لكن مستوى هذه الحالة وحجم انتشارها قد يكون أقل في أوساطهم قياساً إلى سائر المجتمعات المشابهة لهم في الظروف والأوضاع.

ثالثاً: ضبط الانفعالات:

فسيرة أهل البيت عليهم السلام تحكي درجة عالية من الصبر وكظم الغيظ وتجرع الغصص والآلام، دون أن يدفع ذلك إلى ردود فعل على حساب مصلحة الإسلام والأمة، فلم يكن يتملكهم الغضب لأنفسهم، ولم يربّوا أتباعهم على حماية المصلحة الفئوية أو الطائفية، بمقدار ما كانوا يغضبون لله تعالى، ويحرصون على نيل رضاه كما قال الإمام الحسين عليه السلام: «رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه فيوفينا أجور الصابرين». وكما قال قبله أبوه أمير المؤمنين عليه السلام: «فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا».

ويقرأ الشيعة كل عام في سيرة عاشوراء كيف خرج الإمام الحسين عليه السلام من مكة وقت الحج حفاظاً على حرمة البيت الحرام، مع أن بقاءه في مكة وتحصنه بالبيت الحرام يخدم موقفه السياسي. لكن حرمة الكعبة كانت مقدمة عنده على أي اعتبار آخر.

ويقرؤون كيف أن الإمام الحسين عليه السلام استقبل طليعة الجيش الأموي وهم ألف فارس جاءوا لمحاصرته، ببذل الماء لهم ولم يستغل عطشهم لمنازلتهم والقضاء عليهم ورفض أن يبدأهم بقتال.

ويقرؤون كيف أن سفير الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة مسلم بن عقيل، واتته الفرصة لاغتيال والي الكوفة الأموي عبيدالله بن زياد، حينما جاء يزور شريك بن الأعور في دار هاني بن عروة، ومع إصرار صاحب الدار عليه أن لا يفوّت الفرصة، لكنه امتنع عن ذلك وأبى، مستشهداً بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن».

ويقرؤون الكثير من الشواهد والمواقف التي تؤكد التزام أئمة أهل البيت عليهم السلام بمراعاة

المصلحة العامة للإسلام والأمة، دون الاستدراج إلى ردود فعل غير مدروسة.

إنه درس كبير عظيم استفاد منه أتباع أهل البيت، في تعاملهم مع كثير من المواقف والمنعطفات في عصور تاريخهم إلى العصر الحديث. فمع كل معاناتهم من بطش نظام صدام وقمّعه إلا أنهم لم ينجروا إلى ما انساقت إليه بعض الأطراف في بلدان أخرى من ممارسات العنف والانتقام العام بالتفجيرات والاغتيالات وضرب المصالح الوطنية.

ومع كل ما أصاب أهالي جنوب لبنان من أذى العملاء والمتواطئين مع الاحتلال الصهيوني، إلا أنهم بعد التحرير مارسوا ضبطاً للنفس بدرجة لم تكن متوقعة من قوم منتصرين.

وما يحصل الآن في العراق من انضباط في الوسط الشيعي تجاه الممارسات الإرهابية التي تستهدف الزعامات والمقدسات الشيعية والمدنيين الأبرياء، من أجل وأد محاولات الفتنة الطائفية والاحتراب الأهلي، كل ذلك يعتبر من تأثيرات وانعكاسات استحضار سيرة أهل البيت عليهم السلام.

استثمار موسم عاشوراء:

إن استحضار سيرة أهل البيت عليهم السلام، وأحداث كربلاء، تفتح أمام العقل والقلب آفاقاً رحبة من الوعي والطهر والصفاء، ويمكننا تركيز الاستفادة والاستثمار لهذا الموسم العظيم في مختلف مجالات الاهتمام بالشأن العام. ولعل من أبرز المجالات ما يلي:

أولاً: التأكيد على التمسك بالقيم والالتزام بالأخلاق: حيث تواجه مجتمعاتنا تحدياً عنيفاً على هذا الصعيد، فهناك انفتاح إعلامي ثقافي عبر الفضائيات ووسائل الاتصالات كالانترنت، تستدعي رفع درجة المناعة والحصانة، لتجاوز إغراءات التوجهات الإباحية، ومسلكيات العبث وتحريض الغرائز والشهوات.

وهناك مشاكل واقعية يعاني منها الجيل الناشئ قد تدفعه نحو حالات من ردود الفعل الطائشة، أو الميوعة واللامبالاة، كما تجعله فريسة لمافيا المخدرات وعصابات الإجرام.

إن الحضور الاستثنائي الحاشد لأبنائنا وبناتنا في برامج عاشوراء يعطينا أكبر وأثمن فرصة لتقديم العون والمساعدة لهم على مواجهة التحديات التي تنتصب أمامهم، وتهدد مستقبلهم ومستقبل الأمة من خلالهم.

فنحن بحاجة إلى خطاب ينفذ إلى عقولهم وتتقبله نفوسهم، وبحاجة إلى عرض برامج قادرة على جذبهم واستقطابهم.

ثانياً: التماسك الاجتماعي: إن تطورات الحياة ومتغيرات الواقع، أضعفت قدرة الأسرة على شدّ أطرافها، فأصبحنا نواجه الكثير من الاضطرابات في واقع الأسرة، واهتزاز البيت العائلي، وضعف الارتباط به.

كما أن مناطق الحاجة والضعف اتسعت في مجتمعاتنا مما يزيد في تهديد أمننا الاجتماعي، ويشكل خطراً على مستقبل المجتمع، فلا بد من استثمار هذا الموسم العظيم في التأكيد على موقعية الأسرة ومعالجة ما يواجهها من مشاكل وتحديات، وفي الدعوة إلى مأسسة المجتمع وقيام المزيد من مؤسسات المجتمع المدني، بإنشاء مؤسسات وجمعيات ولجان تهتم بمختلف شؤون المجتمع واحتياجات أبنائه.

ثالثاً: التفاعل الوطني: فلا يصح أبدا أن تكون أجواء عاشوراء في معزل عما يدور على ساحة الوطن، فنحن في المملكة العربية السعودية مثلاً أمامنا قضية الحوار الوطني، وقضايا حقوق الإنسان حيث تشكلت الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان، وانتخابات المجالس البلدية، وأمامنا تحدي العنف والإرهاب، حيث يواجه الوطن فئة مجرمة تريد سلب مجتمعنا ووطننا أهم خصيصة كان ينعم بها وهي الأمن والاستقرار.

إن هذه القضايا تهمنا جميعاً كوطن ومواطنين وينبغي أن تأخذ موقعها في خطابنا وإحيائنا لهذه المراسم، بتوضيح الرؤية أمام المشاركين، ودفعهم للتفاعل مع قضاياهم الوطنية ومصالحهم الدينية والاجتماعية.

والسلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أنصار الحسين ورحمة الله وبركاته.■

كتابات

تقديم كتاب مختصر الطفل بين الوراثة والتربية[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين.

-١-

إن الواقع الذي نعيشه له جذور وأصول عميقة ترتبط بمكونات ذواتنا، والنسيج الداخلي لشخصياتنا، فحياة الفرد وسلوكه هي انعكاس لوضعه النفسي وتوجهاته الفكرية، فكلما صلحت البنية الداخلية للإنسان استقامت حياته الخارجية، أما إذا أنطوى على ذات سيئة فاسدة فلن يعيش سوى واقع الانحراف والشقاء.

لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «**لكل ظاهر باطن على مثاله، فما طاب ظاهره طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه**»، و«**حسن السيرة عنوان حسن السريرة**»، و«**من حسنت سريرته حسنت علانيته**»[2].

ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**فساد الظاهر من فساد الباطن، ومن أصلح**

---

(١) فلسفي: الشيخ محمد تقي، مختصر الطفل بين الوراثة والتربية، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم.

سريرته أصلح الله علانيته»، و«أن السريرة إذا صحت قويت العلانية»[١].

وإذا كان واقع الإنسان جسمياً بين أحضان والديه كذلك تتشكل نفسيته وشخصيته في رحابهما وتحت تأثيرهما.

وهنا تكمن خطورة عاملا الوراثة والتربية حيث يتحكمان إلى حد بعيد في رسم الصورة المستقبلية لحياة الإنسان. وكلما صلح هذان العاملان كانت نتيجتهما إنساناً صالحاً سعيداً في الغالب، أما إذا انتابهما الخلل والفساد فإن النتيجة تتبع نفس المقدمات ـ كما يقول المناطقة ـ إلا ما شاء الله.

إذاً فواقعنا المعاش هو إفراز لواقع آبائنا وأسلافنا وهو ثمرة لتربيتهم، كما أننا الآن نتحكم في صنع مستقبل أبنائنا والجيل القادم.

ولأهمية هذين العاملين (الوراثة والتربية) ولخطورتهما لابد من دراستهما، والتعرف على الملابسات المحيطة بهما، وذلك لأجل تحسين أدائهما، ولتوجيههما نحو التأثير الأفضل.

إن دراسة هذا الجانب والإطلاع على أبعاده لأمر هام وضروري، بل هو من أوليات المعارف التي يجب أن ينشدها كل إنسان ويسعى لتحصيلها والإلمام بها.

ومؤسف جداً أن الأكثرية في مجتمعاتنا تتعامل مع هذا الموضوع بعفوية وإهمال، مكتفية بالأعراف والتقاليد، ومعتمدة على الاجتهاد والمزاج الشخصي.. فهناك من يصبح رب عائلة كبيرة ويرزقه الله العديد من الأولاد والأحفاد بينما هو لم يكلف نفسه عناء الإطلاع على أي بحث تربوي، أو تحصيل أي معرفة وثقافة تساعده على النجاح في حياته العائلية وفي تنشئة أبنائه على النحو الأكمل والأفضل.

كما يجب أن نعترف بأن ثقافة التربية، ومعارف السلوك الاجتماعي غير متوفرة ولا مبذولة في مجتمعتنا الإسلامية بالمستوى المطلوب. فالكتابات في هذا المجال محدودة، ولغة بعضها ليست ميسّرة وواضحة للجمهور، كما أن انتشارها في نطاق ضيق.

---

(١) الري شهري: ميزان الحكمة، ج٤ ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

-٢-

وكتاب (الطفل بين الوراثة والتربية) جاء تلبية لحاجة ملحة في الساحة الإسلامية، فهو كتاب رائد ناجح في مجال البحوث التربوية الاجتماعية. ويجمع بين الأصالة حيث ينطلق من تعاليم الإسلام وتوجيهاته، وبين المعاصرة إذ يقتبس من ناتج العلوم الحديثة، ويعزز أطروحاته بالأرقام والإحصائيات وتجارب البشرية.

يحتوي الكتاب على بحوث رائعة حول أسلوب التربية في الإسلام، تمتاز بالعبارة الواضحة، والشواهد الجميلة، وتعالج قضايا تربية الطفل منذ انعقاد نطفته جنيناً بواقعية وعمق، وتشير إلى الأخطاء والثغرات التربوية السائدة في المجتمع.

وفي الأصل ألقى المؤلف هذه البحوث كمحاضرات جماهيرية في مسجد سيد عزيز الله، وهو جامع كبير في العاصمة الإيرانية طهران، وكان ذلك في ليالي شهر رمضان المبارك عام ١٣٨١هـ ١٩٦١م، فتركت هذه المحاضرات صدى وتأثيراً واسعاً في أوساط الشعب الإيراني، وراجت وانتشرت تسجيلاتها بكثافة ملحوظة. وحينما طبعت هذه البحوث باللغة الفارسية في كتاب يقع في مجلدين تلاقفته أيدي القراء، وأعيدت طباعته أكثر من أربعين مرة لحد الآن.

ولحسن الحظ فقد بادر سماحة العلامة الجليل السيد فاضل الحسيني الميلاني (حفظه الله) لترجمة الكتاب إلى اللغة العربية وطبع في مجلدين سنة ١٣٨٦هـ١٩٦٦م، في النجف الأشرف ـ العراق، واستقبلته الأوساط الثقافية العربية بتلهف وإقبال حتى نفدت طبعاته في العراق ولبنان حوالي عشر مرات من قبل دور نشر مختلفة.

-٣-

مؤلف الكتاب: العلامة الخطيب الشيخ محمد تقي فلسفي، عالم ضليع في المعارف الإسلامية، وخطيب مفوّه، وهو أبرز وأشهر خطباء إيران المعاصرين، ومجالس خطاباته تكتظ بألوف المستمعين، والذين يأسرهم ويشدهم إليه بقدرته الخطابية الفائقة.

وهو يركز في خطاباته على قضايا المجتمع المعاصر ومشاكله، ويغتنم فرصة

ليالي شهر رمضان المبارك كل عام لمعالجة أحد المواضيع الاجتماعية الهامة، فكما تناول موضوع الطفل بين الوراثة والتربية عام ١٣٨١هـ فإنه تناول موضوع الشباب في سنة أخرى، وتحدث حول قضايا الشيوخ وكبار السنّ في عام ثالث..

ومعروف عنه (حفظه الله) أنه يتعب كثيراً ويجهد نفسه في الإعداد للمحاضرات التي يلقيها، وينتقد أسلوب الخطابة الإنشائية ذات المواضيع المكررة والمشتتة!!

وكانت خطاباته أثناء الحكم الشاهنشاهي البهلوي الغابر في إيران مصدر إلهام وتعبئة للجمهور ضد فساد الحكم، مما عرضه للاعتقال والمنع من الخطابة.. ورغم كبر سنه الآن إلاّ أنه يحتفظ بحيويته الخطابية وإبداعه الفكري وقد أصبحت خطاباته تذاع من تلفزيون وإذاعة الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

لكل ذلك يتمتع الشيخ فلسفي بمكانة مرموقة في مجتمعه، حيث يحظى باحترام الحكومة الإسلامية، ومختلف طبقات الشعب الإيراني، كما يلتف حوله خطباء العاصمة الإيرانية طهران، ويعتبرونه عميدهم وزعيمهم، ويتخذون منزله كمنتدى وملتقى يومياً لهم على مدار السنة.

وهو لا يبخل باستخدام نفوذه ووجاهته لقضاء حوائج المحتاجين وحل مشاكل الناس، بالتوسط لدى الجهات المسؤولة، والتدخل لمعالجة ما يستطيع من المشاكل والقضايا الاجتماعية.

-٤-

إن الشيخ فلسفي مدرسة رائدة في عالم الخطابة وحريّ بكل خطيب مخلص أن يستفيد من معطيات وتجارب هذه المدرسة.

فمنابر الخطابة في مجتمعاتنا تتيح أفضل فرصة لتوعية الناس، وتعبئة طاقاتهم باتجاه الإصلاح والتقدم، ولمعالجة المشاكل الفكرية والنفسية والاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات. إلا أن بعض من يرتقون ذروة أعواد الخطابة لا يجهدون أنفسهم لإفادة المستمعين وتنوير عقولهم لقصور أو تقصير. فيطرحون على الجمهور مواضيع مكررة، أو مواعظ جافّة، أو مسائل ثانوية، بعيدة عن آلام الناس وأمالهم، ولا يهتمون

بتركيز الموضوع لمعالجة قضية معينة باستيعاب مختلف أطرافها..

إن منابر الخطابة الدينية تواجه اليوم تحديات كبيرة ومنافسة خطيرة، تتمثل فوسائل الإعلام والتثقيف المعاصر من إذاعة وتلفزيون وصحف ومجلات وأفلام وسينماءات ومؤتمرات وندوات، فإذا لم يطوّر الخطباء مضمون وأسلوب خطابتهم فإن الجمهور سينصرف عن منابرهم مقبلاً على التوجهات المنافسة، كما يحصل الآن بالفعل في أكثر الحالات.

وحتى لو اجتمع الناس حول منبر الخطابة الدينية في المواسم والمناسبات بدافع التعبد والتزام السنن والتقاليد الصالحة، فإنهم سوف لا يتأثرون ولا يستفيدون إذا لم يجتهد الخطيب في اختيار المواضيع الجيدة والمتفاعلة مع واقع المجتمع.

إن على الخطيب أن يجهد نفسه بالتفكير والبحث والمعالجة والتحضير ليكون المنبر فرصته لعرض نتائج بحوثه وأفكاره على الجمهور، كما يجب أن تعالج تلك البحوث قضايا المجتمع والظروف التي يعيشها.

ونأمل أن يكون أسلوب الشيخ فلسفي الذي تتضمنه بحوث هذا الكتاب نموذجاً يقتنيه سائر الخطباء المخلصين لينفعوا مجتمعاتهم وليثيروا الساحة الفكرية الثقافية بعطائهم.

-٥-

العلم كله في العالم كله. فليس للعلم حدود جغرافية أو قومية، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**أطلبوا العلم ولو بالصين**»[١]، والمسلم ينبغي أن يبحث عن المعرفة أنّى كانت ويستفيد من تجارب البشر من كانوا، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[٢].

ولكن بالدرجة الأولى على المسلمين أن ينفتحوا على بعضهم البعض، وأن لا تكون الحدود الجغرافية أو التعدد القومي، أو الاختلاف المذهبي، حاجزاً ومانعاً في

(١) الري شهري: محمد، ميزان الحكمة، ج٦ ص٤٦٣.
(٢) سورة الزمر الآية ١٨.

التفاعل والانفتاح الفكري الثقافي بين المسلمين.. ومن العجيب أن انفتاح المسلمين على الثقافات الأخرى أكثر من انفتاحهم على بعضهم البعض، ذلك لأن الثقافة الغربية مثلاً تمتلك الوسائل والقدرات لغزو مختلف الأمم، ولأن هناك من يخطط لنقل ثقافة الآخرين وفي جوانب معينة بالذات إلى شعوبنا الإسلامية.

أما التواصل الفكري الثقافي بين الشعوب الإسلامية فيفتقد الإمكانيات والوسائل لعدم وجود المؤسسات والأجهزة التي تأخذ على عاتقها مسؤولية التدوير الثقافي بين المسلمين، بتبني ترجمة ونشر الأعمال الفكرية والنتاج الأدبي للمفكرين المسلمين بمختلف اللغات المتداولة بين الشعوب الإسلامية. فهناك الكثير من المصادر والمؤلفات باللغة العربية لم تترجم ولم تنقل إلى سائر لغات المسلمين، كما أن لدى المسلمين الناطقين باللغة الفارسية تراثاً جيداً ليس في متناول القراء العرب، وهكذا الأمر بالنسبة إلى اللغات الأخرى كالأردو والتركية والسواحلية..

إن ترجمة كتاب (الطفل بين الوراثة والتربية) إلى اللغة العربية قدم خدمة كبيرة إلى مجتمعاتنا ولنا أن نتصور مدى الخسارة لو لم يقم السيد الفاضل الميلاني بهذا الجهد المشكور! ولكن هل هذا الكتاب هو الوحيد الذي يستحق الترجمة من اللغة الفارسية؟ بالطبع: كلا. فهناك ثروة فكرية وأدبية هائلة، وتجارب حياتية نافعة لدى إخواننا الإيرانيين..

فلابد من مؤسسات تلعب دور الترجمة المتبادلة والتواصل الثقافي ليس بالنسبة للغة الفارسية فقط وإنما لجميع اللغات المتداولة بين الشعوب الإسلامية.

-٦-

ولأهمية كتاب (الطفل بين الوراثة والتربية) ولحاجة المجتمع إليه عمدنا إلى اختصاره تقليصاً لحجمه حتى يسهل اقتناؤه وانتشاره وقرأته. وطريقنا في الاختصار هي حذف المواضيع والأبحاث الجانبية التي تطرق إليها المؤلف دون أن تكون من صميم موضوع الوراثة والتربية، ذلك أن سماحة المؤلف ومن أجل إشباع البحوث واستيعاب أطرافها كان يتعرض لمناقشة بعض القضايا الفكرية أو الجوانب العلمية

والتاريخية التي ترتبط بالموضوع لمناسبة الطرح، وقد رأينا حذف تلك المواضيع والاقتصار على القضايا والمسائل المتعلقة بالموضوع الأساسي وهو قضية الوراثة والتربية بالنسبة للطفل.

وبعد أن اختصرنا الكتاب قمت بعرضه على سماحة الشيخ المؤلف وشرحت له مبررات الفكرة فرحب بها ووافق على طبع الكتاب مشكورا.

وحينما تم طبع الكتاب (مختصر الطفل بين الوراثة والتربية) سنة ١٩٨٤م في لبنان أبدى الكثير من القراء إعجابهم بفكرة الاختصار هذه، ونفدت نسخ الكتاب وتوالت الطلبات على إعادة طبعه.

وإذ أقدمه اليوم للطبعة الثانية لأرجو الله تعالى أن يتقبل منا هذا الجهد المتواضع وأن يحفظ المؤلف الكريم، ويثيب المترجم الفاضل، كما أتوجه بالشكر للأخ العزيز الذي ساعدني في إعداد الكتاب وتهيئته..

والله ولي التوفيق.

حسن الصفار
٢٠/ ٢/ ١٩٩٢م
١٧/ ٨/ ١٤١٢هـ

تقديم (موسوعة المدائح النبوية)[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين.

لقد تجلى الإبداع الإلهي والكمال الرباني في شخصية الرسول الأعظم خاتم الأنبياء محمد بن عبدالله ﷺ، فلا مخلوق يدانيه في علو شأنه ومقامه ومكارمه، فهو النسخة الفريدة في عالم المخلوقات، والوجود المتميز في دنيا الكائنات، لذلك ليس غريباً أن يتبارى الشعراء، وأن يتسابق العلماء، وأن تتفجر قرائح الأدباء في التغني بكمال رسول الله ﷺ، وتوصيف ما يستطيعون إدراكه من شمائله وفضائله. إن أحداً لا يستطيع ولن يستطيع الإحاطة بجوانب عظمته، فذلك موكول لخالقه الذي وصفه بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، لكن كل مرآة تعكس من أشعة الشمس ما يتناسب مع حجمَها وصفائها، وكذلكَ كل عقل وفكر وقريحة إنما يتلقى ويقتبس من أنوار الرسالة والنبوة بمستوى إدراكه ووعيه.

---

(١) أبو المكارم: الحاج عبدالقادر الشيخ علي، موسوعة المدائح النبوية، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، دار المحجة البيضاء، بيروت..

لقد فرضت شخصية النبي محمد ﷺ نفسها على التاريخ، ولم يتمكن حتى أعداؤه ومناوئوه من التنكر لعظمته وكبير دوره وتأثيره في تاريخ البشرية، وحينما أراد باحث مسيحي هو السيد (مايكل هارت) أن يكتب عن أبرز عظماء العالم وجد نفسه ملزماً ومضطراً بوحي إنصافه لموضوعيته أن يتحدث عن النبي محمد ﷺ باعتباره الرقم الأول في سجل عظماء البشرية.

ومدائح الرسول في الواقع هي تمجيد لقيم الفضيلة والسمو المتجسدة في شخصيته، من هنا تبدو قيمة هذه المدائح وأهميتها فهي:

أولاً: تكشف بعض أبعاد شخصية الرسول الأعظم، وتوضح شيئاً من جوانب عظمته، وذلك أمر مهم لكل مسلم بل لكل عاقل يهمه إدراك الحقائق ومعرفة الأمور، والمدائح ترسم صوراً رائعة جميلة للفضيلة والسمو، وتأخذ موقعها في نفس الإنسان وعقله.

وثانياً: أنها نوع من أداء واجب التعظيم والاحترام تجاه الرسول المنقذ الذي فرض الله تعالى علينا محبته وطاعته، والذي له علينا فضل الهداية والإنقاذ والنجاة، فلولاه لكنا والبشرية جميعاً في حضيض الجاهلية ومتاهات الظلام.

وثالثاً: فالمدائح النبوية إشادة وتمجيد بمكارم الأخلاق وجميل الفضائل والصفات، مما يوجب توجه النفوس وانجذاب القلوب إليه.

وإدراكاً لقيمة هذه المدائح النبوية ودورها الإيجابي النافع بادر الأخ العزيز الفاضل النبيل الحاج عبدالقادر نجل العلامة الحجة الشيخ علي أبو المكارم، بجمع هذه المدائح وتبويبها وتصنيفها، فأصبحت موسوعة أدبية كبيرة تحفظ ما أنتجته قرائح الشعراء، وما تفتقت عنه مواهب الأدباء في مدح الرسول الأعظم ﷺ، والإشادة بمكارم أخلاقه وروائع سيرته وحياته.

والمؤلف الكريم أخ عزيز على قلبي، عرفته منذ الأيام الأولى لاهتماماتي الاجتماعية والثقافية، ووجدت فيه صورة الإنسان المؤمن الخلوق المحب للخير وأهله، وهو سليل أسرة عريقة، ووثيق الصلة بالعلماء والأدباء، وقد وفقه الله تعالى

للالتحاق بموكب المؤلفين والكتّاب المدافعين عن العقيدة والمبدأ بأقلامهم.

وهذه الموسوعة إحدى ثمار نشاطه الأدبي والثقافي، فحيّاه الله وبيّاه، ووفّقه للمزيد من العمل الصالح في مختلف المجالات، وأرجو أن تأخذ هذه الموسوعة مكانتها في عالم الأدب والتاريخ، وأن يثيب الله المؤلف على أتعابه وجهوده، والحمد لله رب العالمين.■

حسن الصفار

١٥/ ١١/ ١٤١٤هـ

تقديم كتاب الليل والنهار[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين.

منح الله تعالى الإنسان عقلاً قادراً على التفكير والنظر ليتأمل به في أرجاء هذا الكون الرحيب، وليدرك أنظمته وسننه، ويكتشف أسراره العميقة، ويستثمر خيراته الوفيرة.

ومن إمكانات هذه الطاقة العقلية الهائلة القدرة على البيان، والتعبير عن الرأي والشعور، وهي نعمة عظيمة يمتن الله تعالى بها على الإنسان، حيث يقول تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾.

وهي ميزة فريدة لبني البشر يستطيع الإنسان بها أن يتبادل الأفكار والمعارف والمعلومات بين أفراده، وأن يتناقلها عبر أجياله مدى التاريخ.

وبها يفصح عن أحاسيسه ومشاعره وخلجات نفسه ليتفاعل مع الآخرين مؤثراً ومتأثراً.

لكن قدرة البيان والتعبير يتفاوت مستواها عند أبناء البشر بحسب ممارستهم

---

(١) تقديم لكتاب الليل والنهار لمؤلفه حسن علي آل طالب، تحت الطبع.

لها، وتفعيلهم إياها، وإمدادها بعوامل النمو والتطوير.

إن أكثرية الناس لا يلتفتون إلى هذه القدرة الرهيبة في ذواتهم، ويتركونها معطلة، لا يستفيدون منها إلا بمقدار ضئيل.

وقسم آخر يستثير هذه الطاقة ويحركها فيأخذ ويعطي في عالم المعرفة والفن والأدب. وهم الذين يثرون عالم البشرية بإنتاجهم العلمي والأدبي على اختلاف المستويات والمراتب.

إن التفات الإنسان إلى هذه الموهبة، وتوجهه إلى تفعيلها واستخدامها هو الخطوة الأساس في الطريق إلى ميدان العطاء والإنتاج المعرفي.

من هذا المنطلق أقدر للأخ الكريم الأستاذ حسن علي آل طالب حرصه على المشاركة والإسهام الأدبي لنشر المعرفة في وسط الجمهور.

إنه يعتصر ذهنه، ويسرّح بريد خياله، ويركز مشاعره، ويرصف انطباعاته، ليقدم نتاجاً معرفياً بلغة جماهيرية شعبية واضحة.

لقد اطلعت على بعض كتاباته المطبوعة كما اطلعت على كتابين جديدين يعتزم تقديمهما للطبع والنشر هما: حوارية (الليل والنهار)، وحوارية (الحسناء والتاريخ)، فاستمتعت برقة التعبير، وحسن الأداء، وتبسيط الأفكار والمعارف ليتناولها الجميع.

فللأخ الكريم كل الشكر والتقدير على جهوده الطيبة، متمنياً له المزيد من التقدم والعطاء، والحمد لله رب العالمين.■

حسن الصفار

٧ شعبان ١٤٢٥هـ

الإخلاص[1]*

بقلم الشيخ حسن موسى الصفار

لو جلست إلى أي مسؤول في أي مجتمع من مجتمعاتنا العربية وتحدثت معه عن مشاكل التخلف الشامل الذي تعيشه الأمة وعن قضايا المجتمع وأوضاعه ثم طرحت عليه السؤال التالي: كيف يمكننا أن نتجاوز حالة التخلف ونقفز إلى قمة التقدم؟

لكان الجواب:

يمكننا ذلك بتربية الكوادر الإدارية وبناء الكفاءات العلمية القادرة على قيادة البلاد على طريق التقدم والرفاهية.

ولا شك أن العلم هو دعامة أساسية للتقدم فلا تتقدم أية أمة ولا ترتفع عن حضيض التخلف إلا بالعلم يقول الله تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾.

والخبرة الإدارية لها قيمتها في تنظيم أمور المجتمع وحل مشاكله.

لكن هل يكفينا المستوى العلمي والكفاءة الإدارية لكي نندفع في طريق السعادة

---

(١) الأسرة: مجلة أسبوعية اجتماعية ثقافية ـ سلطنة عمان، العدد ٧٩ بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٧٨م.

والرفاهية أم أننا نفتقر معهما إلى شيء آخر اسمه: الإخلاص.

والإخلاص يعني: يقظة الضمير وصحوة الروح عند الإنسان.

حيث يمتلك الإنسان ضميراً حياً يقول له: لا. كلما زين له الشيطان أن يخون وطنه.

ويقول له لا. كلما ثارت أنانيته وتنبهت أغراضه الشخصية لتدفعه إلى ظلم الناس والاعتداء على حقوق الآخرين.

ويقول له لا. كلما قصر في خدمة مجتمعه أو توانى عن أداء دوره ومسؤوليته.

أما إذا لم يمتلك الإنسان هذا الضمير الحي والشعور اليقظ بالإخلاص، وكان يمتلك العلم والكفاءة فمن يضمن حينئذ أنه لن يستغل كفاءته في خدمة مصالحه الخاصة على حساب مصلحة المجتمع؟ ومن يضمن أنه لن يستخدم علمه في تحطيم الآخرين والاعتداء عليهم؟

إن الموظف الذي يستخدم وظيفته من أجل مصالحه الشخصية دون مراعاة للمجتمع والوطن.

والعامل الذي يقصر في عمله ويضيع الوقت سدى إذا غفلت عنه عين المراقبة أنه عامل خائن لا يمتلك روح الإخلاص.

من هنا تأتي أهمية الإخلاص كأفضل وسيلة لتوجيه الكفاءات لخدمة الوطن والمجتمع ولدرء المفاسد والأخطار عن الأمة والوطن.

ولكن: كيف ننمي الإخلاص في نفوس الناس؟ وكيف نرهف وجدانهم ونوقظ ضمائرهم في عصر تحكمت فيه الأنانية وسيطر حب المادة وأصبحت المصالح الخاصة هي لغة التعامل؟

يمكننا ذلك بالطرق التالية:

-توعية أفراد المجتمع بأهمية الإخلاص وضرورته، وإنك إذا لم تكن مخلصاً تكون قد ساهمت في تقويض روح الإخلاص من المجتمع، وإذا تلاشى الإخلاص

فإن المجتمع ككل يتضرر ويتأذى وباعتبارك أحد أفراد المجتمع فإنك لا شك تلاقي نصيبك من الخسارة والضرر.

ويجب الاستفادة من جميع الوسائل الإعلامية والتربوية من أجل أغراض التوعية الاجتماعية بأهمية الإخلاص وضرورته.

-تركيز الجانب الديني والإيماني في النفوس، فالدين الصحيح يدفع صاحبه إلى الإخلاص، والإيمان الواقعي لا يسمح للفرد بالخيانة والانحراف.

لأن الفرد المؤمن يشعر بأن الله يراقبه ويحصي عليه تحركاته وتصرفاته وسيحاسبه بالتالي عن كل خطيئة وانحراف.

ويحدثنا التاريخ أن الخليفة عمر بن الخطاب كان مسافراً ذات مرة مع مجموعة من الصحابة، وفي الطريق استقبلهم غلام يقود قطيعاً من الغنم، فاستوقفه الخليفة عمر وقال له: ألا تبيعنا رأساً من الغنم نسد به جوعنا؟

فأجاب الغلام: إني لا أملك حق التصرف في هذا القطيع فلست إلا مجرد خادم أجير لمالك الغنم والذي يقيم على مسافة من هذا المكان.

وكأنما أراد الخليفة أن يمتحن نفسية هذا الغلام، فقال له: وماذا يضرك إذا بعتنا رأساً من الغنم وربحت قيمتها لك وبعد ذلك تقول لسيدك أن غنمه ماتت أو فقدت أو ما أشبه أفلا يصدقك إن قلت له ذلك؟

فاندهش الغلام من هذا الكلام وأجاب: لا شك أن سيدي سيصدقني وسأكسب مبلغاً من المال ولكن أين الله إذا؟

هكذا يكون الدين باعثاً للإخلاص ومانعاً عن الجريمة والخيانة، فإذا ما عمقنا الإيمان وركزنا الدين في النفوس فإن ذلك يخدم سعادة المجتمع وتقدمه وأمنه.

-أن يتحمل كل فرد من المجتمع مسؤوليته في الدعوة إلى الإخلاص وفي رفض الخيانة والانحراف، فإذا رأينا إنساناً لا يلتزم بالإخلاص ويخون وظيفته ومجتمعه فعلينا أن ننكر عليه ذلك وننصحه بالتراجع، لا أن نسكت عليه ونشجعه أو نشترك معه في العمل، فالقرآن الحكيم يريد منا أن نتواصى بالحق والالتزام به يقول

تعالى:﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾، وفي الحديث الشريف:«**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ومن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**».

وأخيراً: يجب أن لا نقع فيما وقعت فيه المجتمعات المادية التي ركزت على جانب العلم والكفاءة وأهملت جوانب الإيمان والوجدان والإخلاص فأصبحت تضج بالمفاسد والرشوات والخيانات. ففي كل يوم تطالعنا الصحف والأخبار باكتشاف خيانة جديدة وفضيحة منكرة. وآخر خبر نشرته الصحف في هذا المجال هو الخبر التالي:

«أعلنت السلطات القضائية الأمريكية بعد تحقيق استمر سنتين أن (أدجار هوفر) مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، وهي الهيئة المختصة بملاحقة الجرائم العادية ومراقبة النشاط السياسي داخل الولايات المتحدة قد ارتكب تجاوزات ومخالفات قانونية وإدارية خلال عمله وأنه كان يقبل هدايا وخدمات من موظفي المكتب والمعروف أن (هوفر) الذي توفي عام ١٩٧٢ عن ٧٧ عاماً شغل منصبه هذا منذ أوائل الثلاثينيات ولم يجرؤ الرؤساء الأمريكيون المتعاقبون على إقصائه عنه نظراً لسطوته ونفوذه الكبيرين».■

كيف انتصر الإسلام؟[1]*

حسن موسى الصفار

مكة المكرمة بدأت هذه السنة ـ أيام الحج ـ وكأنها قطعة من البشر المتحرك، حيث استضافت ما يربو على المليون ونصف مليون حاج، فلا تكاد تجد شبراً من شعاب مكة محروماً من استضافة قطعة بشرية، هذا مع أن هناك الكثير من الموانع والعراقيل التي تخفف على مكة من عدد الضيوف، وإلا لو تركت للناس حرياتهم واستثنت القوانين الوضعية الحج من تعقيداتها لفاق عدد الحجيج كل تصور، فبعض الدول تمنع رعاياها من الحج كالاتحاد السوفياتي، وأخرى تضع القيودات والعراقيل أمام الحجاج.. فهذا العدد الضخم الذي جاء من كل فج عميق إنما هم كوفود وكممثلين لجميع شعوب العالم جاؤوا يعلنون خضوعهم وخشوعهم لله والتزامهم بمبادئ الرسول محمد ﷺ.

وفي زاوية من زوايا البيت الحرام جلست أتحدث مع نفسي، وأنا أشاهد هذا الجمع المتحرك والذي هو من مختلف الجنسيات والقوميات، فألوف وألوف تطوف، وألوف تصلي، وألوف تدعو وتبتهل.. والقاسم المشترك بينهم ـ لبيك اللهم لبيك ـ أي الاستجابة الكاملة والخضوع المطلق لله.. وتساءلت مع نفسي: أليست هذه مكة التي

---

(١) الأسرة: مجلة أسبوعية اجتماعية ثقافية ـ سلطنة عمان، ١٩٧٥م.

حاربت محمداً بالأمس وأعلنت رفضها العنيف لدعوته؟

أليست هذه مكة التي طردت محمداً وعذبت أتباعه.. وخاضت المعارك ضده؟

كيف أصبحت اليوم أهم مركز لدعوة محمد؟

أصبحت وكأنها مهرجان سنوي يمتد وتشترك فيه جميع شعوب العالم.. لتقديس محمداً رسول الله.. ويتردد الصدى بين جبال مكة وفي بطون شعابها، وبالأمس كان صبيان مكة وسفهاؤها يملأون الجو بالعياط والاستهزاء من محمد: مجنون، ساحر، كذاب..

ويفرض السؤال نفسه ترى كيف تغير الوضع؟ كيف تغلب محمد على كل تلكم الأوضاع المعاكسة؟ وبعبارة أخرى كيف انتصر الإسلام رغم قوة المعارضة؟

من السهل أن نجيب على السؤال بالقول بتأثير عامل الزمن، فالأربعة عشر قرناً التي مضت على بعثة النبي كانت كفيلة بحل المشكلة وتغيير الوضع، ولكن قد يكون الجواب محتملاً لو أن الانتصار كان حديثاً وكان وليد اليوم، أما وقد قطف النبي ﷺ بنفسه وفي حياته زهرة النصر، وبعد مضي أقل من عشرين سنة على بدء دعوته، فهذا ما يدعو إلى البحث عن جواب آخر، فكيف انتصر الإسلام؟

يمكن عرض العوامل التي ساعدت على انتصار الإسلام في النقاط التالية:

١. **أحقية الدعوة**: فليس كل الناس يرفضون الحل متى تبين لهم، فهناك الباحثون عن الحقيقة في كل زمان ومكان، وبما أن دعوة النبي كانت محقة وصادقة فمن الطبيعي أن تلقى التجاوب من أولئك المخلصين للحق، ذات مرة سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: عرفت محمد بالله أم عرفت الله بمحمد؟

فأجاب: بل عرفت محمداً بالله.. يعني رأيت ما عند محمد حقاً فعلمت أنه صادق والمسلمون الأوائل كلهم كانوا من هذا النوع، حيث رأوا الحق فاتبعوه.

٢. **الخلق العظيم**: ولكن مجرد أحقية الدعوة لا يكفي لالتفاف الناس حولها ما لم تعتمد أسلوباً مغناطيسياً يقوم بجلب الناس وإيصال الحق إلى نفوسهم، وتلك هي

وظيفة الأخلاق،.. يقول تعالى ملفتاً إلى دور العامل الأخلاقي في نجاح الدعوة:﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾.

والأخلاق هنا تعني شيئين: سلوك الداعية العام، وطريقته في عرض الدعوة بحكمة ولين، فإذا كان الداعية معروفاً في المجتمع بحسن السيرة، والسلوك، فإن ذلك من شأنه أن يغرس له المحبة في القلوب ويكسبه ثقة الناس، والأسلوب الذي تعرض به الدعوة له أكبر الأثر في رفضها أو قبولها.

في الحقل الأول تحدث القرآن عن الرسول محمد ﷺ فشهد له بالخلق العظيم:﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، وتظهر قيمة هذه الشهادة إذا لاحظنا أنها من السماء، وأنَ السماء تعتمد الدقةَ فيَ أحكامها.

وتلك حقيقة اعترف بها كل من عاصره حتى أعداؤه ومحاربوه فقد كان معروفاً لديهم بالصدق والأمانة وحسن السيرة والسلوك، وأكثر الذين آمنوا بالرسول بادئ الأمر كان دليلهم وحجتهم، أن الذي لم يعرف عنه كذبة على أحد من أهل الأرض لا يمكن أن يتهم بأخطر كذبة على السماء.

وفي الحقل الثاني يحفل أرشيف الدعوة بالكثير من المواقف الرائعة التي كان لحلم النبي وتواضعه ومقابلته الإساءة بالإحسان أكبر الأثر في جلب الطرف المقابل.

٣. **الصمود**: طريق الإصلاح والتغيير الاجتماعي لم يكن في يوم من الأيام مفروشاً بالورود والياسمين، وإنما كان دائماً وأبداً مزروعاً بالألغام والأشواك، لأنه يعني تغيير الوضع الفاسد، وهنا يختلف موقف فئات المجتمع فئة تجهل أو تتجاهل فساد الأوضاع ولا تحاول التفكير في إصلاحها. وأخرى تشفق من تحمل مسؤوليات التغيير والمواجهة على نفسها فتستسلم للأمر الواقع، وثالثة تستفيد من بقاء الوضع الفاسد، حتى تتمكن من تحقيق أهوائها وشهواتها.. وتبقى القلة القليلة المجاهدة في وجه جميع هذه الفئات.

فالداعية الرسالي يجب أن يضع في حسابه أعلى مستوى للصراع، ويوطن نفسه على تحمل أكبر قدر ممكن من العناء والصمود رغم جميع العقبات.

وتجد القرآن كثيراً ما يتحدث عن معاملة المجتمعات السابقة للأنبياء والمصلحين.. وكأنما يريد أن يؤكد طبيعة الصراع بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون ليعد نفسية النبي لتحمل المشاق والضغوط.. ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا**﴾.. ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾.

والصمود يعني شيئين: عدم الاستجابة للإغراءات التي تعني تنازل الإنسان عن هدفه ومبادئه مقابل مصالح شخصية كمال أو جاه.. وعدم الانهزام أمام المصاعب والأذى.. وفي الناحيتين يبدو الرسول الأعظم ﷺ كأروع مثل للصبر والصمود، فقد قال قولته الخالدة:«**والله لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بيساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أبداً حتى يظهره الله أو أموت دونه**»، وتحمل من قومه الإهانة والضرب والقتال والخروج من الوطن.

٤. **التضحية**: على مدى تقييم الداعية لمبادئه يتحدد مقدار تضحيته، فإذا كان يرى الدعوة كهدف عظيم يجب تجنيد الحياة بما فيها من أجل تحقيقه، فيعني ذلك أنه مستعد للتضحية بكل شيء، وأما إذا كان يرى الدعوة كشيء ثانوي في الحياة أو أنها طريق لمصالحه الشخصية فسيكون مستعداً للانسحاب عند أول نقطة اصطدام بين هدفه ومصالحه.

والتضحية هي طريق النصر وخط النجاح ولولا تضحية النبي ﷺ بمكانته الاجتماعية حيث كان قبل الدعوة محبوباً مكرماً بين قومه وبعد ذلك صار محارباً منبوذاً. وبأمواله التي بذلتها له زوجته الطاهرة خديجة، وبراحته ووطنه وبحياته، لولا هذه التضحية لما تحقق هذا النصر السريع للدعوة.

فتوفر هذه العوامل الأربعة عند الرسول الأعظم ﷺ بشكل خاص وعند الطليعة المؤمنة بشكل عام هو الذي خلق هذا النصر العظيم والخالد للدعوة الإسلامية وما علينا إذا كنا جادين في إعادة سيادة الإسلام على الحياة إلا أن نسلك هذا الطريق الطبيعي للنصر وتحقيق الهدف.■

لماذا الإسلام؟ [1]

حسن موسى الصفار

في بداية دخول الإنسان لمعترك الحياة يجد أمامه عدة علامات استفهام تستوقفه، وتلح عليه بتحصيل الجواب. وتتحكم تلك الإجابات المطلوبة في مسير الإنسان ومصيره، كيف وجدت؟ من أين وجدت؟ من أوجدني؟ وكيف أعيش؟ وإلى أين مصيري؟ وما موقفي تجاه المبدأ والمصير؟

هذه الأسئلة التي تفرض نفسها على الإنسان، وواضح أنها ليست أسئلة هامشية يمكن للإنسان أن يقضي عنها، بل إنها أسئلة من صميم وجود الإنسان وترتبط تمام الارتباط بحياته.

وحياة الإنسان الاجتماعية تحتاج إلى نظام يشرف على علاقات أفراد المجتمع ويضع لكل واحد حدوده التي لا يتجاوزها وحقوقه التي يضمنها له، ويعين له موقعه في المجتمع، ونصيبه من ثروات الكون وموارد الطبيعة..

فالعقيدة والنظام ضرورتان إنسانيتان.. فلا يوجد إنسان فارغ من العقيدة والتي

---

(١) الأسرة: مجلة أسبوعية اجتماعية ثقافية ـ سلطنة عمان، العدد ١٢ بتاريخ ١ مارس ١٩٧٥م.

تعني الإجابة على الأسئلة السابقة. ولا يوجد مجتمع بلا نظام. وإنما المشكلة تكمن في مدى صحة تلك العقيدة وصلاحية ذلك النظام.

والآن: هل يستطيع الإنسان أن يوجد لنفسه عقيدة صادقة ونظاماً صالحاً؟

لسنا في حاجة لاستعراض الجواب الفلسفي والنظري فإن الواقع يقرر لنا عبر التاريخ عجز الإنسان بذاته عن الاهتداء.

وما هذه المشاكل التي يعج بها التاريخ البشري إلا تعبيراً عن تعثره في طريق حل مشكلة كبرى.

والسبب في ذلك واضح:

١. فهنالك الأهواء والشهوات التي تلعب دورها في تضليل الإنسان وإبعاده عن الوصول إلى الطريق المستقيم.

٢. وقصور معرفة الإنسان وعدم إحاطته الكاملة بالظروف التي تحيط به، بل وبنفسه فرغم التقدم العلمي الكبير الذي أحرزه الإنسان لا تزال مناطق كثيرة في نفسه بعد لما يكتشفها. وهذا عامل مهم في عجز الإنسان عن الوصول إلى حل ناجح لمشكلته.

٣. وهناك نزعة الاختلاف العريقة في الإنسان والتي لا تسمح باتفاق أفراده جميعاً على إجابة معينة، وإذا تعددت الإجابات كان من الطبيعي وقوع الصراع.

٤. والأهم من ذلك كله عدم وجود الضمانات الكافية لإلتزام الإنسان وتطبيقه للنظام، فما يشرعه الإنسان يخرقه الإنسان لأنه لا يشعر بأنه فرض عليه من أعلى حتى يحترمه متى ما تعارض مع مصالحه الخاصة وهذا هو تفسير المخالفات التي ترتكبها الدول الأعضاء في الأمم المتحدة لميثاقها.

وهكذا يبقى الإنسان في حاجة إلى العقيدة والنظام وعجز عن الاهتداء إليهما.

والله الذي خلق الإنسان ليعيش في أجواء رحمته وفضله ﴿**إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾، هل يمكن أن يترك الإنسان في حيرته يعيش الشقاءَ والعذاب؟

من أجل ذلك فقد رسمت السماء للإنسان طريق العقيدة المستقيم. وشرعت له الأنظمة الصالحة.. وجعلت له أنبياء ورسل يحملون مشاعل الهداية والحق ليضيئوا له الطريق ويتزعمون المسيرة.

وخط العقيدة كان خطاً ثابتاً لا يقبل التغيير في جميع الأجيال والعصور، فالإيمان بالله ورسله وباليوم الآخر مادة أساسية في جميع شرائع السماء ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾، ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾.

أما خط النظام فقد كان خطاً متطوراً يساير الإنسان في مراحل نموه وتطوره الفكري والاجتماعي، فكلما تجاوز الإنسان مرحلة إلى أخرى، واستوجب ذلك تبديلاً في النظام أنزل الله شريعة أخرى تتلاءم والمرحلة الثانية.. وقد تحدث القرآن الحكيم في أكثر من آية عن بعض التغيرات التي حدثت في الشرائع السماوية ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾، وعن لسان نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿**وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾، وعن الرسول الأعظم نبي الإسلام: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾.

حتى جاء دور الإسلام فكان خاتمة الشرائع والصيغة الأخيرة للنظام السماوي، فقد شرعه الله بشكل مرن بحيث يتلاءم مع حياة الإنسان في جميع العصور المقبلة مهما تطورت حياة الإنسان وتغيرت أساليب عيشه و«محمد رسول الله وخاتم النبيين»، و«حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة».

لقد وضع الإسلام لتشريعاته قواعد عامة ومرنة يمكن أن تستخرج منها اللوائح القانونية في كل عصر ولكل شيء وتستطيع أن تفرض نفسها كأفضل حل لأي مشكلة.

ولحد الآن لم يطرح الإنسان مشكلة تلكأ الإسلام في حلها، ولم يحدث شيء

لم يكن للإسلام تجاهه موقف ولم يثبت الإنسان فشل الإسلام في علاج أي مشكلة، بل كلما تقدمت معرفة الإنسان وازدادت اكتشافاته ازداد ثقة بكفاءة الإسلام وأنه دين الحياة الأفضل ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

والآن: هل عرفنا لماذا الإسلام؟

إنه العقيدة الصحيحة والنظام الصالح.

إنه الخريطة السليمة لحياة الإنسان.. والطريق المستقيم إلى السعادة والسلام.

وأخيراً.. إنه الإجابة الكاملة والواقعية عن المشكلة الإنسانية الخطيرة: العقيدة والنظام.■

ذكريات يهملها بعض ويبكيها أخرون[1]

حسن موسى الصفار

تجاه الذكريات والمناسبات التاريخية الدينية التي تحملها لنا الأيام في كل سنة هنالك موقفان بارزان في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة:

الموقف الأول: هو الإعراض وعدم الاعتناء أو حتى الالتفات إلى تلك المناسبات، ورفض تضييع الوقت (...) في التغني بالتاريخ القديم، والعكوف على معالجة مشاكل اليوم ودراسة أحداث الساعة.

الموقف الثاني: هو الاحتفاء بتلك الذكريات احتفاءاً جامداً يقضي على حيويتها فيكتفى بالأناشيد وتوزيع الحلويات إن كانت الذكرى سارة، ويلجأ إلى البكاء واستجداء الدموع إن كانت الذكرى مؤلمة.

وفي الواقع: إن كلا من الاتجاهين خاطئ.. فإن مجرد التغني بالماضي التليد والعيش على أمجاد الآباء والأجداد شيء تافه، وقديماً قيل:

ليس الفتى من يقول كان أبي إن الفتى من يقول ها أنا ذا

---

(١) عمان: جريدة يومية، سلطنة عمان، ٨/ ٣/ ١٩٧٥م.

ولكن من الخطأ أيضاً التنكر لتاريخنا المجيد والإعراض عن تراثنا الرائع مع أنه يزخر بالقيم الخالدة والمبادئ السامية التي نستطيع أن نستخرج منها وقوداً حضارياً ودفعاً تقدمياً نواصل به مسيرتنا لاسترداد المجد الضائع. فالأمة التي تنقطع عن جذورها التاريخية وتراثها الحضاري تفقد أصالتها ويشعر أبناؤها بنوع من التطفل على الحضارات والثقافات الأخرى.

وكذلك فإن الموقف الثاني يكون خاطئاً حيث أن الجمود على الاحتفال الشكلي والقشري يعطي مفعولاً سلبياً لهذه الذكريات إذ ينفر أبناء الأمة الطامحين من تراثهم وتقاليدهم.

وكما أن سبب الموقف الأول هو الهزيمة النفسية تجاه الحضارات الأخرى المتقدمة فأن سبب الموقف الثاني هو انخفاض درجة الوعي عند الأمة.

والمطلوب الآن هو موقف صائب يحفظ للأمة تاريخها المشرق ويمنح الجيل الجديد الثقة بحضارته ومبادئه، ويستفيد من تلك الذكريات في توجيه المجتمع إلى سبل الخير والقيم الإنسانية الرائدة.

وذلك باستخلاص الدروس والعبر واستنتاج المثل والقيم من تلك المناسبات ودعوة الجماهير إلى التطلع إليها والأخذ بها، فالذكريات هي التي ترسم للأمة تطلعاتها وأهدافها وتحفزها لتحقيق آمالها واسترداد عزتها.

فمثلاً حينما تمر علينا ذكرى معركة حاسمة في تاريخنا العريق، علينا أن نلفت الجماهير إلى موقع القوة في تلك المعركة ونشعرها بقيمة الجهاد والنضال ونحمسها للاحتفاظ بذلك النصر الذي ارتفع على أجسام آبائنا وسقي بدمائهم الطاهرة.

وإذا كانت المناسبة ذكرى شخصية إسلامية كبيرة فعلينا أن نبرز تلك الشخصية بمظهر قيادي وندعو الأمة إلى الاقتداء بها ومحاولة تقمص مبادئها وأخلاقها.

بهذا الأسلوب نستطيع أن نستفيد من مرحلتنا الحاضرة من الذكريات والمناسبات التي تمر علينا.

وهذه الأيام التي نعيشها ـ أيام شهر صفر ـ تحمل إلينا العديد من المناسبات والذكريات المهمة، والتي تتحمل أجهزة الإعلام ورجال الفكر مسؤولية إفادة الأمة منها.

ومن تلك المناسبات المهمة ذكرى وفاة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب وهو السبط الأول لرسول ﷺ والثمرة الأولى لبضعته الطاهرة فاطمة الزهراء ﷺ.

وما أحوج الأمة بل ما أحوج العالم إلى شخصية الإمام الحسن وإلى قيم وأخلاق كالتي حملها الإمام الحسن.

العالم الذي يستضيف ٥٠٠ مليون جائع عشرة ملايين منهم مرشحون للموت هذا العام، وعلى الحافة الأخرى تقوم كبرى الدول بحرق مئات الألوف من أطنان القمح لصيانة أسعاره...! هذا العالم ما أحوجه إلى الاقتداء بالإمام الحسن الذي يقول:«**أحسن الناس عيشاً من أشرك الناس في عيشه، وأشر الناس من لا يعيش في عيشه أحد**»، ويحدث عنه التاريخ أنه قاسم الفقراء والمساكين أمواله أكثر من مرة، فيعطيهم نصف ما يملك ويبقى النصف الآخر لنفسه حتى أنه كان يعطي نعلاً ويمسك أخرى ويعطي خفاً ويحتفظ بالآخر!

هذا العالم الذي يسوده المفهوم الخاطئ للحياة اللا هادفة فيعمل على أساس الدنيا للدنيا، ويرفض التنسيق بين الدين والدنيا، ما أحوجه إلى أن يعمل بحكمه عمل بها الإمام الحسن وهي: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وأعمل لأخرتك كأنك تموت غدا.

وأمتنا التي تتجاذبها الآراء، ويعوزها التفاهم ما عليها إلا أن تجرب قول الإمام الحسن: ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم.

ومجتمعنا الذي يعج بالمشاكل التي يسببها الغضب السريع والحماقة المرتجلة عليه أن يتعرف على سلوك الإمام الحسن وأخلاقه: فقد استوقفه رجل، كان يحمل عنه فكرة سيئة وأخذ يسبه ويشتمه بعنف وأراد أحد أصحاب الإمام الحسن أن يؤدبه فمنعه

الإمام والتفت إلى الرجل المعتدي بكلمة رفق: أظنك غريباً فإن كنت فقيراً أغنيناك وإن كنت جائعاً أشبعناك وإن كنت صاحب حاجة قضينا حاجتك! فما كان منه إلا أن اعتذر ومضى يقول: لم يكن في السابق أحد أبغض إليّ من الحسن وأصبحت ولا أحد أحب إليّ منه.

فهل سنكون في مستوى الاستفادة من هذه الذكرى العظيمة، أم سيهملها بعض ليبكيها آخرون.■

ماذا في الإسلام؟[1]

حسن موسى الصفار

إن مجرد كون الإسلام ديناً سماوياً وشريعة إلهية، أمر يكفي لأن يخضع له الإنسان، ويلتزم به. وحتى مع غض النظر عن هذه الناحية ويعني ذلك أن نعتبر الإسلام والمبادئ والنظم الوضعية الأخرى على صعيد واحد، فإن النظرة الموضوعية والمقارنة الصادقة كفيلة بأن تثبت لنا جدارة الإسلام لقيادة الحياة، وأفضليته لإسعاد المجتمع البشري.

فهناك العديد من الخصائص والمميزات التي تتوفر في الإسلام، وتفقدها النظم الأخرى.. وسنحاول الحديث عن بعض هذه الخصائص:

١ . **الواقعية**: فالإسلام دين واقعي يتعامل مع الواقع والحقائق، وليس فيه مجال للخرافات والأساطير والفروضات المثالية التي يأباها الواقع.. فصكوك الغفران، ونظرية الفداء، وإنكار غريزة الملكية الفردية وأمثالها مرفوضة من قبل الإسلام.. ونظمه وأحكامه شرعت مع مراعاة كون الإنسان إنساناً يحمل غرائز وشهوات وميول، ويملك رصيداً من العقل والروح.. ومن الطبيعي أن يكون الإسلام منسجماً مع القوانين

(١) الأسرة: مجلة أسبوعية اجتماعية ثقافية ـ سلطنة عمان، العدد ١٣ بتاريخ١٧ مارس ١٩٧٥م.

الطبيعية وملائماً للفطرة الإنسانية فمشرعه هو خالق الكون ومنشئ الواقع.

٢. **الإنسانية**: الإسلام يحترم الإنسان بما هو إنسان وبغض النظر عن العوارض الأخرى، فيعتبره سيد الكون، ويفضله على أكثر المخلوقات ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾. ويلفته إلى استثمار الطبيعة فالكون سخر لخدمته وإسعاده ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ**﴾، والاعتداء على أي فرد من أفراده بغير حق يعتبره الإسلام اعتداء على الكرامة الإنسانية ككل ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾، والفوارق اللونية أو القومية أو الاقتصادية لا أثر لها عند الإسلام في تقييم الإنسان، أو تفضيل بعض أفراده على بعض «كلكم لآدم وآدم من تراب، فلا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى».

والإسلام يعترف للإنسان بحريته الدينية فلا يجبر على اعتناق الدين، إذا ما اختار لنفسه طريق الضلال ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾، والمطلوب منه فقط ألا يكون عقبة في طريق هداية الآخرين وإصلاحهم، ويبقى له احترامه ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**﴾، بل ويسمح له الإسلام بممارسة شعائره الدينية كما كان المسيحيون في ظل الدولة الإسلامية.

وقد ضرب قادة الإسلام أروع الأمثلة في حسن المعاملة مع الآخرين بغض النظر عن مخالفتهم الدينية، فمرة كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مسافراً من الحجاز إلى الكوفة وفي الطريق اصطحبه يهودي كان يقصد البصرة، واستمرا يتحادثان حتى وصلا مفترق الطريق بين الكوفة والبصرة، وبدلاً من أن يسلك الإمام طريق الكوفة سلك مع اليهودي طريق البصرة ولعدة خطوات، ولما سأل اليهودي من الإمام: هل تغير قصدك أم غفلت عن الطريق؟ أجاب الإمام: إن لك عليّ حق الصحبة في الطريق، فأنا مشيت هذه الخطوات معك لتشييعك.. وتعجب اليهودي من هذا الخلق الكريم وتساءل ما إذا كان هذا تصرفاً شخصياً أو آداباً دينية؟ وحينما اكتشف أن الإسلام يربي أبناءه على هذه

الآداب مع الآخرين قال: إن ديناً يحث أتباعه على احترام حتى من يخالفهم في الدين لهو دين إنساني حري بأن يتبع وأسلم بالفعل.

وبإلقاء نظرة فاحصة على موقف الحضارات والنظم الأخرى من الإنسان نعرف مدى إنسانية الإسلام في مبادئه، هذه الحضارة المادية الرأسمالية في أقوى مظاهرها في الولايات المتحدة الأمريكية ما مدى احترامها للإنسانية؟ علينا ألا نغتر بالعبارات البراقة بل أن نتعرف على ما يجري هناك من معاملة وحشية يعاملون بها الزنوج لا لشيء إلا لأنهم يختلفون معهم في اللون.

وهذه الحضارة المادية الماركسية تصرح على لسان أحد قادتها:«أن هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس شيئاً مهماً إنما الشيء المهم هو أن يصبح الربع الباقي شيوعيين».

٣. الشمول: لقد نظر الإسلام إلى الإنسان كوحدة متكاملة لها عدة جوانب وواجهات، فشرع نظمه على أساس الانسجام والتنسيق بين جميع جوانب الإنسان المادية والروحية الفردية والاجتماعية وسلم من الخطأ الكبير الذي وقعت فيه جميع المبادئ والنظم الأخرى وهي النظرة التجزيئية للإنسان، حيث يوجهون اهتمامهم إلى ناحية واحدة ويضخمونها على حساب بقية جوانب الحياة، فيعيش الإنسان حياة متناقضة.

فليس الإسلام مجرد طقوس وعبادات روحية تعمل على عزل الإنسان عن الحياة.. ولا هو أنظمة مادية يهمها تنظيم الجانب المادي والاقتصادي فحسب.. بل إنه دين مادي ـ روحي، ينظر إلى الإنسان على أنه قبضة من تراب وومضة من روح، ويقول:«ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا من ترك آخرته لدنياه»، وأيضاً:﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾.■

لكي تكون محبوباً!![1]

بقلم فضيلة الشيخ حسن موسى الصفار

أن يحتل الإنسان القلوب ويمتلك المشاعر، فتلك أمنية كل عاقل في الحياة، وهي غاية سامية يطمح لها كل إنسان.

فكل فرد يريد أن يكون محبوباً عند الآخرين وخاصة الذين يتعامل معهم أو الأجواء التي يعيش فيها، فالزوجة تعتز بحب زوجها، والزوج يحرص على حب زوجته، والولد يهمه حب والديه كما أن الوالدين يسعيان لإحراز ود الولد وبره، وهكذا قل في التاجر مع عملائه والحاكم مع رعيته.

ولأن محبة الآخرين شيء مهم عند الإنسان فقد يسبب ذلك تنافساً بين الأفراد، فكل واحد يريد الاستئثار بحب الطرف الآخر.. وهذا هو سبب الكراهية الطبيعية بين الضراة حيث تزاحم كل واحدة الأخرى على قلب الزوج.

وحتى الأبناء قد يتنافسون على احتلال أكبر مساحة ممكنة من قلب الأب وما قصة يوسف عليه السلام إلا نسيج هذه المنافسة فحينما يتحدث القرآن الحكيم عن الخلفية

---

(١) الأسرة: مجلة أسبوعية اجتماعية ثقافية ـ سلطنة عمان، العدد ١٦ بتاريخ ٢١ مايو ١٩٧٥م.

التي كانت وراء اعتداء أخوة يوسف على أخيهم الطيب الجميل يقول:﴿**قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ**﴾.

ولكن كيف يستطيع الإنسان الدخول إلى قلب الآخرين، وإحراز مودتهم؟ وبعبارة أخرى: كيف تكون محبوباً عند الناس؟

هنالك عدة توصيات إذا التزم بها الإنسان تخلق لديه قوة مغناطيسية يستقطب بها القلوب وهي:

- حسن السيرة والسلوك.
- الالتزام بحقوق الآخرين.
- الخلق الجميل.
- النظافة والأناقة.
- محبة الناس.

وبشيء من التفصيل سنعرض لهذه النقاط على ضوء الإسلام:

حسن السيرة والسلوك

ويعني الالتزام بالقانون وعدم الانحراف عنه، فقد وضع الله تعالى للبشر قانوناً عادلاً هو الإسلام، وجعل له حدوداً يجب على الإنسان مراعاتها وعدم التعدي عليها، والملاحظ أن جميع المناطق التي حرمها الإسلام هي مصادر الفساد والشر للمجتمع، وارتياد الإنسان لهذه المناطق يعني عدم تمسكه النفسي بالنظام ومحاولة الإساءة للمجتمع، والفرد الذي يتمرد على النظام ويريد الإساءة للمجتمع جدير بأن ينفر منه الآخرون لا أن يحبوه.

ولنرى بعض توجيهات الإسلام حول حسن السلوك، يقول القرآن الكريم:﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ**

﴿الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾.

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ...﴾.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾.

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾.

وبهذا الأسلوب التوجيهي يربي الإسلام أبناءه على حسن السيرة والسلوك.

الالتزام بحقوق الآخرين

المجتمع يتكون من مجموع الأفراد، وكل فرد يلعب دوراً معيناً ويؤدي وظيفة خاصة في المجتمع، وهو بهذا يعطي المجتمع فيكون له حق الأخذ بالمقابل فالحياة قائمة على أساس الأخذ والعطاء، والعطاء يعني حقوق الآخرين على الفرد والأخذ يعني حقوق الفرد على الآخرين.

فالأب عليه أن يقوم بتربية الولد وإعداده إعداداً صالحاً هذا عطاؤه وهذا الحق الذي عليه تجاه المجتمع وفي المقابل على الولد أن يبر والده ويحسن إليه.

والحاكم واجبه العدل بين الرعية وتوفير الراحة والكرامة للمواطن كما على الشعب الطاعة والنصيحة. وقد وضع الإسلام للبشر خريطة شاملة سليمة تحدد حقوق كل فرد في البنية الاجتماعية حسب دوره وموقعه، وتجعل له حق المطالبة بها وتمنع التعدي عليها، وقد صنف أحد أئمة المسلمين الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام رسالة رائعة استعرض فيها الحقوق التي على كل فرد في المجتمع، فذكر فيها ما يزيد على خمسين حقاً.. بداية من حق الله الخالق ومروراً بحق الوالدين والأبناء والمدرس والجار إلى حق السائل والمخالف في الدين.. جدير بكل مسلم أن يرجع إليها ليعرف

موقعه وحدوده في المجتمع الإسلامي.

ومن الطبيعي أن لا يحبك الناس حينما تكون معتدياً على حقوقهم، فإذا أردت أن تكون محبوباً فالتزم بحقوق الناس.

الأخلاق الحسنة

يقوم الخلق الجميل بمفعول سحري في التأثير على الآخرين، وحتى العدو تستطيع الأخلاق تغيير موقفه من خصم إلى صديق يقول تعالى:﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾، وهذا هو سر تركيز الشَريعة الإسلامية علَى الأَخلاق فتجعلها مهمتها الأولَى، يقول الرسول الأعظم ﷺ:«**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ـ أقربكم إلى الله أحسنكم أخلاقا**».

وإذا رأيت محبوباً عند الناس أو ناجحاً في الحياة ففتش عن حسن أخلاقه، وهكذا تكون الأخلاق الطيبة هي السلاح القوي لمقابلة سلبيات الآخرين ونيل مودتهم.

النظافة والأناقة

أول ما يرى في الإنسان هو مظهره ومنظره فإنه يكون الانطباع الأول في نفوس الآخرين. وشيء آخر هو أن العاطفة تلعب دوراً كبيراً في توجيه قلب الإنسان ومحبته، والعاطفة ترتاح للجمال والأناقة وحسن المظهر فإذا أردت أن تجتذب القلوب فعليك بالنظافة وجمال المظهر.

وهنا يأتي الإسلام ليعطي للموضوع أبعاده اللازمة فيؤكد على الزوجة أن تستقبل زوجها بأفضل منظر وتستعمل أمامه ما تمتلك من قوى الإثارة والجمال حتى تحافظ على حرارة الحب في قلبه. ويضفي على النظافة صبغة الشرعية والدين فيقول «النظافة من الإيمان»، ويأمر بالتزين والأناقة:﴿**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾، ورأى رسول ﷺ رجلاً يعيش شعره حالة الفوضى فالتفت إلى أصحابه وقال:«**أليس لهذا الرجل ما يصلح به شعره؟**».

محبة الآخرين

هناك تعامل داخلي بين القلوب، واتصال لاسلكي ـ إن صح التعبير ـ بين الأرواح..

فالقلب ينجذب إلى القلب الذي يحبه وقديما قيل:«القلوب شواهد»، فإذا رأيت قلبك يحب شخصاً فذلك دليل على أنه يحبك.

فمن أجل أن يحبك الناس لابد أن تحب الناس «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به»، وحتى من يخالفك في الدين والمبدأ ليس المطلوب منك أن تبغضه أو تحقد عليه شخصياً بل يكفي أن تبغض فكره وسلوكه.

لقد كان الرسول الأعظم يقعده الألم تارة ويقوم أخرى في طريق الطائف من حجارة المشركين ولكنه في نفس الوقت كان قلبه يفيض عليهم رأفة وحناناً ويدعو الله قائلاً: اللهم أهد قومي إنهم لا يعلمون.

وفي هذا العصر الذي تسود فيه المادة وتتحكم فيه الأنانية وأصبح الإنسان يعيش غريباً حتى بين أهله وأقربائه ما أحوجنا إلى الرجوع إلى ديننا الإسلامي العظيم ليكنس من نفوسنا رواسب الكراهة والحقد ويزرع بذور المودة والحب.

فاطمة الزهراء بضعة الرسول[1]

بقلم: حسن موسى الصفار

اختلفت القبائل كل قبيلة تريد أن تحظى هي بشرف رفع الحجر الأسود وإعادته إلى موضعه واستدعى ذلك أن تظهر كل قبيلة ما لها من الفضل والفضائل على الآخرين وتلك هي أو خطوة في طريق الحرب: فإن الحرب أولها كلام.. وعاشت قريش جواً قلقاً يهدد بوقوع حرب طاحنة بين القبائل العربية.

وفي أكبر ناد نسائي في قريش كانت النساء يتداولن الحديث حول المشكلة بحذر، ويمنين من أعماق قلوبهن لو يبعد الغيب عن المجتمع شبح الحرب والقتال، ولكن أين ذلك المصلح الذي تجري على يده بركة السلام؟!

وبعد لحظات بدأ الخبر السعيد يتسرب ويشيع في نفوس النسوة الأمن والاطمئنان فقد انتهت المشكلة وتصالحت القبائل ووضع الحجر في محله بسلام!

وتطلعت النسوة بإكبار إلى رجل ذلك الموقف العظيم الذي استطاع أن يجنب المجتمع حرباً ضاربة، وكانت خديجة من أعظم المتلهفات لمعرفة ذلك المصلح الاجتماعي: فكيف انتهت الأزمة وعلى يد من؟؟

---

(١) عمان: جريدة يومية، سلطنة عمان، ٢٤ مايو ١٩٧٥م.

على يد ذلك الشاب المعروف بالصادق الأمين وهو محمد بن عبدالله يتيم أبي طالب! فقد اتفقت القبائل أن تحكم أول داخل عليها في البيت الحرام..

وشاءت الأقدار أن يدخل محمد وحينما حكموه سارع إلى بسط ردائه ووضع الحجر في وسطه وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء فتتساوون في الفضل والشرف. فأعجبوا برأيه وانحلت المشكلة!!

ولما سمعت خديجة كانت أشد إعجاباً لأنها تمتلك أرشيفاً رائعاً من الصور الأخلاقية التي رأتها من محمد حينما كان يسافر في تجارتها وفي تعامله مع الناس.

وهنا تأكدت خديجة أن محمداً هو الرجل المثالي الذي يستحق أن تضع ثروتها وشخصيتها تحت تصرفه فقررت الزواج منه رغم الرأي العام كان يستغرب ويستهجن هذا الاختيار فقد رفضت خديجة الزواج من شخصيات قريش وأثريائها وهي اليوم تريد الزواج من يتيم وفقير!!

ولأنها كانت امرأة واعية فقد حكمت عقلها في اختيار شريك الحياة. فالزوج ليس صديق يوم أو رفيق طريق ولكنه شريك للحياة ورفيق العمر. فيجب أن لا يخضع اختياره للعاطفة المتقلبة أو المادة الزائلة.. وهذه القضية هي إحدى مشاكل العصر الاجتماعية حيث يتم الزواج على أساس علاقات الحب قبل الزواج وبرقيات المغازلة بين الفتاة والشاب، ومن دون أن يدرس كل منهما الآخر! وبعد الزواج حينما ينكشف كل منهما لصاحبه تقع المشاكل..

وصممت خديجة على تحقيق أمنيتها رغم الاحتجاج الاجتماعي وتزوجت من محمد فكان زواجاً مباركاً وحياة سعيدة.

ولكن محمداً ﷺ ليس كبقية الأزواج، لا يهمه من زوجته إلا الفراش والطعام بل كان يتحدث معها حول قضايا المجتمع ويستشيرها على الأوضاع السيئة التي يعاني منها العالم ويشعرها بضرورة التغيير والإصلاح لأوضاع المجتمع؛ ولكن كيف التغيير وبأي أسلوب وطريق؟؟ هنا يقف محمد مع زوجته خديجة ويتجهون إلى الله بالدعاء أن ينقذهم وينقذ المجتمع من هذا الانحراف والكفر والشقاء.

وكان يوم غار حراء حيث بدأ الاتصال بين محمد وبين السماء عن طريق الوحي الذي أمره بالدعوة إلى الله ورسم له الطريق... وعاد إلى داره ليخبر زوجته الطاهرة خديجة بأن الله قد هداه إلى طريق الإصلاح والتغيير وكان من الطبيعي أن تستقبل خديجة الخبر بالاطمئنان والتصديق وجدد معها العهد على أن تواصل معه المسيرة من أجل إنقاذ العالم فاستجابت وأسلمت بكل إخلاص وإيمان.

وبدأ محمد ﷺ يشق طريق الدعوة وبدأت العقبات والأشواك تتكدس في طريقه بينما يقابلها بالصبر والثبات والصمود وهنا وضعت خديجة كل إمكانياتها في خدمة الدعوة الإسلامية فأموالها الكثيرة وشخصيتها العظيمة وعبيدها وجواريها كل ذلك حشدته في خدمة الدين.

وكلما ازدادت قوة المعارضة زاد صمود النبي وثبات خديجة.. في أوج الصراع وشدة المعارضة ولدت فاطمة الزهراء بضعة رسول الله وبنت خديجة وكان ذلك بتاريخ ٢٠- ٦ في السنة السابعة قبل الهجرة وبعد بعثة النبي ﷺ بخمس سنوات.

فاشترك عاملا الوراثة والتربية في إعداد هذه الوليدة الجديدة إعداداً فريداً من نوعه: ففي الجانب الوراثي تجد الزهراء في عظمة أبيها وإخلاص أمها دعماً كبيراً ودافعاً لتسلق قمة المجد والكمال. وفي الجانب التربوي كانت تربيتها عملياً: فما انشق سمعها إلا على صوت الدعوة وآلام الرسالة وما فتحت عينها إلا على مناظر الجهاد ومشاهد التضحية..

وكان مجيء الزهراء شيئاً ضرورياً للرسالة الجديدة لكي تخلق منها نموذجاً رسالياً يبرهن على قدرة الإسلام على التربية الصالحة والإعداد السعيد. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لتكون انفتاحاً رسالياً مباشراً على المجتمع النسائي.

فالمرأة لها قضاياها الخاصة ومشاكلها الداخلية التي يقف الحياء شبه مانع عن إبدائها للرجل إذن فلا بد أن تكون هناك مبلغات في صفوف النساء.. فكان الرسول ﷺ يعد بضعته فاطمة للقيام بهذا الدور العظيم.

ولأجل أن تقوم الزهراء بهذه المهمة خير قيام كان لا بد من أن يمهد لها الرسول

ويهيئ الأجواء لتقبل توجيهاتها وإرشاداتها في المجتمع فصار يشيد بفضلها، ويتحدث عن محبته لها وموقعها في قلبه.

وبالطبع فإن علاقات الرسول ومواقفه لا تخضع للعاطفة والقرابة بل تسمو عليها إلى المصلحة الرسالية فحينما يقول ﷺ:«**فاطمة بضعة مني يؤذيني ما أذاها**»ـ صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ـ.. ويقول ﷺ كما في الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص١٤ـ:«**رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي**»، «**فمن أحب ابنتي فاطمة فقد أحبني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني**».

هذان الحديثان وعشرات أمثالها أوردتها الصحاح وكتب الحديث لم يقلها الرسول محاباة لابنته فاطمة ولا لعاطفة الأبوة التي تربطه بها فقد قال في موضع آخر:«**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

ومعنى ذلك أنه لو كان في سلوك فاطمة أو أخلاقها شيء لا يرتضيه الله لما مدحها الرسول بهذا الشكل ومدحه إياها دليل على أن كل تصرفاتها وأعمالها لا تخرج عن رضا الله وأحكام الدين.

وعاشت الزهراء ﷺ في ظل أبيها رسول ﷺ تشاركه في آلامه وأماله وتصحبه في بعض معاركه وغزواته، وطالما كانت تقوم بدور الممرضة والمداوية لجرحى الحروب الإسلامية.

حتى اختار الله إليه نبيه العظيم فكانت من أعظم المصابين بوفاته، ولم تمكث بعده إلا أياماً لا تتجاوز السبعين حيث لم يتجاوز عمرها ثمانية عشر سنة. وكانت وفاتها بتاريخ ١٣-٦-١١هـ.

ولئن كان عمرها قصيراً فإن التراث الذي خلفته للأمة تراث كبير فسيرتها الوضاءة وسلوكها المثالي وخطبها الرائعة وكلماتها الحكيمة كلها كنوز ثرية نرجو أن تهتم بها الأمة الإسلامية اليوم، وهي التي أخذت تستورد شخصيات نسائية من الشرق والغرب وتحث بناتها على الاقتداء بهن غير مهتمة بالاختلاف الأيديولوجي.

وسلام عليك يا بضعة رسول الله يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعثين...■

الإسلام حياة بلا تناقضات[1]

أن يعيش الانسجام مع كل ما يتعامل معه في الحياة هي أمنية الإنسان الكبرى.

وأن يتجنب المشاكل والآلام التي يعاني منها الإنسان نتيجة تسرب شيء من التناقض إلى بعض مناطق حياته هو هدفه الكبير الذي يتطلع إليه عبر مسيرته الطويلة.

ولذا نستطيع أن نقول: أن مقياس أفضلية أي نظام للحياة هو قدرته على توفير أكبر قدر ممكن من الانسجام للإنسان وتجنيبه مشاكل التناقض.

ولكن مشكلة الإنسان لا تتحدد بمنطقة صغيرة في حياته إذ أنها تمتد على جبهات ثلاث: بينه وبين نفسه. وبينه وبين المجتمع ثم بينه وبين الطبيعة.

فالإنسان إنما هو مجموعة من الأهواء والشهوات الشريرة في مقابل مجموعة أخرى من الغرائز والرغبات الخيرة، تحاول كل مجموعة التوسع على حساب المجموعة الأخرى، وهنا يحدث الاصطدام ويقع التناقض وسعادة الإنسان تكمن في التوفيق بين شهواته وضروراته.

والإنسان يعيش ضمن مجتمع كل فرد فيه يهتم بتأمين مصلحته الخاصة مما

---

(١) الأسرة: مجلة أسبوعية اجتماعية ثقافية ـ سلطنة عمان، العدد ١٩ بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٧٥م.

يسبب التضارب بين المصالح.

والطبيعة التي تحتضن الإنسان يشعر الإنسان بضرورة الانسجام معها ولكن لا يملك الأساليب المفضلة للتعايش السلمي معها فيقع التناقض مع قوانينها مما يملأ حياة الإنسان بالاضطراب والقلق.

والسؤال: أين هو ذلك المبدأ الذي يعالج مشكلة الإنسان على جبهاتها الثلاث؟

لقد طرح الإسلام أفضل صيغة للتعامل والانسجام في الحياة، وأهمية هذه الصيغة تنبع من قوة مصدرها، فواضعها هو الله الذي أودع في الإنسان غرائزه ورغباته وأراد له العيش ضمن المجتمع وأودعه في رحاب هذا الكون.

فقانون الأحوال الشخصية في الإسلام إنما يعني: أفضل طريق للتنسيق بين غرائز الإنسان. وأنظمة الإسلام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مهمتها توفير الانسجام بين أفراد المجتمع، ولكن كيف يتعامل الإنسان مع الكون، وينسجم مع الطبيعة في نظر الإسلام؟

في البداية يؤكد الإسلام على أن الطبيعة لا تمتلك قدرة ذاتية على التصرف وإنما هي تخضع لإرادة الله وأمره إذن فلا داعي للشعور بالضعف أمامها فهي لا تستطيع أن تعمل شيئاً بنفسها، وهنا ينقذ الإنسان من قلق كبير كان يستشعره من الطبيعة في أعماق التاريخ يوم كان يعبد الشمس ويخضع للنهر وينهار أمام البرق والرعد.

وثانياً: لا داعي لتحدي الطبيعة أو الحقد عليها بل عليك أن تكيف نفسك مع قوانينها، ولماذا الغضب على الطبيعة وهي لا تتحمل مسؤولية تصرفاتها؟

وفي نفس الوقت يدفعك الإسلام إلى مدافعة بعض قوانين الطبيعة بالبعض الآخر من أجل تقديم الحياة فيقول: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**﴾.

وهذه القوانين الطبيعية لم يضعها الله ليقيد بها الإنسان أو ليضيق عليه نطاق تحركه بل جعلها لصالحه ومنفعته، وعليه أن يجهد نفسه للاستفادة من هذه القوانين

والعناصر الطبيعية: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ**﴾.

والشيء الأهم والذي يركز عليه القرآن هو الحث على محاولة الاستفادة من قوانين الكون ونظمه المتقنة وذلك باستنباط رؤى تفيد الحياة.

فالمؤمنون يتفكرون في مخلوقات الله لأخذ الدروس والعبر منها انطلاقاً من إيمانهم بأنها تسير وفق خطة حكيمة وهدف محدد ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾.

وبعنف يلوم الله أولئك المتقاعسين الذين لا يحاولون الاستفادة من نظام الكون ويقرر أن هذه القوانين إنما وضعها الله ليبصر بها الإنسان طريق الحياة السليمة ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىً لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ**﴾.

بشيء من التفكير يستطيع الإنسان الاستفادة من أي ظاهرة من ظواهر الكون:

فهذه القطرات العذبة التي تتحمل عناء المرور بعدة مراحل حتى إذا أصبحت تمتلك العذوبة الكافية والحيوية الكاملة أخذت تتساقط وبشكل رائع على صفحات الأرض من دون أن تفرق بين الواحات الخصبة والأراضي القاحلة، بل تشمل بعطفها جميع الأراضي...

وجدير بالإنسان أن يتلمذ على المطر في هذه الناحية فيكون طيباً مع جميع الناس ويبذل أخلاقه وإحسانه لكل الناس فلا يقتصر على من ينتظر منه المصلحة: «**أصنع الخير في أهله وفي غير أهله فإنه إن لم يكن من أهله فأنت من أهله**» ويقول ﷺ: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم**».

ولنفكر في هذا الالتزام الدقيق بالنظام من قبل الشمس والقمر مثلاً: فـ ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾، ألا

نتعلم منهما النظام والالتزام وعدم الفوضى والتلاعب بالوقت، ولعل لربط الصلاة بحالات الشمس علاقة بهذا الدرس.

ولنتعلم من الشجرة كيف تتحدى وتقاوم العدوان الخارجي مهما تكالبت عليها القوى وتكاثرت الفؤوس فإنها تبقى صامدة إلى آخر لحظة حيث يستعان عليها بالجرافات فتنقلع مرغمة.

ولنتعلم في بناء حضارتنا من البذرة حيث تنغلق على نفسها في باطن الأرض وتشرع في بناء نفسها بامتصاص عناصر الحياة ثم تمد جذورها في أعماق الأرض لتنطلق على سطح الأرض متماسكة قوية■

الزهراء قدوتك في كل عصر[1]

لم يهتم الإسلام بشيء كاهتمامه بالمرأة وما يتعلق بها من حقوق وشؤون وظروف. فقد احتلت المرأة مساحة واسعة من الفكر الإسلامي والنظم الدينية، ففي القرآن الكريم سورة من أكابر السور تعرف بسورة النساء، بالإضافة إلى ألوف من الأحاديث والنصوص تتحدث عن المرأة. ومع ذلك فإن المسلمين لم يهملوا شيئاً كإهمالهم الجانب النسائي من الإسلام. وكان من صالح الاستعمار وأعداء الإسلام أن تبقى قضايا المرأة نافذة واسعة مفتوحة على المجتمع الإسلامي يتسرب إليه منها كل فساد وانهيار.

نموذج تطبيقي

الإسلام لم يقدم للمرأة فكراً جامداً ونظريات مثالية فقط، بل عمل على تقديم نماذج عملية تطبيقية لرؤاه ومنهجه، لتعرف المرأة من خلال تلك النماذج كيف يريدها الإسلام؟ وفي طليعة تلك النماذج تأتي بضعة الرسول ﷺ فاطمة

(١) منشور بقلم سماحة الشيخ حسن الصفار بمناسبة ذكرى وفاة السيدة فاطمة الزهراء ﷺ بتاريخ ١٣/ ٥/ ١٣٩٥هـ، طبعه ونشره الصندوق الخيري الإسلامي في مسقط ـ سلطنة عمان.

الزهراء ﷺ تلك السيدة المثالية والمناضلة التي شقت الطريق أمام المرأة لتشارك في بناء مجتمعها وإسعاد أمتها.

وحيث أن الإسلام دين خالد لكل جيل وزمان فإن نماذجه كذلك تصلح قدوة لكل عصر.

كيف كانت الزهراء؟

لقد قامت الزهراء بدور تثقيفي كبير في المجتمع، فكان بيتها مدرسة تقصده النساء والفتيات فتقوم بتوجيههن وتوعيتهن.

كانت تصحب الجيش الإسلامي في معاركه العنيفة فتسقي العطاشى من المجاهدين وتضمد الجرحى، كما تحدث عنها التاريخ في غزوة أحد.

كانت تعطف على ضعفاء المجتمع وفقرائهم حتى لتؤثرهم بغذائها وغذاء عيالها فقد واصلوا الصوم عن الطعام ثلاثة أيام حيث يأتيهم في كل مساء محتاج تقدم له طعامهم، وبهذه المناسبة نزل قوله تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا﴾.

وبعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ وحينما بدأ الخلاف يدب بين المسلمين حول من يتولى منصب الخلافة والحكم خرجت الزهراء تدعو المسلمين إلى الالتزام بمبادئ دينهم، وانتهاج سياسته الحكيمة، وإتباع قيادته العادلة.

وهنا تنفضح أمامك ـ أيتها الفتاة المسلمة ـ تلك الدعايات المغرضة التي تتهم الدين بعزل المرأة وحبسها بين جدران البيت، بعيداً عن قضايا ومشاكل المجتمع. فهذه امرأة الإسلام العظيمة فاطمة الزهراء تشارك المسلمين في معاركهم وسياستهم وتقوم بدور فعال في نشر الثقافة والوعي.

نعم للعلم والعمل لا للسفور والانحراف

الإسلام الذي يقول: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»، ويقول: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾. هذا الإسلام هل يحرم على المرأة العلم ويمنعها عن العمل؟

كلا فقد حث الإسلام المرأة على العلم وجعله فريضة عليها كالرجال وأباح لها العمل، ولكنه يريد العلم والعمل بلا مضاعفات ولذا يمنع السفور والاختلاط حفاظاً على كرامة المرأة وسلامة المجتمع.

وفي الأخير ندعوك ـ أيتها الفتاة المسلمة ـ إلى استعمال العقل والوعي وعدم الهرولة خلف العواطف والأهواء، فالسفور والاختلاط وإن كان يوافق عاطفتك ويتجاوب مع أهواء الشباب إلا أنه يعمل على نسف كرامتك وإفساد المجتمع، وفي التجربة الغربية خير برهان. فانظري كيف يعاني الغرب من انهيار أخلاقي وأمراض فتاكة وجرائم منتشرة.

فإلى الإسلام أيتها الفتاة الواعية حيث العفة والسعادة والكرامة.■

١٣/ ٥/ ١٣٩٥هـ
الصندوق الخيري الإسلامي
ص. ب ٥١١ مسقط ـ سلطنة عمان

شهيد العدالة[1]

في الوقت الذي نعزي فيه الأمة الإسلامية بهذه الذكرى الأليمة: ذكرى استشهاد بطل الإسلام الخالد، صوت العدالة الإنسانية الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يهمنا أن نستعرض بعض جوانب حياته المشرقة.

حياة النضال

تنقسم حياة أمير المؤمنين النضالية إلى أربع مراحل:

المرحلة الأولى: في مكة المكرمة وفي بداية الدعوة الإسلامية حيث تجمعت قوى الشرك والجاهلية للقضاء على الإسلام في مهده فكان الإمام أول المستجيبين للدعوة والمؤمنين بها والمدافعين عنها، وموقفه من قصة الإنذار ومرافقته الرسول لكف الصبيان والأطفال عن إيذائه النموذج لهذه المرحلة.

المرحلة الثانية: مرحلة الكفاح المسلح فحينما بدأ الرسول ببناء دولة الإسلام في المدينة المنورة حاولت القوى المناوئة من مشركين ويهود مقاومة الإسلام بالعنف

(١) منشور بقلم سماحة الشيخ حسن الصفار بمناسبة ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام بتاريخ ٢١/ ٩/ ١٣٩٥هـ، طبعه ونشره الصندوق الخيري الإسلامي في مسقط ـ سلطنة عمان.

فكانت المعارك الفاصلة والحروب الحاسمة كبدر وأحد وخيبر والخندق وفي جميع الغزوات كان نصع الإسلام يمر من تحت سيف علي وعبر بطولته وشجاعته.

المرحلة الثالثة: وبعد وفاة الرسول ﷺ حيث صرفت الخلافة عن الإمام على رغم تأكيد الرسول ﷺ على إمامته، كان الإمام يوجه الخلفاء ويحل المشاكل والقضايا التي تستعصى عليهم حتى قال أحدهم: لا أبقاني الله لمعضلة ليس فيها أبو الحسن ـ لولا علي لهلك عمر. وفي نفس الوقت كان يقوم بتربية أفراد قياديين يتحملون مسؤولية الإصلاح في المستقبل كمالك الأشتر وهاشم المرقال ومحمد بن أبي بكر.

المرحلة الرابعة: وبحماس كبير أصرت جماهير الأمة الإسلامية على مبايعة الإمام بالخلافة سنة ٣٥هـ وفي أول لحظة من ممارسة الحكم عمل على تصحيح الانحرافات وكنس الجور والظلم الذي وقع في حياة الأمة في العهد السابق فعزل الولاة السابقين واسترجع الأموال والاقطاعات المنهوبة من بيت المال، واتخذ مواقف وإجراءات حاسمة لتطبيق عدالة الإسلام وللضرب على أيدي الظالمين والمستغلين.. وهنا ثار أهل المصالح والأطماع في وجهه فقابلهم بالصمود واشتبك معهم في أكثر من معركة واستمروا في محاولتهم للقضاء على شخصيته العظيمة حتى ليتسنى لهم التحكم في الأمة واللعب بقدراتها حتى استشهد سلام الله عليه نتيجة مؤامرة دبرت في مسجد الكوفة وأثناء صلاته وهو صائم.

توجيهات الإمام عليه السلام

وترك لنا أمير المؤمنين تراثاً توجيهياً ضخماً يعالج مختلف قضايا الحياة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ومن أشهر آثار الإمام نهج البلاغة والذي يحتوي على جانب كبير من خطبه وتعاليمه وجدير بكل مسلم أن يدرسه ويحاول تطبيق مبادئه.

وفي آخر وصية يوجهها هذا الإمام العظيم للأمة الإسلامية عبر ولديه الحسنين يركز فيها على أهم الأمور في الحياة الاجتماعية، يقول عليه السلام:

-أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم فإني سمعت جدكما يقول: صلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصيام.

-كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

-الله الله في الأيتام، فلا تُغبّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم.

-الله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم.

-الله الله في القرآن لا يسبقكم إلى العمل به غيركم.

-الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله.

-عليكم بالتواصل والتبادل وإياكم والتدابر والتقاطع.

واجبنا تجاه الإمام

وأخيراً ما هو واجبنا تجاه الإمام؟

هل يكفي أن نحب الإمام ونقرأ فضائله ونبكيه؟

حتى الذين لا يؤمنون بالإسلام يحبون الإمام، وحتى المسيحيون كتبوا عن فضائله وحتى معاوية بكى على وفاته.

أما نحن كشيعة للإمام فواجبنا أكبر من ذلك فعلينا أن:

-نلتزم بالمبادئ التي عاش لها الإمام واستشهد من أجلها. أن نطبق تعاليم الإمام ونعمل ونجاهد من أجل تطبيقها على الآخرين وتجسيدها في حياة الأمة..

-أن ننشر أفكار الإمام ونعرفه للآخرين فالإمام ليس لنا فقط، بل هو لكل العالم ولكن علينا مسؤولية تعريفه للعالم عن طريق الإعلام الحديث والنشر المكثف..

وفقنا الله جميعاً للاقتداء بالإمام وتطبيق مناهجه.

والسلام عليه يوم ولد في أحضان الكعبة ويوم استشهد في بيت الله ويوم يبعث حيّا.■

٢١/ ٩/ ١٣٩٥هـ
الصندوق الخيري الإسلامي
ص. ب ٥١١ مسقط ـ سلطنة عمان

عاشوراء وقضايا الأمة[1]

الشيخ حسن موسى الصفار

ألا تكفينا مشاكل الواقع المعاش حتى نتشاغل بمشاكل التاريخ الغابر؟ وهل أبقت مآسي اليوم في أنفسنا فراغاً كي نملأه بمآسي ومصائب الأمس؟

إننا نعيش الآن في القرن العشرين تحيط بنا المشاكل والأزمات من كل جانب، فلماذا نتهرب من مشاكلنا الحاضرة ونسافر إلى مشاكل القرن السادس حيث معركة الحسين ضد يزيد؟

ها هو الشعب الفلسطيني لا يزال يعاني من التشرد والحرمان، والشعب الإريتري ألم يطرق سمعك أخبار واقعه؟ إنه يعيش الفقر والبؤس والدمار، وفي الفلبين أتدري ماذا يعاني المسلمون؟ إنهم يعيشون الإرهاب والكبت ومصادرة الحقوق، ويستصرخون ويستغيثون، فلا من مصرخ ولا من مغيث.

فبالله عليك، هل يجوز لنا أن نعطي لهذه المشاكل إجازة طويلة، لمدة شهر

---

(١) نشرة الوعي الإسلامية، تصدرها مكتبة الرسول الأعظم ﷺ العامة، العدد الأول، غرة محرم الحرام سنة ١٣٩٨هـ، سلطنة عمان، مطرح.

المحرم حتى نتفرغ لمعالجة مشاكل سنة ٦٠ هجرية، وأحداث عاشوراء؟؟!!

إلى هنا أنهى صاحبي كلامه، الذي لم أفاجأ به، فعلامات الاستفهام الواردة فيه يكررها أكثر الشباب عند ذكرى عاشوراء.

وبدأت أجيب صاحبي قائلاً:

صديقي العزيز.. كل كلامك عن قضايا الأمة ومشاكلها صحيح وجميل.. ولكي أوضح لك الحقيقة، أرجو أن تجيبني على السؤال التالي:

ماذا تحتاج الأمة لمواجهة هذه القضايا والمشاكل؟

قال:

تحتاج إلى الوعي والصمود والتضحية لتستمر في نضالها ضد الواقع التعيس..

إذن يا عزيزي.. الحديث عن عاشوراء، والاحتفال بواقعة كربلاء، ليس الهدف منه الخوض في مشاكل التاريخ الماضي، وإنما لكي نستوحي منها ما تحتاج إليه الأمة في واقعها الراهن..

اندهش صديقي وقال:

وكيف ذلك؟

قلت:

لا شك أنك تعلم أن قطاعاً كبيراً يمثل أكثرية الأمة يعيش اللامبالاة بواقع أمته.. ويهتم فقط بمستقبله الشخصي، وحينما يكون الحديث عن عاشوراء وأبطالها الذين ارتفعوا بنفوسهم إلى مستوى المسؤولية ولم يبالوا بحياتهم الشخصية، هذا الحديث لا شك يؤثر في نفس الإنسان ويشعره بدوره ومسؤوليته في إنقاذ أمته وإصلاحها.. ففي عاشوراء كان للشيوخ دور.. وللكهول دور.. وللشباب دور.. والأطفال دور.. وللنساء دور.. كل ذلك من أجل مكافحة واقع تعيس كانت تعيشه الأمة، أليس استعراض هذه الأدوار أمام جماهير الأمة يلهب حماسها ويثير فيها روح المسؤولية والاهتمام؟

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى.. في عاشوراء تتجسد كل قيم الصمود

والتضحية بأجلى صورها وأروع مظاهرها، وأرجوك يا عزيزي أن تسمح لي بأن أنقل لك صورة واحدة من ساحة كربلاء:

كان يعاني من العطش، فقد مرت عليه فترة طويلة لم يذق الماء لأن الجيش الأموي منع أصحاب الحسين من ورود المشرعة، وحينما أمره أخوه الحسين القائد أن يأتي بقربة من الماء إلى الأطفال والنساء، خرج مع فرقة صغيرة من أصحابه.. واستطاع أن يتسلل إلى ضفاف المشرعة، فلما شعر ببرودة الماء، وتحت ضغط العطش، مد يده وملأها ليشرب، وفي اللحظة التي اقترب فيها الماء من شفتيه، انتبه إلى أنه إنما جاء ليأخذ الماء إلى الحسين وعياله وأصحابه، لا ليشرب هو أولاً قبل أولئك!! وبكل شجاعة رمى الماء من يده وصار يملأ القربة وينشد شعراً يكرس به في نفسه قيمة التضحية والإيثار:

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكوني
هذا حسين وارد المنون وتشربين بارد المعين
والله ما هذا فعال ديني ولا فعال صادق اليقين

وملأ القربة وحملها على عاتقه وغادر الماء كما ورده عطشاناً، وأقبل مسرعاً للخيام، ولكن الجيش الأموي اعترض طريقه، فقاومهم، فازدحموا عليه وأصابه أحدهم بالسيف على يمينه، وبسرعة تلقف سيفه بيده اليسرى واستمر في مناضلتهم وهو يقول:

والله إن قطعتموا يميني إني أحامي أبداً عن دين
وعن إمام صادق اليقينِ نجل النبي الطاهر الأمينِ

وبينما هو يحاول التخلص من الأعداء وإزالتهم عن طريقه، إذ أصابته ضربة قاسية على يده اليسرى، وبحركة سريعة احتضن قربة الماء ليركض بها إلى معسكر الحسين، ورغم جروحه وآلامه لم يفقد صموده وصلابته، فقد كان ينشد قائلاً:

فقد قطعوا ببغيهم يساري فأصلهم يا رب حر النار

إلى أن أصابته ضربة قاضية على أم رأسه، فهوى صريعاً على الأرض.. إنه العباس بن علي أخو الإمام الحسين.

بالله عليك، حينما تتكرر هذه المواقف النضالية الرائعة على مسامع الأمة ألا تبعث فيها روح التضحية والصمود والفداء؟

وشيء آخر اسمح لي بإضافته:

هو أن الحديث عن عاشوراء يستدعي الحديث عن أهداف ثورة الإمام الحسين ومنطلقاتها وقيمها ونتائجها، ولا يخفى ما لهذا الحديث من أثر في تنمية وعي الأمة وتوجيه أجيالها نحو المبادئ والقيم.

أليس كذلك يا صديقي العزيز؟

أجاب وعلامات الرضا والاقتناع ترتسم على ملامحه: نعم.■

مسؤولية التوعية والإصلاح[1]

بقلم الشيخ حسن موسى الصفار

لا تجتمع مع فرد من أفراد المجتمع إلا ويبدي لك استياءه ويؤكد لك عدم رضاه عن الوضع الديني والواقع الاجتماعي في الأمة. فدرجة الاهتمام بالدين منخفضة في النفوس، والالتزام العملي بمبادئ الإسلام وأحكامه يتقلص شيئاً فشيئاً من حياة الناس.

والفساد والانحراف أصبح ظاهرة طبيعية في المجتمع.

هذا من الناحية الدينية، وأما على الصعيد الاجتماعي فهناك اهتزاز في العلاقات الاجتماعية، وتفكك في صفوف المجتمع.

فالتعاون بين أبناء المجتمع شبه مفقود إلا إذا فرضته مصلحة مادية لازمة.

والتفاهم بين طبقات المجتمع ضئيل على كافة المستويات. ولذا ففي الوقت الذي تزخر فيه المجتمعات الأخرى بمختلف أنواع الجمعيات والمؤسسات التعاونية

---

(١) الوعي: شهرية ثقافية إسلامية عامة، تصدرها مكتبة الرسول الأعظم ﷺ العامة، العدد ٢، صفر سنة ١٣٩٨هـ، سلطنة عمان، مطرح.

وبعضها يكون من أجل قضايا قد نراها سخيفة وتافهة، فمثلاً هناك جمعيات للدفاع عن حقوق الحيوان، وجمعيات لهواة الطوابع، ومن أغرب الجمعيات ما قرأته أخيراً عن قيام جمعية في أوربا هدفها التأكد من موت الموتى!!

وتبرر الجمعية هدفها بأن بعض من يحكم عليهم بأنهم قد ماتوا هم في الحقيقة أحياء أصابتهم حالة إغماء أو سكتة قلبية يمكن أن يصحوا منها ولكن أهاليهم يسارعون إلى دفنهم، ولذا تشكلت جمعية إنسانية تقوم بالفحص على كل ميت قبل دفنه وتدعي إنها استطاعت إنقاذ عدد من الناس.

أما في ربوع مجتمعاتنا والتي تؤمن بقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾ فلا تتوفر حتى المؤسسات الاجتماعية الضرورية وكل شيء نتركه على عاتق الحكومة والمسؤولين.

وحتى إذا قامت بعض المؤسسات كالمكتبات والنوادي فإنها تظل تعاني من البطء والضعف لأن روح التعاون والتفاهم والشعور بالواجب هذه الروح شبه معدومة عند أكثرنا.

وهذه شكوى سمعتها من أكثر النوادي والجمعيات والمكتبات في مختلف مجتمعاتنا.

ولذلك فإن كل فرد منا يشعر بمرارة هذا الواقع وفساد هذا الوضع، ولكن هل يكفي مجرد الشعور بالاستياء؟ وهل يفيد مجرد إبداء التذمر والضجر؟

كلا.. فالاستياء والتذمر كان موجوداً منذ وقت طويل ولكنه لم يزرع إصلاحاً ولم يثمر تغييرا.

إن الواجب على كل فرد واعي يؤلمه الواقع أن يحاول القيام بدور ما في عملية توعية المجتمع وإصلاحه.. لا أن يكتفي بالتذمر وتكرار قول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

والآن كيف نبدأ العمل من أجل الإصلاح والتغيير؟

الخطوة الأولى

إن الخطوة الأولى هي إصلاح النفوس وتغيير قيمها ومفاهيمها، فواقع أي مجتمع إنما هو إفراز ونتيجة طبيعية للواقع النفسي وللمفاهيم والقيم التي تعشعش في نفوس أفراد ذلك المجتمع.

وتأكيداً لهذه الحقيقة يقول الله تعالى:﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم**﴾.

وحينما تلاحظ سلوك الناس وتستقرأ نفسياتهم فإنك ستجد أمامك العديد من المفاهيم والقيم الخاطئة التي تكبل النفوس وتوجه السلوك وجهة غير سليمة.

ولنستعرض الآن بعض النماذج والعينات من تلك المفاهيم حتى نستأصلها من نفوسنا ونشجع الآخرين على مقاومتها في نفوسهم:

التهرب من المسؤولية

أليس في مجتمعاتنا فئات مثقفة واعية؟ نعم لدينا في كل مجتمع نخبة من الواعين المثقفين، ولكن أين دور تلك النخبة التي يفترض فيها أن تقود المجتمع إلى طريق الخير والصلاح وتدفع عنه تيارات الفساد والانحراف.

إننا لا نكاد نحس لهذه الفئة وجوداً إلا في محيط الوظائف والأعمال الخاصة، أما في أوساط المجتمع أو في نشاطات التوعية والإرشاد فإنك لا ترى منهم إلا أفراد معدودين، لماذا هذه الظاهرة؟ وما هي خلفيتها؟

في الحقيقة إن غياب المثقفين عن المسرح الاجتماعي ظاهرة ملحوظة تكمن خلفها عدة مفاهيم سلبية، منها.. عدم توفر روح المسؤولية عند أفراد المجتمع، حيث يعتقد أكثر الناس أن مسؤوليته تنتهي عند حدود نفسه، فرغم أنه يشعر بسوء الأوضاع ويتألم لانتشار الفساد، لكنه لا يرى نفسه مسؤولاً عن ذلك.

فالمهم أن أكون أنا مؤمناً متديناً ولا عليّ بعد ذلك من سائر الناس آمنوا أو كفروا.

ويكفي أن أكون أنا واعياً مثقفاً وليس من مسؤوليتي بعد ذلك توعية الناس وتثقيفهم.

فالمسؤولية على عاتق الدولة أو علماء الدين أو شخصيات المجتمع.. وهكذا يوزع المسؤوليات على الآخرين بينما يأخذ هو دور المشاهد المتفرج من بعيد.

هذا الشعور الانهزامي والنفسية الأنانية هي مرض من أخطر أمراضنا الاجتماعية وقد عمل الإسلام على كنس هذا الشعور من النفوس حينما جعل كل فرد مسلم مسؤولاً عن واقع الأمة بل ووضع العالم يقول تعالى:﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾.

ويقول جل وعلا:﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ**﴾.

وقال نبينا الأعظم محمد ﷺ:«**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**».

ويعطي الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام للمسؤولية أبعادها الواسعة فيقول:«**واعلم إنك مسؤول عن بقاع الأرض وبهائمها**».

بعد هذا هل يصح لواعٍ أو مثقف أن يبرئ نفسه من المسؤولية أو يتهرب من حملها؟

بيد أن البعض يعترف لك بدوره في المسؤولية، ولكنه يعتذر بأشغاله وأعماله عن المشاركة في النشاطات الدينية والاجتماعية، وهو اعتذار مرفوض.. لماذا؟.. لأن تحمل مسؤولية التوعية والإصلاح ليس أمراً ثانوياً نؤجله لأوقات الفراغ والراحة وإنما هو واجب فرضه الإسلام تحت عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول القرآن الحكيم:﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

ومادام الأمر واجباً ضرورياً فيجب أن ننسق بينه وبين سائر الأعمال والأشغال والاهتمامات الدراسية والوظيفية والتجارية.

وثانياً أن من يعتذر عن المشاركة في النشاطات الدينية والاجتماعية بعدم توفر الوقت لا بد أنه يصرف جزء ما من أوقاته للترفيه واللعب والتمشية وتبادل الحديث مع

الأصدقاء فكيف يوفر الوقت لكل ذلك ويضيق وقته عن المساهمة في توعية المجتمع وإصلاحه؟

اليأس المخدر

وهناك مجموعة من الواعين تتشوق إلى العمل والإصلاح بيد أن عقبة نفسية كأداء تحجزهم عن التحرك والنشاط، وهي: اليأس المخدر، حيث يتصورون أن الانحراف والفساد تيار هادر لا يمكن مقاومته والوقوف أمامه، أو أن الناس لا يقبلون أي توعية أو توصية، وأن أي عمل ونشاط لا يؤثر في سلوك الناس ولا يغيرهم.

وهذا التصور خاطئ ١٠٠٪ ذلك لأن قوة تيار الباطل والفساد ناشئة من فراغ الساحة من النشاط الديني وبمقدار ما يكون هناك نشاط ديني يضعف تيار الفساد، ويعبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بقوله: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾.

ثانياً: أن كثيراً من الساقطين في أوحال الفساد والانحراف دفعهم إلى السقوط جهلهم وانخداعهم، وإذا ما توفرت لهم أجواء التوعية والإصلاح فإن الله سيمن على الكثير منهم بالهداية.

وأخيراً فإن الله تعالى يعتبر اليأس كفراً بسنن الحياة، وضلالاً عن الحقيقة والواقع حيث يقول جل وعلا: ﴿**وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾، ويقول تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**﴾.

التراجع أمام العقبات

هل حدث في التاريخ أن مجتمعاً قد تغير باتجاه الخير أو الشر صدفة ومن دون سابق إعداد وتخطيط؟

أو هل سمعت أن أمة قفزت إلى قمة الصلاح أو تهاوت في حضيض التخلف ببساطة في لحظات ومن دون عوامل وأسباب؟

إذاً فكيف تنتظر من مجتمعك أن يتحول فجأة إلى حياة الثقافة والالتزام بالدين دون جهود ونشاط.

إن بعض الواعين يتحمس للعمل والنشاط ولكن ما أن تواجهه عقبة اجتماعية، أو يثير أمامه المغرضون مشكلة حتى يتراجع ويتنازل وينزوي في بيته.

وكلمة أخيرة

إن كل فرد مسلم واع يجب أن يطالب نفسه بدور ما في توعية مجتمعه وحماية أمته عن الفساد والانحراف، وإرشاد الآخرين إلى الالتزام بالدين، وأن لا يسمح لليأس أن يتسرب إلى نفسه بل يظل صامداً أمام المشاكل والعقبات..

وفقنا الله جميعاً للالتزام بدينه والعمل من أجل رحمته ورضاه.■

وجه مشرق في تاريخ عُمان[1]

بقلم حسن موسى الصفار

حينما نتصفح أوراق التاريخ.. ونستقرأ صفحاته.. فستطالعنا سطور مجيدة وأخبار مشرقة عن ماضينا العريق.. يوم كنا نمتلك زمام القوة ونعيش عصر العلم والتقدم..

وطبعاً لا يصح لنا أن نغتر بذلك الماضي ونتغنى بأمجاده دون أن يكون لنا واقع مشرف نعتز به، يقول شاعرنا العربي القديم:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسبِ
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وإنما يصح لنا أن نتوقف عند تلك الأمجاد الخالدة لنستلهم منها روح التقدم

(١) الوعي: شهرية ثقافية إسلامية عامة، تصدرها مكتبة الرسول الأعظم ﷺ العامة، العدد ٤، ربيع الثاني ١٣٩٨هـ، سلطنة عمان، مطرح.

والطموح، ولنستشعر الأصالة والعراقة حتى لا نصاب بانهزام نفسي وتراجع داخلي أمام قوة الآخرين وتقدمهم.

نعم يحق لنا أن نطيل النظر في الصفحات المشرقة من تاريخنا لننمي في نفوسنا الحماس لإعادة كتابتها في سجل الحياة بمداد جديد.

ومن الصفحات المشرقة في تاريخ الشعب العُماني الأصيل شخصية الحاج أحمد بن نعمان، المتوفي عام ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٦م عن عمر يناهز الثمانين.

وهو الحاج أحمد بن نعمان بن محسن بن عبدالله الكعبي، والذي لعب دوراً بارزاً في خدمة عُمان، وفي تثبيت وجودها الدولي. وتتصدر صورته ـ حالياً ـ المتحف العُماني في القرم في مقابل صورة السلطان السيد سعيد بن سلطان ١٨٠٤-١٨٥٦م.

وينتمي الحاج أحمد بن نعمان إلى الجماعة المعروفين بالبحارنة في مسقط.

ومنذ نعومة أظافره أهتم بالثقافة والأدب الإنشاء والتعبير بالإضافة إلى كونه قبطاناً بحرياً من أمهر القباطنة مما لفت إليه أنظار السلطان السيد سعيد بن سلطان، والذي كان يحكم مسقط وتوابعها آنذاك، فاصطفاه لنفسه وصار يعتمد عليه في كتابة المراسلات الرسمية وفي الاتصالات الدبلوماسية.

شخصيته السياسية

وبكفاءته وإخلاصه لوطنه، منحه السلطان ثقته السامية، فجعله ممثله الشخصي ومستشاره الخاص، وحينما انتقل السلطان سعيد إلى زنجبار، اصطحبه معه إلى هناك حيث كان يعتمد عليه في البعثات الدبلوماسية إلى مختلف الدول، ويسجل له التاريخ باعتزاز، إنه المهندس البارع لأول علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الأمة العربية وعبر سلطنة عُمان. وقد بدأت المفاوضات لإرساء أسس العلاقات بين أمريكا وسلطنة عُمان عام ١٨٢٧م، ووقعت معاهدة التبادل التجاري في سبتمبر ١٩٣٣م. وكان الهدف من إقامة هذه العلاقات، أمرين:

أولاً: لتثبيت مكانة عُمان الدولية والسياسية في العالم، فقد كان حكم عُمان يمتد

حتى الشاطئ الأفريقي، ويشمل زنجبار وممباسا، وكان أسطولها يجوب البحار، فلا بد وأن تكون لها علاقات سياسية بحجم واقعها الجغرافي والعسكري.

ثانياً: للاستفادة التجارية، وذلك بالتبادل التجاري مع أمريكا الناشئة آنذاك فقد كان لدى عمان الكثير مما تحتاجه السوق الأمريكية ويستهوي الأمريكيين، ويحدثنا التاريخ إن السفينة العمانية الأولى التي وردت أمريكا، (سلطانة) كانت محملة بالبضائع التالية: (١٣٠٠ كيس من البلح، ٢١ ربطة سجاد عجمي تحتوي على ٦٤٧ قطعة من السجاد الفاخر، ١٠٠ كيس من بن مخا، ١٠٨ قطعة عاج، ٨١ صندوق من الصمغ العربي، كمية كبيرة من نباتات زنجبار، ٥٠ ربطة من الجلد المدلوج).

وكذلك فإن لدى أمريكا الكثير من البضائع التي تستطيع تسويقها في أسواق عُمان وزنجبار حتى لا تبقى حكراً على المنتوجات البريطانية والفرنسية، ولذا فقد نشطت التجارة الأمريكية مع مسقط بعد هذه المعاهدة، حتى أنه في الفترة من سبتمبر ١٨٣٢م إلى مايو ١٨٣٤م زارت زنجبار ٣٢ سفينة أمريكية.

ولعل هذا هو سبب نقمة الإنجليز على الحاج أحمد بن نعمان، فهو الذي فتح المجال للبضائع الأمريكية حتى تنافس منتوجاتهم في الأسواق العُمانية. وقد صنفته تقارير المخابرات البريطانية (كما يذكر ملحق مجلة الحوادث) بأنه زعيم للحزب الأمريكي في بلاط السلطان، وذكرت أن القنصل البريطاني هاميرتون قد كتب في فبراير ١٨٤٢م يقول:«أن الاتصال بين السيد سعيد بن سلطان والقنصل الأمريكي (واترز) والحزب الأمريكي في الجزيرة ـ زنجبار ـ يتم بواسطة كاتب الإمام الذي يدعى أحمد بن نعمان، وهو شخص زار أمريكا في سفينة الإمام ـ سلطانة ـ وهو يقود حملة لإثبات أن الأمريكيين متفوقون علينا ـ أي الإنجليز ـ في كل شيء».

أول دبلوماسي عربي في أمريكا

وتوطيداً للعلاقات الناشئة بين دولتي أمريكا وعُمان، قرر السلطان سعيد بن سلطان إيفاد مبعوث خاص لمقابلة المسؤولين الأمريكيين، ووقع اختياره على الحاج

أحمد بن نعمان للقيام بهذه المهمة وذلك لثقته به أولاً ولأنه هو المشجع لهذه العلاقات الجديدة مع أمريكا.

فكان بذلك أول دبلوماسي عربي يزور أمريكا رسمياً، وكانت زيارته ممتعة ومفيدة وهي التي خلدت لنا صورته، ففي أثناء تواجده هناك أخذت له صورة جميلة أودعت في المتحف الأمريكي، وهي الصورة المتداولة الآن والتي توجد في المتحف العُماني بالقرم.

ونقدم الآن للقراء مقتطفات من أخبار هذه الرحلة التاريخية المهمة، نشرتها مجلة الحوادث وبعض المجلات العُمانية:

في يوم الخميس ٣٠ أبريل ١٨٤٠م رست في مياه نيويورك السفينة (سلطانة) بعد رحلة قطعت فيها المحيط في ٨٧ يوماً..

والسفينة التي قامت بعبور المحيط في أول رحلة عربية من نوعها، كانت قد بنيت في القاعدة البحرية بمطرح وكانت من السفن العاملة في الأسطول العُماني التجاري بين مطرح وبومباي في الهند، وبين مطرح وزنجبار على الشاطئ الأفريقي.. وحمولة السفينة ٣٠٥ أطنان وطاقمها يتكون من ٥٦ بحاراً قوياً كلهم من المواطنين، وكان قبطان السفينة سيئاً، ما أن تركت السفينة جزيرة زنجبار، حتى غرق في الخمر، وظل طوال الرحلة كالجثة الهامدة، وقاد السفينة في رحلتها الضابط الأول ـ محمد عبدالله ـ البحار العربي الوسيم الذي أثار إعجاب النساء في نيويورك واحترام رجال الأسطولين التجاري والحربي في الميناء الأمريكي.

والضابط الثاني هو (محمد جمعة) الذي كشف بضخامته وسواد بشرته عن جمعه بين الدم العربي والأفريقي..

قاد الضابطان السفينة استناداً إلى ما قاله بعض البحارة الأمريكيين في سانت هيلانة، حيث ـ عرجت السفينة في طريقها إلى نيويورك هو الشمال الغربي.. وبأذن الله سارت السفينة ووصلت.. ووصلت السفينة إلى المياه الإقليمية.. وعندما صعد رجال الجمارك الأمريكيين كان رجلاً مهيباً ملتحياً يرتدي جلباباً أبيض وفوقه قفطان مطرز

بالذهب، يبدو على حركاته الاعتزاز بالكرامة والشعور بالتفوق، كما قالت صحيفة (مورنج هيرالد) في عددها الصادر ٢٠ آيار ١٨٤٠م. وكان هذا الرجل هو أحمد بن نعمان المبعوث الخاص للسيد سعيد بن سلطان حاكم مسقط وزنجبار وتوابعها وأنه جاء باسمه في بعثة لحسن العلاقات والتجارة.

وتقدم قارب أمريكي فأرشد السفينة العُمانية عبر مياه الميناء، وكان القارب من السفينة الأمريكية (نورث كارولينا) المزودة بـ ٧٤ مدفعاً ويقوده الكومودور (جيمس رينشو).

وقد أنجزت معاملات السفينة العُمانية في يومين ورست السفينة عند طرف (ريكتور ستريت) في مدخل (نورث ريفر) مسجلة بذلك أول بعثة عربية، وأول زيارة تقوم بها سفينة عربية لشاطئ الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد بدأ تزويد (سلطانة) بالبحارة في مسقط من أواخر ديسمبر (كانون أول) ١٨٣٩م، ثم استكملت حاجتها من (زنجبار) وبدأت رحلتها في أوائل فبراير (شباط) ١٨٤٠م فلم تتوقف إلا في سانت هيلانة.. حيث قدم (أحمد) لحاكمها هدية من السلطان، زجاجة من العطر العُماني.

واستغرقت رحلة (سلطانة) ٨٧ يوماً وهو زمن معقول في تلك الفترة.

وقد رحبت الصحف الأمريكية بالزيارة العُمانية، أما ملابس الوفد العربي وسلوكه وتدينه، فقد أثار انتباه الأمريكيين وإعجابهم حتى كانوا يقفون في جماعات يتفرجون عليهم، وحتى أصبحت أخبارهم تحتل صدر الصفحات العشر التي تصدر في نيويورك وقتها..

وطالبت (نيويورك أميركان) بتقديم كل التسهيلات الممكنة لأول بعثة سلطانية للولايات المتحدة الأمريكية.

وتتابعت حفلات التكريم، ووفود الزوار ووضع للبعثة برنامج حافل لزيارة معالم المدينة ومحطة القطار.

وحيثما وصل الوفد في تنقلاته، كانت تحييه المدفعية البحرية.

وكتبت (الهيرالد) تقول:«إن هؤلاء الرجال لا يمكن أن يندهشوا، فهم يتأملون ويسرون ويبتسمون، ولكن ما من شيء يبهرهم».

وخلال حفلات الاستقبال وبينما السفينة يجري إصلاحها وتفريغها وإعادة شحنها، عكف الضابط الثاني (محمد جمعة) على دراسة اللغة الإنجليزية.. وعندما أبحرت (سلطانة) كان يستطيع قراءة وكتابة الإنجليزية..

وقد حفظ التاريخ سجل يوميات السفينة الذي كان يحتفظ به (أحمد ابن نعمان).. وهناك نسخة منه في متحف ولاية ماسوشست الأمريكية.

وقدم الحاج أحمد بن نعمان هدية السلطان سعيد للرئيس الأمريكي، وهي عبارة عن حصانين من خيول نجد الشهيرة.. وعقدين من اللؤلؤ، وحبات من الماس زنة ١٨ قيراط، ووعاء من الذهب، وسجادة من الحرير العجمي، ووعاء يحتوي على روح الورد، ووعاء آخر به ماء الورد، و٦ شيلان كشمير، وسيف جميل مموه بالذهب.

كما تم تسليم رسالة من السلطان، للرئيس الأمريكي مؤرخة ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٣٩م، ورسالة أخرى لوزير الخارجية، وكلتا الرسالتين مكتوبة بالإنجليزية.

وفي ٧ أغسطس (آب) أقلعت السفينة (سلطانة) من مرساها في نيويورك متجهة إلى مسقط، وفي ١٦ ديسمبر قدم الحاج أحمد بن نعمان تقريره عن مهمته.

شخصيته الدينية والاجتماعية

رغم منصبه السياسي ومكانته الكبيرة في الدولة، إلا أنه كان متواضعاً مع الناس قاضياً لحوائجهم مهتماً بشؤونهم.

وكان ﷺ ملتزماً بدينه، محافظاً على شعائر مذهبه، وقد بنى له حسينية ضخمة وجعل منزله في الطابق الثاني وكان تأسيس الحسينية سنة ١٢٧٣هـ، حيث أصبحت له مجلساً يستقبل فيه الناس، ودار ضيافة للعلماء والخطباء.

وكان يتصدر المآتم أيام عاشوراء ومناسبات ذكريات الأئمة ﷺ، كما أشارت لذلك جريدة (الجازيت الرسمية) القسم العربي الصادرة في زنجبار، عدد رقم ١٦٢٤

بتاريخ ١٢ مارس ١٩٢٣م.

وحتى بيته في الطابق الثاني جعله وقفاً لمصالح الحسينية، جزاه الله خيراً وتغمده برحمته وحشره مع محمد وآله الطاهرين.■

تجاهل الآخر ظلم للذات والوطن

نشرت جريدة المدينة – السعودية مقالاً لسماحة الشيخ حسن موسى الصفار عنوانه: تجاهل الآخر ظلم للذات والوطن، جاء ذلك في ملحق الجريدة الخاص (الأربعاء) بتاريخ ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ (١١ أغسطس ٢٠٠٤م).

وفيما يلي نص المقال:

الجهل بالآخر والقراءة الخاطئة له هي نتاج خلل اجتماعي ثقافي.

فالمجتمع السويّ تعبّر فيه كل الأطراف عن نفسها، وتظهر آراءها ومواقفها بصراحة ووضوح، حين تتوفر الحرية للجميع، وتتساوى فرص التعبير عن الذات، فتتعرف الأطراف على بعضها بشكل مباشر دون وسائط وحواجز.

أما إذا سادت المجتمع أجواء غير عادلة، وعانت بعض أطرافه من التهميش والتمييز، فستجد نفسها مضطرة إلى الانكفاء والانطواء، مما يفسح المجال لتشويه صورتها من قبل الأطراف ذات المصلحة في تغييبها وتهميشها.

وعلى الصعيد الثقافي فإن الثقافة السويّة تدفع نحو الانفتاح على الآخر، والمعرفة الموضوعية له، والتفاعل معه أخذاً وعطاءً، واحترام خصوصياته.

بينما ترفض التوجهات الثقافية التعصبية الاعتراف بالآخر، وتحظر التواصل معه، والانفتاح عليه، وتعمم عنه صورة نمطية مشوهة.

ولأن معظم مجتمعاتنا تعاني من هذا الخلل الاجتماعي الثقافي فإنها تعيش أزمة في المعرفة المتبادلة بين الأجزاء المكونة لوجودها الاجتماعي والوطني.

فقد تجد من يضمهم وطن واحد، أو تجمعهم لغة واحدة، أو ينتمون إلى دين واحد، إذ يتنوعون في توجهاتهم ضمن الإطار المشترك، يعيشون حالة من التباعد والجهل ببعضهم بعضا، فترتسم عند كل طرف صورة غير صحيحة عن الطرف الآخر.

إن الجهل بالآخر والخطأ في قراءته يشكل ظلماً للذات والآخر، حيث يحرم الإنسان نفسه من معرفة الحقيقة ويضللها عن إدراك الواقع، مما يمنعه من التفاعل الإيجابي مع الآخرين.

كما أن ذلك ظلم للآخر بإساءة الظن فيه، وبخسه حقه، وقد يؤسس للحيف والعدوان عليه.

وعلى المستوى الاجتماعي والوطني فإن جهل أطراف المجتمع ببعضها، يؤدي إلى انعدام قدرتها على التعاون والانسجام، ويهدد وحدة المجتمع وتماسكه، ويفتح ثغرة في جدار أمن الوطن واستقراره.

إن التعرف على الآخر الداخلي لم يعد مجرد مسألة ثقافية فكرية، بل أصبح قضية اجتماعية وطنية، تتأثر بها وحدة المجتمع، وترتبط بالاستقرار والأمن الوطني.

لذلك تهتم المجتمعات المتقدمة بوضع برامج وسياسات لاستيعاب كل الشرائح والوجودات التي تشاركها العيش في رحاب كياناتها الوطنية، وإن كانت حديثة الانضمام والتشكل، كالجاليات الوافدة، والمهاجرين واللاجئين، وذلك بالاعتراف بخصوصياتهم، وإتاحة الفرصة لهم للتعبير عن ذاتهم، وتمكينهم من ممارسة حقوقهم المشروعة، ضمن إطار المواطنة، وقوانين اللجوء والإقامة.

ففي هذا العام فوجئ المستمعون للقناة الأولى في الإذاعة السويدية شبه الرسمية،

ضمن برنامج ديني مسيحي يومي، بصوت شابة مسلمة من أصل إريتري تتحدث عن الإسلام وعن شخصية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مهنئة العالم الإسلامي بالمولد النبوي الشريف، وكان رئيس وزراء السويد (يوران برشون) قد قام بزيارة للمسجد الكبير في العاصمة ستوكهولم واطلع من القيمين على المسجد على أوضاع المسلمين، وحرص على التركيز أمام الصحافة على أن (الدين الإسلامي هو ثاني دين في السويد ويجب أن نتعايش مع بعضنا بعضا) وهناك صحف يومية في السويد واسعة الانتشار تعمل لإبراز المضمون السلمي الحقيقي للدين الإسلامي.

وقبل سنوات أعلن مجلس إدارة المدارس العامة في أوكلاند بولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية اعترافه باللهجة العامية التي تستخدم في أحياء السود لغة قائمة بحد ذاتها.

وهي المرة الأولى في الولايات المتحدة التي يتم فيها رسمياً الاعتراف بلهجة عامية تتميز بشذوذ عن قواعد اللغة. ويشكل التلاميذ السود ٥٣ في المائة من الطلاب الـ ٥٢ ألفاً في المدارس العامة في أوكلاند. وتتميز (إنكليزية السود) المعروفة أيضاً باسم (أيبونيكس) باستخدام أفعال في طريقة خاطئة وازدواجية النفي في الجملة ذاتها.

وأوضحت كاري سيكريت المعلمة في مدرسة بريسكوت أوكلاند أنه قبل اتخاذ هذا القرار كان الأستاذ يطلب من التلميذ الذي يتكلم بلغة (أيبونيكس) أن يترجم ما يقوله إلى الإنكليزية العادية.

وأعرب بعض المعلمين عن معارضتهم لهذا الإجراء لأنه في نظرهم سيزيد من التمييز الذي يتعرض له التلاميذ السود. ويرى المعارضون أيضاً أن هذا القرار يشكل اعترافاً بفشل النظام التربوي غير القادر في رأيهم على تلقين اللغة الانكليزية إلى التلاميذ.

في المقابل اعتبر البعض أن هذا الإجراء سيؤدي إلى احترام هذه اللغة التي غالباً ما يسخر منها التلاميذ البيض)).(جريدة الحياة: السبت ١١ شعبان ١٤١٧هـ، العدد ١٢٣٥٣).

ويأتي ضمن هذا السياق ما كشفت عنه أخيراً سلطة الادعاء العام الملكية في بريطانيا بتاريخ ١ / ٨ / ٢٠٠٤م عن عزمها على إجراء دورات تدريبية عن الإسلام منتظمة للمحامين الذين يشغلون على قضايا لها جانب ديني، ورأت أن الهدف هو إعداد المحامين وموظفي السلطة نفسها أيضاً للتعامل بطريقة مناسبة مع المسلمين من أصحاب القضايا. وقالت إن الدورة تستغرق خمسة أيام يطلع خلالها المشارك من المحامين على المبادئ الأساسية للدين وأشكال ممارستها في بريطانيا. ونقل عن (شيمص تايلور) وهو متحدث باسم سلطة الإدعاء العام قوله: أن الدورة ستساعد المتدربين على اكتساب فهم أشد تفصيلا للدين الإسلامي، مما سيجعلهم قادرين على تفهم سياق العمل والقضايا التي يتعاطون معها بشكل أفضل. (الشرق الأوسط، جريدة يومية، لندن ٢ / ٨ / ٢٠٠٤م)

هكذا تهتم المجتمعات الأخرى باحتضان كل أجزائها وشرائحها حتى المستجدة منها، بينما تفشل بعض مجتمعاتنا في الوصول إلى مستوى التعايش والاحترام المتبادل بين أطرافها المتساوية في العراقة والانتماء الوطني، بسبب الاختلاف في بعض الخصائص والتوجهات.

إن مجتمعاتنا بحاجة إلى سياسة جديدة في نمط علاقاتها الداخلية، فإلغاء الآخر وتهميشه وانتقاص حقوقه مرفوض شرعاً وعقلاً، وما يطرح له من تبريرات وأدلة هي مجرد تفسيرات وآراء أنتجتها بيئة سياسية وثقافية غير سويّة لا تثبت أمام البحث والنقد العلمي، على ضوء محكمات القرآن الكريم وثوابت السنة النبوية، ومعالم الشريعة التي توجب العدل، وترفض الظلم، وتنهى عن بخس الحقوق، وتحمي حرية العقيدة وتدعو إلى التعارف والتعاون بين بني البشر.

كما أن واقع العالم اليوم، بمؤسساته الدولية، وشعاراته حول حقوق الإنسان، وسياسات العولمة والانفتاح، لا مكان فيه لهذه التوجهات الإقصائية التعصبية.

وأوطاننا التي تواجه أقسى التحديات تحتاج إلى تلاحم أبنائها وتماسك شعوبها بتنوعاتهم المختلفة.

وأول خطوة على هذا الطريق تكريس نهج الانفتاح والتعارف داخل المجتمع،

بأن يقرأ كل طرف سائر الأطراف بموضوعية وإنصاف. وأن يتاح لكل طرف أن يعبر عن ذاته وتوجهاته.

ويجب أن تسهم مناهج التعليم ووسائل الإعلام وجهات التثقيف في إنجاز هذه الخطوة التي تأخرت كثيراً، حتى لا نورّث لأبنائنا وأجيالنا القادمة مآسي تخلفنا، وتركة صراعاتنا وخلافاتنا.■

الشيخ الصفار: نعم ننقد تاريخنا.. ولكن لا ننقد ديننا

نشرت جريدة الشرق الأوسط مناقشةً لسماحة الشيخ حسن موسى الصفار مع الأستاذ حامد الرفاعي، حول مقالته (العالم الإسلامي والديمقراطية .. ومن قال إنها قصة لا تنتهي) تعقيبا على مقالة الشيخ الصفار (العالم الإسلامي والديمقراطية ..قصة لا تنتهي). جاء ذلك في العدد ٩٣٩٧ الجمعة ٤ رجب ١٤٢٥هـ (٢٠ أغسطس ٢٠٠٤م). ويخلص الشيخ الصفار في مناقشته بقوله: إننا بحاجة إلى شجاعة أدبية وجرأة موضوعية لتشخيص مواقع الخطأ، كما نشيد بمواقع القوة ونفخر بها في تاريخنا المجيد. ولا يعني ذلك أن نستغرق في مشاكل التاريخ الماضي، ولا أن ننشغل بالخلاف حول أحداثها، ولا أن نمعن في جلد الذات، ولكن تقديس الذات وتبرئتها وتمجيد كل ما سلف وسبق هو حالة سلبية خاطئة.

وهذا نص ما نشرته الجريدة:

التحسس من نقد الذات، حالة مرضية سلبية، تنتج عن غرور زائف، أو شعور بالضعف يجري التستر عليه، وتؤدي هذه الحالة إلى تكريس الأخطاء والثغرات، وتفويت فرص معالجتها وتجاوزها.

وقد حذر القرآن الكريم من هذا المرض الخطير ونهى عن تبرئة الذات وتزكيتها. يقول تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾. ويقول تعالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾، ويقول تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾.

وكما يصيب هذا المرض الذات الفردية فإنه يصيب الذات الجماعية، بأن تتحسس الأمة من نقد ذاتها وأوضاعها الراهنة أو على مستوى التاريخ.

إن الأصالة والحرص على هويّة الأمة وتقدير تاريخها وإنجازاتها الحضارية لا يعني تجاهل الأخطاء والثغرات ونقاط الضعف، فإن القرآن الكريم الذي ينص على الخيريّة المشروطة لهذه الأمة، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ للنَّاس تَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوف وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَر﴾ هو ذاته يسجل النقد اللاذع لطليعة هذه الأمة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، في مواقع الضعف والخطأ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْن إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبرينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ منْ فَوْقكُمْ وَمنْ أَسْفَلَ منْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجرَ وَتَظُنُّونَ باللَّه الظُّنُونَا﴾.

من هذا المنطلق، تكون مناقشتي هنا مع الأخ الكريم الأستاذ حامد الرفاعي، الأمين العام المساعد لمؤتمر العالم الإسلامي، ورئيس المنتدى الإسلامي العالمي للحوار، حول مقالته (العالم الإسلامي والديمقراطية .. ومن قال إنها قصة لا تنتهي) والتي نشرت في صحيفة «الشرق الأوسط» (٥ أغسطس ٢٠٠٤) تعقيبا على مقالي السابق (العالم الإسلامي والديمقراطية ..قصة لا تنتهي). وقد نشر في «الشرق الأوسط» أيضا (٣١ يوليو ٢٠٠٤).

وأقول مواصلة وإثراء لهذا النقاش، إن تاريخ الأمة لا يتلخص في تاريخ سلطاتها السياسية حتى يكون النقد لتلك السلطات اتهاما جماعيا بحق الأمة، ففي تاريخ الأمة أئمة هدى وعلماء وفقهاء ومفكرون وأدباء، قدموا للبشرية إنجازات حضارية عظيمة. أما على صعيد الممارسة السياسية فلا يسع المنصف إلا أن يعترف بأن في تاريخ الأمة مساحة واسعة من الاستبداد.

وكما يقول المفكر البحريني الدكتور محمد جابر الأنصاري في كتابه (العرب والسياسة أين الخلل؟): «على الرغم من التألق الروحي والعقلي والعمراني للحضارة العربية الإسلامية فإن تاريخها السياسي ظل أضعف عناصرها على الإطلاق وأشدها عتمة. فهي حضارة جميلة ورائعة لكنها تعاني من «فقر دم سياسي» ومن «أنيميا سياسية» من حيث الواقع العملي على صعيد التطبيق والنظم والممارسة... وإلى يومنا هذا تبدو الأمة العربية، بملايينها البشرية والمادية، وبامتدادها القاري، وبكل طاقاتها الهائلة المعطلة، جسماً عملاقاً برأس سياسي ضئيل في منتهى الصفر».

وينقل الدكتور الأنصاري في بحثه شهادات كثيرة قديمة وجديدة لأعلام من علماء الأمة ومفكريها تشير إلى بؤس السياسة في الوجدان العربي، بسبب الواقع السياسي الأليم الذي عاشته الأمة في أكثر عهود تاريخها.

فالدولة الأموية التي استمرت حوالي قرن من الزمن، والدولة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون، ثم الدولة العثمانية التي دامت أكثر من أربعة قرون، هذه الدول، مثلا، لو قرأنا سيرها في التعامل الداخلي مع الأمة، لرأينا بوضوح وبما لا يقبل الدفاع والتبرير أن المساحة الأوسع من تاريخ هذه الدول تتسم بالاستبداد والظلم. وهناك بعض الفرج الزمنية المحدودة، التي تختلف بطبيعة الحال عن هذا الوصف، كالسنتين اللتين حكم فيهما عمر بن عبد العزيز، أو بسبب وجود ظروف سياسية تلجئ الحاكم للتخفيف من ضغطه وقمعه، لكنها حالات مؤقتة على كل حال.

لقد عانى فقهاء الأمة ومفكروها وعلماؤها كثيرا من سياسات الاستبداد، التي صادرت حرياتهم حتى في المجال العلمي والفكري، فضلا عن الجانب السياسي. وما محنة القول بقدم القرآن أو حدوثه، أو ما عرف بـ«محنة خلق القرآن» إلا نموذج من تلك النماذج.

وقد جمع أحد المؤلفين المتأخرين «عبود الشالجي» بعض ما نقله التاريخ من ألوان التنكيل والقمع وانتهاكات حقوق الإنسان التي مورست تاريخيا ضد الإنسان المسلم، ضمن موسوعة أطلق عليها «موسوعة العذاب» تقع في سبعة مجلدات تقشعر الأبدان من هول ما تحمله بعض صفحاتها من قصص وأحداث.

ففيه فصل عن العذاب بالتغطيس في مستودعات القذر كالبالوعة والكنيف وفصل عن الوطء بالأقدام على الشخص حتى يموت، وفصل عن التعذيب بالتعليق من يد واحدة، والتعليق من يدين، والتعليق من الساق، والتعليق من الإبط، والتعليق من الثدي، والتعليق منكساً، وفصل عن التعذيب بسقي الدواء المسهل، وعن التعذيب بالملح، وعن التعذيب بالخصاء، وعن سمل الأعين، وسلّ اللسان، وجذع الأنف والأذن، وقلع الأضراس، وسل الأظافر، وإرسال السباع والحشرات على السجين، وشق لحم البدن بالقصب، وفصل عن قتل الأسير ووضع رأسه في حجر أقرب الناس إليه كزوجته أو ابنته أو والدته، ومجلد كامل عن ألوان القتل للمعارضين كالقتل بالشدخ بالعمود، والقتل رشقاً بالسهام، والقتل قعصاً بالرماح، والقتل بالبارود والرصاص، والقتل بآلات غير معدة للقتل، والقتل بالخنق، والقتل بالشنق، والقتل بالتغريق، ودفن الإنسان حياً، والبناء على المعذب، وهدم البناء على المعذب، والإحراق بالنار والماء المغلي، والسلق بالماء المغلي، والحقن بالماء المغلي... وأتوقف هنا عن ذكر عناوين بعض الفصول الأخرى لفظاعتها.

والكتاب مطبوع أكثر من مرة بمجلداته السبعة التي تزيد صفحاتها على ٢٧٠٠ صفحة ويتحدث عن مختلف الدول السابقة الماضية، وينقل معلوماته عن المصادر التاريخية المتداولة، فهل يمكن مع كل ذلك غض الطرف وتبرئة تاريخنا من وجود الاستبداد ؟

وقد يمكن التشكيك في بعض المعلومات والحوادث لكن ما لا يمكن التشكيك فيه هو حصول مساوئ كثيرة في التاريخ السياسي للأمة.

إننا بحاجة إلى شجاعة أدبية وجرأة موضوعية لتشخيص مواقع الخطأ، كما نشيد بمواقع القوة ونفخر بها في تاريخنا المجيد. ولا يعني ذلك أن نستغرق في مشاكل التاريخ الماضي، ولا أن ننشغل بالخلاف حول أحداثها، ولا أن نمعن في جلد الذات، ولكن تقديس الذات وتبرئتها وتمجيد كل ما سلف وسبق هو حالة سلبية خاطئة.

إننا نفصل بين واقع الاستبداد في تاريخ الأمة وطبيعة تعاليم الإسلام وإنسانية قيمه وتشريعاته، كما ندرك أن أعلام الأمة الصالحين من الفقهاء والمفكرين كانوا

مخالفين لمسيرة الظلم بل كانوا ضحايا لها في غالب الأحيان، وبالتالي فلا ندين كل تاريخ الأمة وإنما ندين ما يستحق الإدانة قصرت مساحته أو غلبت. والتقديس المطلق والتنـزيه التبريري العاطفي هو نوع مرفوض من خداع الذات.

متابعات

في «منتدى الأيام»[1]

الشيخ الصفار: قيادة الفقيه المنتخبة هي النموذج الأفضل

يمثل سماحة الشيخ حسن موسى الصفار من القطيف بالمملكة العربية السعودية أحد أبرز وجوه علماء الدين الداعين إلى تجاوز حالة القطيعة بين المثقفين بعضهم ببعض القائمة على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والمذهبية والسياسية. ويدعو في هذا السياق إلى نبذ التفكير الاستعلائي المؤسس على وهم امتلاك الحقيقة دون الآخرين، مؤكدا على أن الجميع شركاء في الوجود، وفي بناء الحياة، وفي تحقيق النظام العام في أوطانهم، بل وفي العالم أجمع.

وانطلاقا من قناعاته بطبيعة التنوع والاختلاف والتعددية يؤسس الصفار إستراتيجيته الفكرية على حتمية التعايش السلمي وضرورة الحوار والتحاور بين مختلف الأطياف السياسية والمذهبية في المجتمع رافضا محاسبة الآخرين على نياتهم.

ويرى الصفار أن الديمقراطية هي الصيغة العملية للشورى في الإسلام، ولا تطبيق

---

(١) صحيفة الأيام البحرينية - «أدار الندوة: سعيد الحمد/ أعدها للنشر: خالد رضي» - ١٢ / ٨/ ٢٠٠٤م - ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ»

للشورى إلا عبر آليات الديمقراطية المعاصرة. وأن الشورى الحقيقية هي البرلمان ويذهب إلى أن الديمقراطية بمعناها العام بما تعنيه من مشاركة شعبية وتداول سلمي للسلطة وحرية تعبير وممارسة هي مكسب بشري عام أسهمت فيه الحضارة الإسلامية والحضارات البشرية الأخرى، وأن علينا الاستفادة من هذا المكسب الكبير.

ويذهب الصفار أيضا إلى أن الدين تأثر كثيرا بالحالة السياسية السائدة عبر التاريخ العربي الإسلامي حتى أصبح الموروث متأثرا بحالة الاستبداد.

ويؤكد أن شيوخ الدين بشر وأن ممارساتهم ليست كلها معصومة. وأن ولاية الفقيه ليس رأيا مجمعا عليه. وأن الأفضل استعاضته بقيادة الفقيه المنتخبة.

« منتدى الأيام » استضافت الشيخ حسن الصفار في حوار فكري ثقافي استهله رئيس التحرير عيسى الشايجي بالترحيب بالصفار والمشاركين في الندوة مؤكدا على اهتمام « الأيام » برعاية لقاءات المفكرين والكتاب ومتمنيا استمرار هذا التواصل بين المثقفين.

وفي هذا الحوار مع الشيخ حسن الصفار – الذي ننقله إلى القراء الأعزاء – نقف على رؤاه في الحوار والاختلاف والتعايش والتعددية والديمقراطية، وموقفه من التاريخ والتراث وولاية الفقيه.

القراءة الخاطئة للإسلام

– **سعيد الحمد**: (مخاطبا الشيخ حسن الصفار) أنت تدعو إلى الحوار مع الآخر، فليكن هذا مدخلا لحوارنا اليوم. كيف يكون الحوار وما أسسه؟

ومن تقصد بالآخر؟ هل السلطة؟ أم قوى المعارضة الأخرى؟

– **الشيخ حسن الصفار**: أنا أشكر الأخوة المشاركين معنا اليوم وأتابع كتاباتهم في »الأيام«. في تصوري أننا نعيش مشكلة في مجتمعنا تشمل كل الأطراف.. وهو ادعاء كل طرف بأنه يملك الحقيقة وأن الآخر لا مبرر لوجوده.

هذا التفكير الاستعلائي موجود عند كل الأطراف. الإسلاميون يوجد لديهم

تجاه من يسمونهم الليبراليين. وكذلك الليبراليون أيضا يتعاملون مع الإسلاميين بنفس المنطق بالاستعلاء وأنهم رجعيون وظلاميون.. عند المذاهب، نفس الشيء الشيعة ضد السنة والسنة ضد الشيعة وأن الطرف الآخر هالك وأنه في النار بناء على فكرة « الفرقة الناجية ».

وهكذا بين السلطة والمعارضة.. فالسلطة ترى أن المعارضة تخريب. والمعارضة ترى السلطة فساد وأنها مرتبطة بالاستعمار.

هذا النمط من التفكير أعتقد أنه خاطئ.. ولا نحتاج إلى إثبات خطئه نظريا.

وأنا أدعو إلى تجاوز هذه الحالة بأن يحترم كل منا رأي الآخرين، فإذا كان رأي الآخر غير محترم فلا تتوقع أن يحترم الآخر رأيك يقول الإمام علي ﷺ: اجعل نفسك مقياسا فيما بينك وبين غيرك وأحبب لغيرك ما تحب لنفسك.

وعليك أيها الإنسان أن تحترم رأي الآخر وعندما لم يحترم أحدنا الآخر سقط احترامنا في العالم.

وبات ينظر إلينا اليوم نظرة ازدراء.. وكنت اقرأ أن السعوديين باتوا يقفون طوابيرا لنيل تأشيرة لزيارة البلدان الأجنبية بخلاف السابق. وهكذا فاليوم سقط احترامنا في العالم لأننا لم نحترم بعضنا بعضا ولم نحترم الآخر فلم يعد لنا احترام في العالم.

ولذلك أقول لابد من تجاوز هذه الحالة وان يكون عندنا استعداد وقناعة داخلية (وليس تكتيكيا) بأننا شركاء في الوجود وفي أوطاننا.

ومثلما أدعي إنني أملك جزءا من الحقيقة فالآخر يرى في نفسه ذلك أيضا. لذلك يقول القرآن الكريم.. »وأنا و إياكم؟لعلى هدى أو في ضلال مبين« وفي قوله تعالى »لكم دينكم ولي دين« وهي سورة مكية تخاطبهم بأنهم لهم دين.

هذا الإسلام بسبب قراءة خاطئة تحول إلى حالة إقصاء للآخر.

الشورى في البرلمان

- **المحامي محمد السيد:** هذا التهميش يسبب أضرارا. وهذا كله بسبب إقصاء

الآخر. فالمذهب السني لا يمكن أن يقبل الشيعي والعكس أيضا أصبحت عندنا مشكلة أثرت في الأداء السياسي والعملي اليومي. لأن الشخص يعتمد على انتمائه الأيدلوجي كان جيدا في أدائه، أم لا وهذا مرض نلمسه في الجمعيات السياسية والدينية ومختلف المؤسسات المجتمعية.

فاضل عباس: نود أن نلامس الجرح بشكل مباشر.. أنا لا أعتقد أن المشكلة هي فقط مع الإسلاميين وإنما مع الفكر الشمولي. سابقا كان هناك تيار قومي استولى على السلطة في أكثر من بلد. واليوم نحن نعيد التجربة.. فدولة دينية في إيران وأخرى في باكستان وأخرى في أفغانستان.

وقد إعادت صنع الدكتاتورية بصور مختلفة فبالنسبة للحوار في هذه الحالة يكون مع من؟ مع سلطة وفكر شمولي استولى على السلطة؟ أو مع قوى مثل طالبان؟ أعتقد أنه لا حوار مع هذه القوى وهناك قوى أخطر تسعى للالتفاف على اللعبة الديمقراطية، ما حدث في الجزائر مثال على ذلك. كان هناك تصريح لحشاني بأن الديمقراطية تنتهي بوصولهم. فلا إمكانية لحوار مع مثل القاعدة وطالبان.

-**سعيد الحمد**:

ما موقفكم من الديمقراطية؟

هل هو موقف استراتيجي أم تكتيكي؟

هل هذا الموقف معلن في أدبياتكم؟

- **الشيخ حسن الصفار**: أنا أقترح إعادة صياغة السؤال لأن طبيعة السؤال تجعل الإنسان بين نعم أو لا

الإيمان بالديمقراطية يعتمد على مجموعة أفكار؟ فإذا كان يقول أحدنا أنه يؤمن بالديمقراطية بينما مجموعة أفكاره الأخرى لا تنسجم مع الديمقراطية فهذا يعني أنه لا يؤمن.

بالنسبة لي فقبل أن نتحدث عن الديمقراطية تحدثنا عن التعددية والتنوع

والتعايش وكتبنا حول التعايش المذهبي واحترام حقوق الإنسان.

وبعد استكمالنا هذه المفاهيم رأينا أن من حقنا الحديث عن الديمقراطية.

وكتبت عن الشورى وتقدم المجتمع وبينت أن الديمقراطية هي الصيغة العملية للشورى في الإسلام.. والآن لا تطبيق للشورى إلا عبر آلية الديمقراطية المعاصرة، وإن الشورى الحقيقية هي البرلمان

وأعتقد أن الحوار لا يتجزأ.. نحن لا نرفض الحوار حتى مع طالبان والقاعدة. المشكلة هل هم يقبلون الحوار أم لا؟ فأنا لست مع تجزئة الحوار. أما تكتيكيا فنحن لا نحاسب الناس على نياتهم.

فإذا كان الإسلاميون يريدون أن يحاسبوا الآخرين على نياتهم فنقول لهم لا. وفي الجزائر الأسوأ من التصريحات كان الانقلاب على الديمقراطية.

فنحن نحاسب من تحدثوا وننسى من انقلبوا على الديمقراطية. ولو لم ينقلبوا على الديمقراطية لكان الحال أفضل مما هو عليه الآن.

الإسلام والديمقراطية

- **حسن موسى**: أتفق مع الصفار في أنه قبل الحديث عن الديمقراطية لابد أن نتحدث عن المفاهيم.

إننا نحتاج إلى أن تكون هناك أنظمة وقوانين تحكمنا تحترم الإنسان وتقدر اختلاف الآراء. فأتفق مع الشيخ الصفار مع بناء البنى التحتية للديمقراطية ومنها احترام الرأي الآخر ووجود قوانين تحمي المواطن ووجود عدالة قضائية ووجود سلطة تنفيذية مسؤولة وسلطة تشريعية قادرة على التشريع ووجود برلمان حقيقي.

وليس هناك ديمقراطية كاملة متكاملة. وإنما تتكامل من خلال الممارسة.

- **محمد الصياد**: أود أن أسجل اتفاقي فيما ذهب إليه الشيخ الصفار عن الحوار حتى مع مثل القاعدة وطالبان لأنني أعتقد أن انقطاع الحوار يبدأ معه التشنج والمواجهات.

والمثل الجزائري مثل حي عن جدوى الحوار. فالانقلاب على نتائج الانتخابات في ١٩٩١ سبب حالة الحرب الأهلية هناك. وما حصل في الجزائر كان سببه استغلال جنرالات الجزائر وأثرياؤهم على حساب الشعب.

وأمس قرأت تصريحا لأحد أمراء الجماعات يتحدث فيه عن ايجابيات الحوار وانتهاء المواجهات بين جيش الإنقاذ وجيش الحكومة. وليس هذا إلا نتيجة للحوار في الكواليس وهو ينتقد ممارسات القاعدة في السعودية.

نقطة أخرى حول الحوار ينبغي التوقف عندها وهي أن هذه المفردات كلها منتجات غربية. ففي اللاوعي يوجد عندنا رفض لحالة القبول بالآخر كليا. كنت أراسل أحدهم ولكنه قطع عني مطبوعاته بسبب اختلافي معه في بعض الأفكار. فهل عندكم كإسلاميين اعتراض على الديمقراطية الغربية؟ لأنني أرى عندنا مشكلة في بنية العقل العربي. فابن رشد عزل عن ثقافتنا الإسلامية. فثقافتنا ثقافة عصبيات.

- **الشيخ غازي شبيب**: الديمقراطية كمصطلح تحتاج إلى تفسير لأننا نعيش في عالم صراع المفاهيم. فماذا يراد من الديمقراطية؟ أحيانا تحصل انحرافات ويحصل خطأ. مثال ذلك الزواج كمصطلح له مفهوم وكذلك العائلة.. ولكن عندما تأتي الكنيسة في الوقت الحاضر وتشرع الزواج أو العائلة لمثليين فإن هذا يحدث انحرافا لمثل هذه المفاهيم. وهكذا الديمقراطية ماذا تعني؟ فقبل أن نتحدث عنها لابد من تحليل اللفظ لنعرف ماذا يعني؟ لنبني موقفا تجاهها.

أيضا الألفاظ لها أهمية كبرى في الإسلام. فالشورى له معناه الدقيق في الإسلام. فهل هو يقابل الديمقراطية أم لا؟ وهذا مهم لنعرف أن الإسلام يؤيد الديمقراطية أم لا. ومن الأخطاء إننا نستورد أشياء وعندنا مثلها. إن الحوار لابد من توفير المناخ المناسب له فلا يعيش الحوار في دول قمعية. وهو لا يزدهر إلا في أجواء الحرية. أنا أضرب مثال مملكة البحرين. فما حصل فيها في السنوات الأخيرة يثير الإعجاب في أنفسنا. هذا الحوار بين مختلف الجهات والقوى. ويجعلنا نقف منه موقف إجلال.

- **الشيخ حسن الصفار**: البشرية في مسيرة تكاملية وتصاعدية.. وأن الأديان

يكون لها دور في تحسين البشرية لأوضاعها. وأي مكسب تحقق أسهمت فيه البشرية كلها.

والديمقراطية بمعناها العام بما تعنيه من مشاركة شعبية وتداول سلمي للسلطة وحرية تعبير وممارسة هي مكسب بشري عام أسهمت فيه الحضارة الإسلامية والحضارات البشرية الأخرى. وعلينا أن نستفيد من هذا المكسب ولا نقف عن مناقشة المفاهيم.

أذكر قصة معبرة: ملك من الملوك خرج إلى الصحراء وبقي مع خادمه وصار الليل فقال لخادمه إنه يريد أن يتدفأ فقال له إنه لا يوجد إلا غطاء الحمار فغضب عليه.. ولكن عندما زاد البرد قال له هل لابد أن تسميه بهذا الاسم؟ أنت ائت به و(خلاص).

الحوار الوطني في السعودية

-**المحامي محمد السيد**: هل يوجد حوار وطني في السعودية؟

- **الشيخ حسن الصفار**:

الحوار في السعودية قد أتاح فرصة للقاء أطراف لم تكن تلتق. ويشكل اعترافاً بوجود قوى متعددة. وأنتج أيضا اختراقاً إعلامياً حيث لم يكن الإعلام المحلي سابقاً يتحدث عن ألوان متعددة. فهو عموما حوار ايجابي ولكن أن يكون حوارا لحلول فلا، لأن الطرف الرئيسي الحكومة ولا يوجد ما يلزم الحكومة بتوصيات الحوار.

والحوار إذا لم يتطور فسيتحول إلى مؤتمرات علمية.

موروث الثقافة الاستبدادية

- **اسحاق يعقوب الشيخ**: الشيخ حسن الصفار رجل عرفناه بحسن منطقه وحسن خلقه، وإذا كنا بحضرته يشجعنا أن نكون ديمقراطيين.

ومع ذلك أنا أختلف معه بحب ومودة. هو قال أن كل طرف يعتقد أنه يعرف الحقيقة المطلقة، فهل هذا في كل شيء؟ حتى في العقيدة؟ فالمسلم يعتقد أنه يملك

الحقيقة في عقيدته وإسلامه، فهل نعمم هذا فيما يتعلق بالحقيقة أم أنه لا يمس الدين؟

مشكلتنا أيضاً في فهمنا للتراث، فقد جعلنا حبنا للتراث بأن نكره الآخر ونفجر مواقعهم في بلدانهم، فما الموقف من الخلاف؟

وأقول أن كل واحد مستعد أن يحاورنا فنحن نحاوره كما حاور الله أبليس في القرآن.

كثير من المثقفين يخشون الحوار مع العدو، ويرفض الحوار مع مثل الإسرائيليين بينما أنا أرى أنه لا بأس في ذلك.

الذين شجبوا تدخل الجيش في الجزائر، أقول لهم إن من وصل إلى السلطة رفضوا الديمقراطية، وما حدث في الجزائرأعتقد أنه أنقذ الجزائر من أشياء أخطر.

لقد وصلوا إلى الديمقراطية وهم غير ديمقراطيين.

وحول ما ذكره الشيخ غازي شبيب جميل أنه يعبر عن ابتهاجه لما حدث في البحرين، ولكن مع الأسف فإنا أناساً دينيين سنة أو شيعة يقفون موقفاً شائناً، ومنهم من يريد تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- **الشيخ حسن الصفار**: قضية الحقيقة المطلقة واردة، فكل إنسان عنده قناعة بشيء يرى أنه صواب، ولكن أن يرفض الاحتمالات الأخرى فهذا هو المدان.

المسلم يعتقد أن ما يعتقده صواب ولكن أن يرفض الحوار فهذا هو الخطأ، فليس هناك مشكلة من مناقشات الاحتمالات الأخرى، والمثال واضح في قصة نبي الله إبراهيم التي يذكرها القرآن الكريم بمناقشة الاحتمالات المختلفة.

وحتى بالنسبة للدين، فأنا أعتقد بصحة ديني فلو استطاع أحد أن يقنعني بخطأ ذلك فأنا مستعد لسماعه.

ونحن عندنا أن العقائد لا تقليد فيها، ونتداول نصاً حول أهل البيت »اللهم إني لو وجدت شفعاء أقرب إليك من محمد وآله لجعلتهم شفعائي إليك..«.

فعندي استعداد نفسي وذهني لو اتضحت فيه خلاف ما أفهمه لكنت أصححه.

أما عن تراثنا وموقفنا منه فعندنا تراث ضخم من الثقافة الاستبدادية ولابد من بذل الجهود لتنقيته وغربلته.

- **صلاح الجودر**: عرفت أن المدارس العلمية التي درست فيها في العراق وإيران أثرت ثقافة الشيخ حسن الصفار.

ولكن ألا ترى إننا كلما اندفعنا في الحوار نجد أنفسنا متخلفين؟ وإننا أول ما نجلس نجلس على طاولة الخلاف؟ والقضية الديمقراطية في البحرين البعض يستغلها إلى الوراء ووقفوا حاجزاً، فما رأيك في ذلك؟

آليات التعايش

- **الشيخ حسن الصفار**: سلبيات الديمقراطية. تعالج بالمزيد بالديمقراطية وعندما يطرح موضوع الأمر بالمعروف فيجب ألا نهول أيضاً موضوعهم ونمنع الحوار معهم حولها.

الأمر بالمعروف كممارسة ارتبط بممارسة خاطئة في بعض البلدان فيجب ألا تكون مسبقاتنا تمنعنا عن مناقشة أفكار الآخرين.

أما عن الحوار.. فهو حول ماذا نتحاور؟

أعتقد إننا يجب أن نتحاور حول واقعنا المعاصر المعاش.

في حوار السعودية صار حوار حول الشيعة والسنة، فقلت لهم أن نتحاور حول آليات التعايش مع بعضنا البعض، وتعالوا نرى إمكانية أن نتعايش أم لا.

الحوار إذا ذهب إلى قضايا تاريخية وعقائدية لا يغني. فقد قلت أن الدين شغلنا، هو جاء لينظم الحياة ونحن انشغلنا به عن الحياة، مثلما تُعطى كتلوج سيارة فتترك السيارة وتشغيلها وتنشغل بالكتلوج.

النبي ﷺ عندما خرج على أناس يناقشون القضاء والقدر غضب عليهم وطلب منهم الحديث عن تطوير حياتهم.

علينا أن نتحاور حول حياتنا، أما أن يكون علي أو أبو بكر خليفة، فنحن مسئولون عن الحديث عن أن نحكم أنفسنا أو تحكمنا أمريكا؟

المقاطعة غير صحيحة

- **سعيد الحمد**: هل تؤمن بفكرة وفلسفة عربية سادت لفترة تقول بالمقاطعة؟

- **الشيخ حسن الصفار**: أنا ضد المقاطعة الفكرية أو السياسية.

هي في ظرف من الظروف سلاح للحصانة ولردع الآخر ولكن في عالم اليوم المقاطعة ضارة لأن التداخل جزء من العالم ومن يفعلها يضر بنفسه.

- **الشيخ غازي شبيب**: الذين يريدون تأسيس هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليهم أن يحمدوا الوضع في البحرين للفرصة التي أتيحت لهم للتعبير عن آرائهم بحرية.

إنّ عدم الحوار مع الآخر يكشف أحد أمرين: إما عن عجز صاحب المقاطعة وضعفه، أو عن شيء شخصي يستبطنه.

- **الشيخ حسن الصفار**: في عالم السياسة تكون المقاطعة عن رأي سياسي، فليس دائماً هي عجز وهو حق مكفول، ولا يفرض عليك أحد ضده.

ونحن نحترم هذا، ولكن أيضاً من حقنا أن نبدي رأينا فيه.

- **الشيخ غازي الشبيب**: أُشيد مرة أخرى بتجربة البحرين، وأيضاً أود أن أشيد بتجربة اليمن، ولكن للأسف فإن الصراع الدائر الآن كان على الدولة ألا تدخل فيه لتثبت للعالم إنها فتحت أجواء الحوار.

- **إسحاق يعقوب الشيخ**: ألا يوجد مانع لو وجدت معنا نساء حاسرات للحوار معنا؟

- **الشيخ حسن الصفار**: لا مانع من ذلك.

- **المحامي محمد السيد**: أتفاجأ بعمق فهم الشيخ حسن الصفار رغم التقائي

معه في أكثر من مكان.

والشيخ حسن اليوم أزاح تصوراً سابقاً حول مفهوم الديمقراطية. والسؤال المطروح اليوم للشيخ الصفار والشيخ صلاح الجودر هو أنه من خلال متابعتنا نجد ازدواجية للقرار السياسي التي تحاول التأثير فيه في الجمعيات الدينية، وكأنها تنتقص الأسلوب الديمقراطي في التعامل مع قواعدها. ومجلس الإدارة في الجمعيات الدينية يتخذ قرارات بشكل منفرد حتى لو لم يتفق معه التابعون، ومشكلتهم أنهم في تربيتهم لم يتربوا على الاستقلالية في اتخاذ رأي مستقل سواء في الجمعيات الشيعية أو السنية.

وسؤالي عن عدم وجود ديمقراطية في مؤسسات المجتمع المدني، فكيف نستطيع الدفع باتجاه الديمقراطية؟.

ولاية الفقيه

- **الشيخ صلاح الجودر**: تأثير التيار الديني السني والشيعي موجود، وتأثير رجل الدين موجود. والمسألة تعتمد على قناعة الناس وثقتهم برأي رجال الدين. ولكنها ليست مفروضة.

- **الشيخ حسن الصفار**: الديمقراطية باعتبارها حالة ناشئة تحتاج إلى وقت لاكتمالها وحتى التجارب البرلمانية تحصل فيها حالات من الصراع والتصادم لأن الإنسان عندنا لا يتربى على الديمقراطية، وهذا لا يقتصر على الجمعيات الدينية فقط.

بالنسبة للبسطاء فإننا إما أن نؤمن بأنهم يمثلون شرعية أولا نؤمن، فإذا قبلنا فيجب أن نؤمن بهم على علاتهم، اليوم بعض المثقفين يقولون نفس الشيء تجاه الآخرين، والحكومة تقول عن الناس بأنهم غير مهيئين، وهكذا.. والهند مثلاً تقبل صناديق اقتراعاتهم الناس كما هم.

- **حسن موسى**: جميل ما قاله الشيخ الصفار عن حاجة الديمقراطية إلى رعاية ولكن في الوسط الديني تربية الديمقراطية صعب، فيمكن الليبراليون يقبلون بالأفكار الأخرى ولكن الدينيون لا يقبلون بذلك؟

- **فاضل عباس**: الممارسة اليومية تنبع من مفاهيم نظرية، بمعنى أن الممارسة الحزبية هي نظرية في الأساس.

واليوم نحن أمام صورة مشابهة، فمثل مفهوم ولاية الفقيه، فهل الاجتهاد في الإسلام يمكن أن يصحح بعض المفاهيم تجاه الديمقراطية وغيرها؟

- **الشيخ حسن الصفار**: الدين تأثر كثيراً بالحالة السياسية السائدة فأصبح الموروث متأثراً بحالة الاستبداد.

فالحاكم المستبد كان بحاجة إلى فقيه ليدعم الاستبداد وبعض الفقهاء كان بحاجة إلى دعم الحاكم وتواطؤا على ذلك، إلا الأئمة الواعون، فحينما طُلب من الإمام مالك أن يعمم كتابه الموطأ فلم يقبل.

الأمر الآخر إن شيوخ الدين بشر وحماية مصالحهم تتداخل أحياناً في الموضوع وليس كل ممارستهم معصومة، وهناك قرارات ترتبط بجانب مصالحهم الشخصية.

أما ولاية الفقيه فليس رأياً مجمعاً عليه، والإمام الخميني يتبناه ولكن ينبغي أن نسجل أن الإمام الخميني اعتمد فيها على التصويت الشعبي.

والمجلس الذي صنع الدستور في إيران الثورة شارك فيه الحزب الشيوعي الإيراني ومختلف التوجهات، ولكن مع الأسف بدأت أعمال العنف، وكنت في إيران بعد الثورة، وكان كل يوزع منشوراته.

ولكن بدأت بعض الأطراف تنحى إلى العنف لإقصاء الآخر، وحدثت أمور حرفت بمسار الأحداث هناك.

إذا استحضرنا محاضر مجلس الخبراء نجد فيها كل أطراف الشعب الإيراني. وفي رأينا هذه ناحية إيجابية.

وولاية الفقيه أيضاً أصرت على تأسيس مؤسسات المجتمع المختلفة.

ويبقى أن ولاية الفقيه اجتهاد.

وولاية الفقيه في بعض صور تطبيقاتها تتناقض مع الديمقراطية ولكن ليس ذلك

التناقض في عمقها. أعتقد أن مفهوم ولاية الفقيه يمكن أن يطرح بعنوان قيادة الفقيه المنتخبة فهو الطرح الأفضل.■

مقابلة جريدة ديليستار[1]

يعتبر تقرير الجامعة العربية الذي وزع على وزراء الخارجية العرب مؤخراً أن السلطات الواسعة التي تُعطى للمجموعات الدينية والأثنية (المقصود منها الشيعة والأكراد) تشكل عامل تهديد لاستقرار البلاد المجاورة على التمرد والمطالبة بسلطات واسعة.

هل تعتبرون أن حصول الشيعة في العراق على سلطات واسعة ممكن أن يصدّر إلى السعودية مثلاً أم كل بلد له خصوصيته؟

القول بأن إعطاء المجموعات الدينية والأثنية في العراق حقوقها السياسية يشكل عامل تهديد للبلاد المجاورة هو من دلائل مرض العقل السياسي العربي، فهل يصح أن تقمع التطلعات المشروعة وتصادر الحقوق الطبيعية للعراقيين من أجل حماية أوضاع البلدان الأخرى؟

إن استقرار البلدان المجاورة للعراق يتحقق بإصلاح أوضاعها السياسية بتوسيع

---

(١) ننشرت هذه الأسئلة في مقال للصحفية سيلينا ناصر بصحيفة **THE DiLLY STA** اللبنانية وهي صحيفة يومية مستقلة تصدر باللغة الإنجليزية بلبنان، بتاريخ ١٠ فبراير ٢٠٠٤م.

رقعة المشاركة الشعبية في القرار السياسي والاتجاه نحو الديمقراطية ومعالجة مشاكل التمييز بين المواطنين ليكونوا سواسية في حقوق المواطنة وواجباتها.

الشيعة في المملكة العربية السعودية حريصون على صون وحدة بلادهم وليست لديهم توجهات انفصالية وهم يطالبون منذ زمن طويل بالمساواة مع بقية مواطنيهم وبحقهم في ممارسة خصوصياتهم الدينية ولا علاقة لهذه المطالب بالتطورات الخارجية في إيران أو العراق لكنهم يتفاعلون مع الأحداث مثل سائر المجتمعات البشرية.

ما هي المناصب التي لا يستطيع الشيعة أن يشغلوها في الحكومة والجيش والأمن العام، وهل تطالبون بإلغاء هذا التمييز؟

قدمت مجموعة من المواطنين الشيعة في المملكة (٤٥٠) شخصية دينية واجتماعية وأكاديمية عريضة لسمو ولي العهد الأمير عبدالله بن عبدالعزيز بتاريخ ٣٠ أبريل ٢٠٠٣م تحت عنوان (شركاء في الوطن) تحدثت عن ولاء الشيعة لوطنهم ودعمهم لحكومتهم وطالبت بمعالجة مشاكل التمييز الطائفي التي يعانون منها.

فهم ليسوا ممثلين في مجلس الوزراء حيث لم يصل شيعي إلى رتبة الوزارة، ولا يوجد منهم وكيل وزارة، ولا سفير ولا أي موظف في وزارة الخارجية (عدا تولي واحد منهم هو الدكتور جميل الجشي لموقع سفير المملكة في إيران لفترة قصيرة لغرض سياسي) ونادر جداً وصول شيعي إلى درجة مدير عام، أو دخوله إلى القوات العسكرية والأجهزة الأمنية.

هل الشيعة في السعودية ينوون أن يقدموا للحكومة عرائض باسمهم للمطالبة بحقوقهم أم تريدون الاكتفاء بالمطالبة بحقوقكم ضمن مجموعة النخب؟

تؤمن شريحة كبيرة من المواطنين الشيعة بأن الإصلاح السياسي العام في المملكة يساعد في حل مشاكلهم لذلك شارك عدد منهم في مختلف العرائض التي

رفعت للحكومة إلى جانب مواطنيهم الآخرين كوثيقة (رؤية لحاضر الوطن ومستقبله).■

والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته

لقاء مجلة الشرق[1]

الشيخ حسن الصفار لـ (الشرق):
(شركاء في الوطن) همزة وصل بين القيادة والشعب

حوار: سكينة المشيخص

أفرز الحوار الوطني الذي شهدته المملكة مؤخراً وتفاعل معه كامل الوطن من أقصاه إلى أقصاه جملة من الأفكار في جو متسامح وصريح، وأبرز العديد من القضايا الهامة التي تمثل جوهر التعايش السلمي والاستئناس بأفكار الرأي والرأي الآخر. وكانت أهمية ذلك الحدث في مشاركة جميع أشكال الطيف التي يتكون منها هذا الوطن الأغر.

لقد أراد سمو ولي العهد عبر إطلاقه الحوار الوطني غرس نبتة الخير والصلاح والألفة والتقارب في نفوس أبناء الوطن الغالي لتزول كل الشوائب العالقة في ذهن كل طرف حتى تصبح المواطنة شجرة يستظل بها كل أبناء الوطن.

الشيخ حسن الصفار كان من الشخصيات المشاركة في الحوار الوطني، ونلتقيه

---

(١) الشرق: مجلة أسبوعية تصدر عن مؤسسة الشرقية للطباعة والصحافة والإعلام، العدد ١٢٠٧، بتاريخ ١٢:٦ مارس ٢٠٠٤م، ٢١:١٥ محرم ١٤٢٥هـ.

هنا لإلقاء الضوء على بعض القضايا المثارة...

بتاريخ ١/ ٥/ ٢٠٠٣م تم توقيع عريضة رفعت لصاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز حفظه الله وأصحاب السمو الأمراء المعنيين بالأمر، تحت عنوان (شركاء في الوطن) هل لك أن تحدثنا عن هذه العريضة؟

الرسالة التي قدمت لسمو ولي العهد حفظه الله تحت عنوان (شركاء في الوطن) جاءت انطلاقاً من أهمية تفعيل التواصل بين المواطنين وقيادة البلاد، فإذا وجد المواطن أن هناك مشكلة تستدعي المعالجة والحل. فواجب المسؤولية يفرض عليه أن لا يأخذ موقف المتفرج على المشكلة، والتي قد يضر بقاؤها بمصلحة الوطن، بل عليه أن يرفع الموضوع إلى المسؤولين ويقدم وجهة نظره إلى سمو ولي العهد.

من هذا المنطلق قدمت الرسالة إلى سمو ولي العهد.

ما هي العقبات التي واجهتكم أثناء صياغة العريضة؟

لا يبدو لي أن المبادرين لتقديم العريضة قد واجهوا صعوبات، لأنها كانت تعبر عن هموم شريحة من المواطنين، كما تؤكد الولاء للوطن. وتقدم النصيحة لولاة الأمر، بلغة مؤدبة واضحة لا لبس فيها، وبالتالي كانت الاستجابة والتفاعل معها متوفرة دون مشقة.

هل المشاركون في مؤتمر الحوار الوطني يمثلون طموحات الهدف من إنشاء فكرة الحوار الوطني؟

المشاركون في مؤتمر الحوار هم نخبة واعية من أبناء الشعب يمثلون مختلف الاتجاهات والمذاهب، ومن مختلف مناطق المملكة وكفاءتهم متنوعة فيهم علماء الدين ورجال أعمال وأساتذة جامعات، وأكاديميون، ومثقفون، وإعلاميون، محامون...

هناك وسائل إعلام خارجية أخذت على عاتقها التشويش على

الإصلاحات السعودية ومن ضمنها الحوار الوطني ما موقفكم من هذا؟ وما هي الرسالة التي توجهها لهم؟

دور التشويه الذي تقوم به بعض وسائل الإعلام الخارجية على ما يتحقق من إيجابيات في المملكة أمر طبيعي تواجهه كل الدول والأنظمة. خاصة ونحن نعيش لحظة صراع قاسية، بعد الحادي عشر من سبتمبر، واستهداف بعض الدوائر الأمريكية المتحالفة مع الصهيونية لكل ما يرتبط بالإسلام والأمة الإسلامية.

إن هناك تشويهاً لديننا وحضارتنا، وتجرأ البعض على قدسية نبينا محمد ﷺ، كما ألصقوا بالإسلام أسوأ الصفات مما هو براء منه.

وعلينا ألا نتأثر بهذه الضغوط بل نمضي قدماً في إصلاح أمورنا وتوحيد صفوفنا.

المدينة المنورة تستضيف الحوار القادم، ما هي أبرز المحاور التي يتضمنها الحوار؟ وهل سيتضمن عرض ما تم تنفيذه من القرارات التي صيغت في الحوار الثاني؟

لم يتحدد بعد موضوع الحوار للقاء الثالث والذي يعقد في المدينة المنورة إن شاء الله ولكن هناك أربعة مواضيع مقترحة قد تختار إدارة مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني وأحداً منها وهي:

١. المشاركة الشعبية السياسية.

٢. التعليم.

٣. دور المرأة وحقوقها.

٤. الصلة بين الحاكم والمحكوم.

هل الأفكار التي تم طرحها في الحوار ستبقى محصورة داخل أسوار الحوار الوطني أم ستنفذ على أرض الواقع؟

لا توجد آلية لمتابعة التوصيات التي تصدر عن اللقاء وهذه نقطة ضعف نرجو أن تعالج حتى تكون للقاء مصداقيته وتحصل الثقة بالفائدة منه، أما إذا صار شبيهاً بكثير من المؤتمرات واللقاءات في العالم العربي والإسلامي والتي تبقى توصياتها حبراً على ورق فإنه يفقد الثقة والمصداقية وتخيب الآمال والتطلعات المعقودة عليه لا سمح الله.

ما دور المرأة في الحوار الوطني؟ وهل تباركون هذه الخطوة؟

كان من ميزات اللقاء الثاني وإيجابياته الكبيرة مشاركة المرأة فيه، حيث شاركتنا عشر شخصيات نسائية من مناطق مختلفة من المملكة. وكانت مشاركتهن رسالة واضحة بضرورة إسهام المرأة في نهضة المجتمع وعدم صحة تهميشها أو تجاهلها وهي تمثل نصف المجتمع، وتساوي الرجل في مواهبها وطاقتها كما ورد عن رسول الله ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**».

كما تشارك الرجل في المسؤولية الاجتماعية العامة يقول تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾.

وكانت للأخوات المشاركات مداخلات تضمنت آراء ناضجة. ونأمل أن تتخذ المزيد من الخطوات لتنمية دور المرأة الاجتماعي.

سماحة الشيخ تلقيت دعوة للمشاركة في المؤتمر الإسلامي العالمي الذي عقد في طهران العاصمة الإيرانية تحت عنوان (العالم الإسلامي التحديات والفرص) هل لك أن تحدثنا عن هذه المشاركة؟

المؤتمر الذي انعقد في طهران الجمهورية الإسلامية الإيرانية بتاريخ ٢٢ ـ ٢٣ ديسمبر من عام ٢٠٠٣م تحت عنوان (التحديات والفرص) كان فرصة طيبة للالتقاء بنخبة واعية من العلماء والمفكرين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، والاستماع إلى آرائهم وهمومهم. وقد تناول المؤتمر قضايا هامة تتعلق بما تواجهه الأمة الإسلامية من

أخطار وتحديات.

وكانت مشاركتي بورقة تتناول تحدي الاستقرار السياسي والاجتماعي استعرضت فيها حالة الاضطراب التي تعيشها الأمة في العلاقة بين الدول الإسلامية. وفيما بين الحكومات والشعوب، وما بين القوى الاجتماعية من مذاهب وقوميات وأحزاب وتيارات.

أشرت إلى أن هذا الاضطراب يعوق حركة التنمية والبناء.. ويشغل الأمة بمشاكلها الداخلية. ويستهلك جهودها وإمكانياتها في الصراعات والنزاعات. كما تعطي الفرصة لنفوذ الأعداء وهيمنتهم.

وقدمت رؤية لمواجهة هذه التحديات عبر النقاط التالية:

ضرورة مبادرة الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي بالإصلاح السياسي بما يتضمن توسيع المشاركة الشعبية. واعتماد نهج الديمقراطية. وإقرار الحريات المشروعة.

الحاجة إلى تنمية وحوارات ثقافية ترتكز على احترام حقوق الإنسان وقبول التعددية والرأي الآخر واجتناب أساليب العنف.

قيام مؤسسات أهلية تتبنى الدعوة إلى السلم الاجتماعي والتقريب بين مختلف فئات الأمة وأطرافها.

خلق رأي عام جماهيري في الأمة لتفعيل الأطر الجامعة للدول الإسلامية كمنظمة المؤتمر الإسلامي والجامعة العربية ومجلس التعاون الخليجي وأمثالها، حتى تتجاوز واقع الشكليات والمظاهر وتعمل من أجل توحيد قوى الأمة في مواجهة التحديات.

في مؤتمر العالم الإسلامي تمت مناقشة محور يتضمن تحدي الاستقرار السياسي والاجتماعي مستعرضاً حالة الاضطرابات التي تعيشها الأمة بسبب التعددية. هل لك أن تحدثنا عن تأثير التعددية في الاستقرار السياسي؟

التعددية ليس لها تأثير سلبي على الاستقرار الاجتماعي أو السياسي، إلا إذا صاحبها خلل في أحد جوانبها أو حدث هناك تمايز بها أو من خلالها.■

لقاء جريدة (القبس الكويتية)

سماحة الشيخ لـ (القبس الكويتية):
لا تستعجلوا نتائج الحوار في السعودية..
وشعبنا مهيأ للديمقراطية دون ضغوط أميركية

نشرت جريدة القبس الكويتية في عددها(١١٠٧١)، الصادر يوم الأربعاء: ١٧/ ٢/ ١٤٢٥هـ (٦/ ٤/ ٢٠٠٤م)، حواراً أجاره محمود الموسوي مع سماحة الشيخ حسن الصفار.

وفيما يلي نص الحوار من موقع جريدة القبس الكويتية:

الشيخ حسن الصفار، رجل الدين الشيعي ذو العمامة البيضاء الذي أثارت وسائل الإعلام ضجة حول لقائه مع بعض الرموز والقيادات السلفية في المملكة، خرج من أرحام تلك المدينة الهادئة وهي القطيف، التي تقع على ضفاف الخليج في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.. بدأ مسيرته الدينية منذ نعومة أظفاره، حيث ارتقى المنابر الدينية خطيباً لها وعمره احد عشر عاماً، جعل أهل مدينته يهتمون بخطاباته آنذاك، وتعلم من خلال ذلك الجرأة في طرح قضاياه التي هي نابعة في الأساس من هموم محيطه.

وفي بداية حديثه أبدى أسفه لحالة الانكفاء القطري في الدول العربية والإسلامية، مشيراً إلى أن هذا التشرذم جعل من التعاون الإسلامي الإقليمي والدولي معضلة حقيقية الآن. وانتقد بعض قيادات الطوائف الإسلامية وجميع الذين يفكرون بمصالح الطائفة دون النظر إلى مصالح الوطن والأمة. وقال إن التيارات السياسية أوجدت إشكاليات أخلاقية، وبعضها استعان بالحكومات لتصفية حساباته مع الآخرين بدلاً من العمل المشترك للحد من سلطة الدولة.

ودعا إلى الحوار الإسلامي ـ الإسلامي، لاسيما بين الشيعة والسنة قائلاً إن الخلاف بين المذهبين في ١٠٪ من الأصول ونحن نترك ٩٠٪ من القواسم المشتركة ونتصارع على الـ ١٠٪.

وتطرق الصفار إلى الحوار الوطني في المملكة العربية السعودية فقال: لا تستعجلوا النتائج، فستظهر عندما يتبين الناس من هم الذين يضعون العصي في عجلات المسيرة، وأضاف إن شعوبنا مهيأة للديمقراطية دون ضغوط أميركية، مطالباً بالإصلاح في شقيه المشاركة السياسية والحريات المدنية.

وأبدى الصفار رأياً لافتاً في ما يتعلق بتغيير المناهج، وقال: إن الضجة في شأنها مفتعلة لأن المناهج بحاجة إلى المراجعة لأنها ليست قرآناً، كما لفت إلى أنه لا يعارض المشاريع الإصلاحية الأميركية طالما أن الحكومات ليست لديها البدائل.

ووصف تحسن أوضاع الشيعة في المملكة بأنه شأن داخلي لا علاقة له بتحسن العلاقات بين الرياض وطهران. وختم بإبداء إعجابه بأداء القوى السياسية في الكويت ووصفه بأنه نموذج ريادي.

وفي ما يلي تفاصيل اللقاء..

استبداد الحكومات إرهاب سياسي والاستبداد الديني إرهاب فكري

يقول الصفار:

إن الإرهاب بصورته الإجرامية كعنف ضد الأبرياء أمر مرفوض، ولكن نحن

لا نقبل الخلط أن يطلق على المقاومة المشروعة إنها إرهاب، لأنها مصادرة لحق أي شعب يقع تحت الاحتلال والظلم أن يقاوم، وبغض النظر عن هذه النقطة إن ما يعتبر إرهابا ناتج عن الإرهاب السياسي والإرهاب الفكري، مجتمعاتنا تعاني من نوعين من الإرهاب، الإرهاب السياسي متمثل باستبداد الحكومات وعدم إتاحة المجال للمشاركة الشعبية، والإرهاب الفكري المتمثل في الاستبداد الديني، إن كل جهة تمارس نوعا من الوصاية وتكفر هذا وذاك، وتفتي ضد هذا وذاك، هذا الإرهاب الفكري موجود في مجتمعاتنا، حتى أصبح المجتهد وعالم الدين في بعض الأحيان لا يستطيع أن يبوح برأيه خوفا من أن يتهم أو يصدر موقف اتجاهه.

تحسن أوضاع الشيعة في المملكة شأن داخلي

شاركتم أخيراً في الندوة الإسلامية بعنوان «مستجدات الفكر الإسلامي»، ما تلك المستجدات المطروحة في رأيك؟

أود أن أشكر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت على مبادرتها في عقد هذا المؤتمر أولاً، وفي اختيارها لهذا العنوان المهم ثانياً «الإسلام والتعاون الإقليمي والدولي»، لأنه من المشاكل والتحديات الكبيرة التي تواجهها الأمة كأمة وكقوى داخل الأمة هي مسألة التعاون والقدرة على التعاون مع الآخر، حيث أصيبت أمتنا في فترة الركود الحضاري بحالة عجيبة من الانكفاء، فأصبح الفرد منكفئاً على نفسه غير مهتم بهموم مجتمعه، وهذا الأمر نلحظه عندما نرى أن رقعة العمل التطوعي والتصدي للشأن العام محدودة في مجتمعاتنا، رغم إن الإسلام يقول من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم.. أما على صعيد الطوائف والمذاهب فنجد إن كلا منهم منكفئ على همومه الخاصة، غالبا ما يفكر أبناؤها أو قياداتها في مصالح أبناء الطائفة أو أتباع هذا المذهب دون أن يكون هناك تفكير على مستوى الوطن، أو على مستوى الأمة أو على مستوى العالم، ونجد ذلك حتى على صعيد الدول، فدولنا العربية والإسلامية أصيبت بداء «الانكفاء القطري»، أصبحت كل دولة وكأنها عالم مستقل.

اختصارا ما الحلول من وجهة نظركم للخروج من الانكفاء والفاعلية في العمل؟

هذا يحتاج إلى النهوض الحضاري. وأعتقد إن الإشكالية تكمن بالفكر السائد في أوساط الأمة، وأيضا في المؤسسات القيادية التي تدير شؤون الأمة من حكومات ومن جهات دينية بشكل أساسي، هذه المؤسسات السياسية والدينية تكرس حالة الركود في الأمة بدل أن تعطيها حالة من النهضة والاندفاع.

إشكاليات خلافية

هل نفهم أن الحالة التي وصلت إليها مجتمعاتنا هي بسبب رجال الدين والأحزاب في الأمة؟

نعم التيارات السياسية الموجودة في الأمة أوجدت حالة من الإشكاليات الخلافية بين كل تيار وآخر، وجود التيارات والتنظيمات حالة صحية ولكن عدم وجود علاقة إيجابية بين هذه التنظيمات أوقع الأمة في إشكالية الخلافات الحزبية والفئوية، حينما صار كل حزب أو فئة تعبأ أو تحرض ضد الفئة الأخرى، وحصل عندنا في كثير من البلدان أن تيارا ما يحرض الدولة ضد التيار الآخر، من أجل أن يصفي حساباته يستعين بالدولة، وكان يفترض بهذه التيارات أن تتعاون معا للحد من سلطة الدولة على حساب حريات الناس، وعلى حساب حريات المجتمع المدني ومؤسساته، وهذه حالة سلبية في المنظمات والأحزاب السياسية، وفي الحالة الدينية أيضا باعتبار إن الإسلام فيه مذاهب ومدارس فكرية وفقهية كان ينبغي أن تكون العلاقة بينهم علاقة إيجابية وعلاقة تفاهم وحوار وتركيز على المشتركات، و علاقة تعاون في مواجهة التحديات العامة التي يواجهها الدين أو الأمة، ولكن مع الأسف نجد في كثير من الأحيان إن قيادات هذه المذاهب والمدارس الفكرية والفقهية تضخم المفروقات والأشياء المختلف فيها بين هذه المذاهب وتجعلها هي العنوان واللافتة، ماذا يميز الشيعة عن السنة والعكس؟!، فتصبح هذه هي اللافتات والعناوين وهي مكان البحث،

وتغفل المشتركات أو الاتفاق تتجاوز ٩٠٪، والاختلاف في ١٠ أو أقل، ولكننا دائما نتحدث في إطار العشرة في المائة المختلف فيها، وننسى ونتجاهل التسعين في المائة المتفق عليها، وأيضا لدينا إصرار ما بين المذاهب والطوائف على أن لا نفهم بعضنا البعض بشكل صحيح، بل نفهم بعضنا البعض على شكل إشاعات ومن خلال الظنون وبعض الآراء الجزئية ونعممها على كل أبناء الطائفة أو المذهب.

تضخيم

كيف نستطيع أن نوفق بين مفهوم التعايش والجانب العقائدي بين المسلمين مع وجود موروث تاريخي طويل؟

يبدو أن هناك تضخيما في مسألة الثوابت العقائدية ليست هناك مشكلة عقدية تمنع من التعاون حتى لو كانت هناك قضايا مختلف عليها في فروع أصول العقيدة، ما دمنا نتفق على التوحيد وعلى النبوة والمعاد ومرجعية الكتاب والسنة وأركان الدين الأساسية فتبقى الفروع قضايا جزئية، سواء جزئية في العقائد أو في الفقه، كل ما يجري الكلام عن التعايش أو التعاون يأتي من يقول لا نتنازل على حساب ثوابت الأمة العقدية هذا تهويل، النقطة المهمة التعايش والتعاون لا يعني أن يتنازل أحد الطرفين عن شيء مما هو مقتنع به، كل طرف يتمسك بقناعاته وأفكاره، المطلوب التنازل عن شيء واحد فقط وهو ما يسيء إلى الطرف الآخر، فلتكن للشيعي كل معتقداته وقناعاته ولكن ليس مقبولا منه أن تصدر منه إساءة للطرف السني الذي هو شريكه في الدين وفي الوطن وفي المصلحة العامة والعكس كذلك، فهذا الشيء الوحيد الذي يجب أن نتفق عليه وهو كف الإساءة والاعتداء من أي طرف على حقوق الآخر.

تقريب

تطالبون بالتقريب بين المذاهب الإسلامية ونحن نحتاج إلى تقريب بين أفراد المذهب الواحد كيف نستطيع أن نتجاوز ذلك؟

المشكلة واحدة، عقلية قبول الآخر والرأي الآخر هي المشكلة، نحن تربينا على الأحادية، وعلى رفض الرأي الآخر، ضُخّت لنا ثقافة بهذا الاتجاه، تربينا عائليا واجتماعيا على هذا الاتجاه، نرفض التعددية ولا نقبلها، ونمارسها ضمن مختلف الدوائر، القريبة والبعيدة، بينما القرآن يريبنا على أن نقبل الرأي الآخر المخالف لنا في الدين، فيقول تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ حيث الآية تذكر ست ديانات كاعتراف بوجودها في الواقع الخارجي، أما من حيث الصواب والحق فإن الدين عند الله هو الإسلام، بل أن القرآن يخاطب الديانتين المنافستين بأهل الكتاب وهذا اسم للاحترام، وأيضا كان الرسول صلى الله عليه واله يقبل بوجود النصارى واليهود كأمر واقع مع قوله إن الدين عند الله الإسلام، ولكن في الواقع الحياتي كان يقبل وجود الآخرين، والحديث المشهور موجود في صحيح البخاري وفي وسائل الشيعة إن الرسول كان جالسا وإذا بمرور جنازة فقام وقام الأصحاب وقالوا يا رسول الله إنها جنازة يهودي، قال أو ليست نفسا. نبينا هكذا يتعامل.. ونحن كيف نتعامل فيما بيننا، والقرآن يقول:﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ لم يقل المسلمين، لأن التكريم الإلهي للإنسان بعنوانه الإنساني بغض النظر عن العناوين الأخرى.

أرضية

كثيرون يستخدمون سلاح الفتنة عند أي أزمة اجتماعية أو سياسية ما تعليقكم على ذلك؟

في تصوري إن التخويف بالفتنة له نصيب من الواقع لأن هناك أرضية في مجتمعاتنا للاستجابة للانفعالات والعواطف كما كان في عرب الجاهلية لمجرد أن ينادي شخص مثلا واعشيرتاه.. فيهب أبناء العشيرة لنصرته ظالما كان أو مظلوما.. الساحة لدينا مع الأسف بمجرد أن يأتي شخص ويتكلم باسم الدفاع عن المذهب أو عن العقيدة من أهل السنة كان أو من الشيعة يجد من يفزع له وقبل التأكد من كلامه

صحيح أو غير صحيح، لكن إذا أخذنا المشهد العراقي مقياسا يمكننا أن نصل إلى درجة من التفاؤل لأن الشعب العراقي لحد الآن أثبت نضجا في مواجهة الانجرار خلف الفتنة، رغم أن الأحداث التي وقعت كانت كبيرة من استشهاد السيد الحكيم وما حدث في كربلاء والكاظمية يوم عاشوراء، وما حصل في بغداد من اغتيال أئمة السنة، هذه كان يمكن أن تفجر فتنة طائفية خاصة في ظرف مثل ظرف العراق، ولكن الشعب العراقي وقياداته أبدت نضجا وحاولت أن تتجاوز ونأمل إن شاء الله أن تستمر هذه الحالة في العراق وتكون قدوة لبقية الشعوب، لذا علينا أن نستنهض وعي الأمة وهمم المصلحين والمفكرين حتى لا تتم مثل هذه المخططات والتي هي في أغلبها داخلية يستفيد منها الخارج.

حوار وطني

اليوم بعد مرور أشهر على بدء مؤتمر الحوار الوطني في السعودية وعقد لقاءين في الرياض والآخر في مكة، هل لمستم بوادر إصلاحية حقيقية من ذلك؟ وهل هناك لقاءات أخرى قريبة؟

الذي تحقق من خلال اللقاءين هو المكاسب التالية أولا: حصل نوع من التعارف والتواصل بين القوى والتيارات الموجودة في المجتمع السعودي، سابقا كان هناك حالة من القطيعة رغم إننا كنا نعيش في وطن واحد، من خلال المؤتمر حصل لقاء وانفتاح ومصارحة ومكاشفة، وبالتالي بدأ التواصل وهذا مكسب كبير، من ناحية ثانية المكسب الآخر على المستوى الإعلامي وجود فرص إعلامية لم تكن متوافرة سابقا، كان الإعلام الرسمي في السعودية وحتى الصحافة له اتجاه واحد ورأي واحد، الآن من بعد الحوار الوطني أصبحت الفرص متاحة أكثر، لكن مؤتمر الحوار الوطني في اللقاء الأول والثاني خرج بتوصيات وقدمت للحكومة متمثلة بشخص ولي العهد هذه التوصيات وخاصة توصيات اللقاء الثاني في مكة لقيت تجاوبا وتأييدا شعبيا واسعا، وحتى صارت عرائض ورسائل وقعت من قبل المئات من الناس يؤيدون هذه

التوصيات، ولكن تنتظر طريقها إلى التنفيذ، ومن أهم التوصيات الإسراع في الإصلاح السياسي بحيث يكون هناك فصل بين السلطات الثلاث، ويكون أعضاء مجلس الشورى بالانتخاب وليس بالتعيين، ومن التوصيات ترشيد إنفاق المال العام ومحاولة الحد من العجز للمديونية، ومن التوصيات الاعتراف بالتنوع الفكري والمذهبي، وإعطاء فرص للجميع على مستوى الوطن، واحترام حقوق المواطنة بغض النظر عن التمايز المذهبي والفكري، ومن التوصيات الاهتمام بموضوع المرأة، وإعطاء مجال للتجمعات المدنية، ومن التوصيات توسيع رقعة التعبير عن الرأي. وأما في ما يتعلق بعقد اللقاء الثالث فإنه لا يرتبط باللقاءات الماضية وعناوينها تختلف، ولكن لدينا مشكلة وهي أن شعوبنا لديها نظرة سلبية تجاه المؤتمرات، لأنها تخرج بتوصيات وتبقى حبرا على ورق، يحتاج أن تنفذ حتى يصبح بارقة أمل عند الشعوب.

تناقض

بعض المشاركين في مؤتمر الحوار تناقضت آراؤه وتصرفاته مع روح اللقاءات. كيف السبيل لتجاوز هذه الحالة؟

هذا الركام من الخلافات والتشنجات لا يمكن أن يزول بين عشية وضحاها ويحتاج إلى وقت وجهد، لذلك لا نستعجل النتائج والثمار فنتوقع إذا عقد لقاء أو لقاءات ستحل كل المشاكل وسيحصل انسجام ووئام فورا، والنقطة الأخرى هناك متطرفون في مختلف المذاهب والطوائف، هؤلاء المتطرفون سوف لن يدعوا مسيرة الحوار تسير بهدوء وتشق طريقها، سيثيرون مختلف الإشكاليات والشبهات وسيعرقلونها، وأما العامل الثالث فهناك ضغط التيارات، أي كل واحد عليه ضغوط في وسط تياره، أنا ضمن الحالة الشيعية تمارس علي الضغوط وأعلم أن آخرين في الوسط السني يواجهون ضغوط تياراتهم، نحن نأمل أن تكون النخبة المتحاورة في مستوى الارتقاء بجماهيرها وتياراتها وليس الانحدار معها.

إصلاح شامل

ما ملامح الإصلاح السياسي الذي تنشدونه وينشده المجتمع السعودي؟

نحن نسعى إلى مشروع إصلاحي شامل، وأبرز ما فيه أمران: الأول توسيع رقعة المشاركة الشعبية في القرار السياسي، بحيث لا يكون القرار السياسي محدودا بفئة معينة، وإنما المشاركة الشعبية عبر الانتخابات والحريات على النمط الديمقراطي الموجود في دول العالم، وثانيا حرية التجمعات والنشاط المدني بأن تكون هناك جمعيات سياسية ثقافية اجتماعية، ومؤسسات أهلية مدنية، إذا توفر هذان الأمران يعني أن مناطقنا وبلداننا سارت على سكة وطريق الإصلاح.

هل الإصلاح مرتبط بالجانب السياسي كبوابة؟ وأين دور الجانب الثقافي؟

أما الثقافة فهي ملجمة بالقرار السياسي، إذا صارت هناك حريات فيستطيع الفرد أن يعبر عن رأيه ويظهر الجانب الثقافي والاجتماعي دون أي قيود.

ما رأيكم بما يطرح من ضغوط خارجية على الدول الإسلامية من أجل تعديل مناهجها الدينية؟ وهل تؤيد أن يتضمن قضية التقريب بين المذاهب في المناهج الدراسية؟

أنا أعتقد أن ما يجري حول موضوع تعديل المناهج الدراسية من تهويل وضجة لا داعي لها أبدا، المناهج الدراسية ليست سورا من القرآن الكريم يحرم مسها وتغييرها، مناهج وضعها خبراء في وقت من الأوقات لهم رأيهم واحترامهم، ولكن ينبغي أن تراجع بين كل فترة وأخرى، خصوصا في هذا العصر هناك تحد ثقافي كبير يواجه المسلمين، نريد أن نربي أبناءنا على قيم الدين ونريد أن نعطيهم ثقافة.

نموذج ريادي

ما رأيكم بدور القوى السياسية في الكويت؟ وهل لديكم رسالة تودون إيصالها إليهم؟

أنا أعتقد أن القوى السياسية والفكرية الموجودة في الكويت نتوقع منها أن تقدم نموذجاً ريادياً في المنطقة، لأن الانفتاح السياسي في الكويت أسبق من كل دول المنطقة، ولأن حالة التعايش بين المدارس وبين الطوائف المختلفة قياساً إلى بقية المناطق تعتبر هي الأفضل، لذا نريد منهم في هذه المرحلة أن يقدموا نموذجاً ريادياً، لا يكفي ألا تكون هناك مشاكل بين الأطراف، وإنما ينبغي أن تكون هناك مشاريع مشتركة، نحن نتوقع من القوى السياسية والدينية في الكويت أمرين: الأول أن يثبتوا نجاحهم في المشاريع المشتركة داخل الكويت، والأمر الثاني أن يكونوا رسلاً للتبشير بحالة التعايش إلى المناطق الأخرى.

مبادرات إصلاحية

عن الأنظمة الاستبدادية والثقافات الاستعمارية ومحاولاتها في زعزعة ثقة الناس بأنفسهم وتكريس ثقة الشعب بنفسه قال الصفار:

نحتاج إلى ضخ الثقافة التوعوية، ثقافة النهضة والتحرر من آثار الاستبداد، والشيء الآخر نحتاج إلى مبادرات إصلاحية، من خلال طلائع من الأمة تبادر إلى اتخاذ مواقف متحررة والقيام بخطوات تتجاوز هذه الحالة السلبية المتخلفة، والحمد لله بدأ في الساحة مثل هذا الأمر، نحن نرى في إيران نموذجا طيبا، وفي حزب الله لبنان نموذجا طيبا، ونرى في حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين أيضا نموذجا جيدا، ونرى المطالبين بالإصلاح في مختلف البلدان العربية والإسلامية ومضات طيبة، نأمل أن تتكثف نقاط الضوء هذه حتى تصنع جوا مضيئا لامتنا ومجتمعنا.

ديمقراطية نستحقها

عن عملية الإصلاح في السعودية وما إذا كانت بفعل الضغوط الأميركية ومدى توفر الأرضية المناسبة لممارسة السعوديين الديمقراطية قال الصفار:

أعتقد أن شعوبنا مهيأة للديمقراطية، والتشكيك في استحقاق شعوبنا وأهليتهم في ممارسة الديمقراطية غير صحيح، لأن هذا التشكيك يستبطن القول أن مجتمعاتنا هي أقل من بقية المجتمعات الأخرى، نحن نرى في الهند انتخابات وفي اليمن، وفي بلدان مختلفة في العالم، فالشعب السعودي فيه نسبة كبيرة من المتعلمين، ومنفتح على العالم ويرى التجارب الموجودة ومنها ما يحدث في الكويت من انتخابات لأكثر من ٣ عقود من الزمن، وفي البحرين حدثت الانتخابات وفي قطر وسلطنة عمان. أما قبول الدولة أو توجهها للإصلاحات كنتيجة ضغوط خارجية أو داخلية، فلا شك أن هناك ضغوطا خارجية وهذا ليس سرا تحدث عنه الإعلام والمسؤولون الأميركيون يتحدثون عن هذا الموضوع، ولاشك أن هناك ضغوطا داخلية تتمثل في العرائض التي قدمت للدولة تطالب بالإصلاح السياسي، ولكن القيادة السياسية في المملكة استجابتها نابعة من أي شيء، نحن نأمل أن تكون الاستجابة هي باندفاع ذاتي واستجابة لمتطلبات الشعب، المهم أن يبدأ الإصلاح السياسي.■